منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري

تأليف

الدكتور إحسان عباس

الناشر

دار ليبيا للنشر والتوزيع

بنغازي

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



تاريخ ليبيا

منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري

تأليف

الدكتور احسان عباس

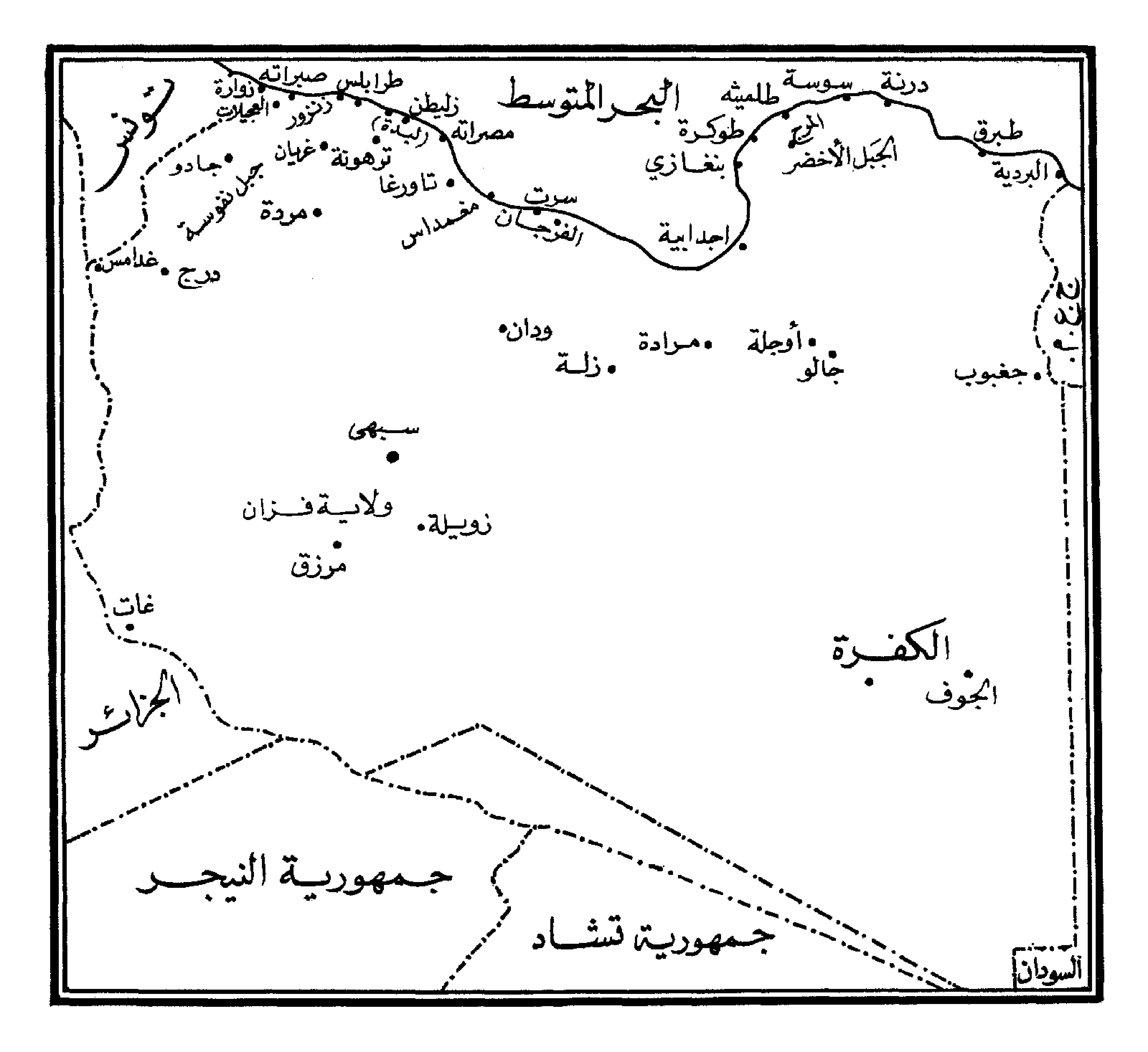
الناشر

دار ليبيا للنشر والتوزيع

بنغازي

الطبعة الأولى

طبع على مطابع دار صادر في بيروت
١٣٨٧هـ ١٩٦٧م



البحر المتوسط
تونس
زوارة
صبراته
طرابلس
العجيلات
زنزور
زليطن
(البيدة)
مصراتة
غريان
ترهونة
جادو
جبل نفوسة
تاورغا
مردة
سرت
مغمداس
النوفليان
غدامس
درج
طلميثه
سوسة
درنة
طوكرة
المرج
الجبل الأخضر
طبرق
بنغازي
البردية
اجدابية
ودان
زلة
مرادة
أوجلة
جالو
جغبوب
سبها
ولاية فزان
زويلة
مرزق
غات
الكفرة
الجوف
الجزائر
جمهورية النيجر
جمهورية تشاد
السودان

تصدير

ليس من السهل أن يُكتب تاريخ ليبيا في العصور الإسلامية منفصلاً عن تاريخ مناطق أخرى مثل مصر وإفريقية والمغرب الأقصى ، ولذا فإن الصفحات التي كتبتها في هذه الدراسة قد تكون واضحة لمن لديه إلمام عام بتاريخ الطولونيين والرستميين والعبيديين والصنهاجيين والموحدين والحفصيين بعد أن يكون قد عرف شيئاً عن طبيعة الفتوحات الإسلامية في الشمال الإفريقي كلّه وعن ولاة الدولة الأمويّة والعباسيّة في هذه المنطقة . كما أنّها قد تجيء سريعة مبهمة في بعض جوانبها لمن لم تتكون لديه فكرة عن سياق التاريخ الإسلامي في تلك الأقطار .

غير أنّها صفحات لا بدّ من أن تُكتب ؛ ومنذ اتخذت من الاستقصاء للمصادر خطّةً في كتابتها رأيتني أستطيع أن أقدّمها للدّارسين ، لا إيماناً بأنّها جاءت مستوفاة في شتّى النواحي ، وإنّما لأني وجدتها في مجملها متكاملة تصلح أن تخضع للدراسة والنقد .

وقد عمدت إلى التوقف فيها عند مطلع القرن التاسع الهجري لأني وجدت أن الفترة التالية بعد ذلك سوف تنقلني إلى نوع آخر من المصادر والوثائق ؛ فإذا وجد هذا البحث قبولاً لدى الدارسين والقرّاء استطعت أن أمضي شوطاً آخر في دراسة التاريخ الليبي .

وسيلحظ القارىء أنّي قسمت دراستي هذه رغم تلاحق فصولها في قسمين كبيرين يفصل بينهما طغيان الموجة العربية من بني سليم وهلال على أراضي ليبيا ، ولهذا كتبت عن طبيعة العمران في ليبيا فصلين : أحدهما يتناول ما قبل تلك الموجة والثاني يتناول الحال العمرانية بعدها . وكنت في كتابة هذين الفصلين — كما كنت في سائر الفصول — خاضعاً لما تستطيع المصادر أن تمدني به دون تزيّد في الصورة العامة أو تحسين لها ، لأن رائدي هو الإنصاف القائم على التحري الدقيق ، والله أسأل أن يكون التوفيق قد حالفني فيما إليه قصدت ، فهو حسبي ونعم الوكيل .

بيروت في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٦٧

إحسان عبّاس

ليبيا قبل الفتح العربي

كانت الأجناس التي تقطن ما يسمى اليوم ليبيا — قبيل الفتح العربي — تتألف ، مثلما هي الحال في سائر المغرب ، من ثلاثة عناصر هي الروم والأفارقة والبربر .

ويحاول ابن خلدون أن يقول إن الذين أطلق عليهم العرب اسم الروم لم يكونوا روماً بيزنطيين في الأصل ، وإنما كانوا من الفرنجة ، أي من سكان إيطاليا وفرنسا ، يقول : « فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم يكن للروم شيء فيها من ولاية ، وإنّما كان كل من كان منهم بها من جند الإفرنج ومن حشودهم ؛ وما يُسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب لأن العرب يومئذٍ لم يكونوا يعرفون الإفرنج ، وما قاتلوا في الشام إلاّ الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانيّة ، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها ، فغلّبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية »[1]. ويبدو أن هذا التمييز الدقيق الذي يريد أن يرسمه ابن خلدون يستحق النظر ولكنّه لا يستطيع أن ينفي به أن عناصر بيزنطية رومية نزلت سواحل ليبيا وإفريقية ، إلى جانب العناصر الفرنجية، وأن العرب حين أطلقوا اسم الروم على هذه العناصر لم يكن ذلك من باب التغليب وحده ، بل لأنهم نظروا أيضاً إلى التبعية السياسية حين وجدوا أن بيزنطة هي التي كانت تسيطر على المنطقة من برقة حتّى طرابلس

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٠٧ .

وتلك الممتدّة من طرابلس إلى حدود طنجة . وعلى هذا فلا خطأ في أن نطلق على هذا العنصر الآتي من جهات شتى في شمال البحر المتوسط اسم الروم مقدرين أن أكثر الذين يشملهم هذا الاسم إنما هم من العناصر التي تسيطر على شؤون الدولة والجيش وملكية الإقطاعات الكبيرة .

وأمّا الأفارقة فهم في رأي ابن عبد الحكم « خدم الروم »[1] وهذا يشير إلى طبقات مستقرة من الناس ، أخلاط مجتمعين من أمم شتى فيهم بقايا أمم قديمة وعناصر بربريّة وفرنجية تجمعها صفة الخدمة أي العمل في المزارع والحرف ، فهم يمثلون الطبقات العاملة في مختلف المرافق .

وأمّا البربر فهم أهل البلاد الأصليون ، وقد ميزهم نسّابوهم في طائفتين : البتر والبرانس ، وعنهم أخذ المؤرخون العرب هذه القسمة ؛ فمن البربر البتر : لواتة وهوارة ومديونة ومكناسة واداسة وزناتة (وبعض النسابين يجعل زناتة قسماً ثالثاً مستقلاً) ومن البرانس أوريغة وكتامة وصنهاجة ومصمودة وعجيسة وأوربة وازداجة[2] .

وهذه قسمة اصطلاحية وقد تكون متأخّرة في تاريخها ، وفيها ما يعتري علم الأنساب من نقائص ؛ فابن حزم يعدّ هوّار (أو هوّارة) من أولاد برانس، وينقل عن نسابي البربر زعمهم بأن سدراتة ومزاتة ولواتة من القبط[3] . وتمتد الاختلافات إلى كثير من هذه الأنساب مثلما تشمل الحديث عن أصل البربر جميعاً . ولكن تقسيم البربر إلى بتر وبرانس يظل — كما يقول الدكتور حسين مؤنس : « أدل على أحوال البلاد ، وأكثر اتفاقاً مع طبيعة نظام أهلها

---

١ ابن عبد الحكم : ١٧٠ .

٢ انظر تاريخ ابن خلدون ٦ : ٨٩ – ٩١ .

٣ جمهرة الأنساب : ٤٩٦ ، ٤٩٨ (الطبعة الثانية) .

الاجتماعي من أي تقسيم آخر ، واتباعه يلقي ضوءاً كشافاً على كثير من أحداثها ، ولكن المبالغة في الاعتماد عليه ربما أدت إلى خطأ »[1]. كذلك انقسم البربر من الناحية الاجتماعية في قسمين فكان منهم سكان الحواضر في الشمال ومنهم البداة سكان المناطق الداخلية .

وقد تصوّر العرب استيطان البربر قديماً على نحو ما رأوهم منتشرين عند الفتح ؛ يقول ابن عبد الحكم وغيره : « وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت ، فلمّا قتله داود ، عليه السلام ، خرج البربر متوجهين إلى المغرب ، حتّى انتهوا إلى لوبية ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية . . . فتفرّقوا هنالك : فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب ، وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواتة فسكنت أرض انطابلس وهي برقة وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه حتّى بلغوا السوس ، ونزلت هوارة مدينة لبدة ، ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرت »[2] وعند اليعقوبي زيادة تفصيلية على هذا إذ يقول : و« ملكت مزاتة في أرض يقال لها ودّان . . . وسار قوم إلى طرابلس يقال لهم المصالين ، وجاز قوم إلى غرب طرابلس يقال لهم وهيلة »[3] .

وهذا التوزيع صحيح في جملته ، ويبدو أنّه كان كذلك قبل الفتح العربي بقرون ، سواء أكانت الأسماء تدل على أصول من النسب أو لا تدل . فالقبائل التي يدعوها النسابون لواتة ويقولون إنهم أبناء لو الأكبر لم يكونوا سوى الأقوام الليبية (الليبتاي) ، وكانوا في العصور الرومانية يسكنون جنوب برقة وطرابلس ، أي في نفس المواطن التي عيّنها المؤرخون العرب .

---

١ فتح العرب للمغرب : ٨ .

٢ ابن عبد الحكم : ١٧٠ .

٣ تاريخ اليعقوبي ١ : ١٩٠ .

وكانت المنطقة الواقعة بين حدّ مصر الغربي وحدّ ما يسميه الجغرافيون العرب باسم « إفريقية » مقسومة في ولايتين أيام البيزنطيين : شرقية تضم ما يطلق عليه العرب اسم برقة وغربية وتدعى طرابلس . فكانت برقة في العهد البيزنطي تتمثل في خمس مدن هي قورين Cyrene (شحات الحديثة) وبرقة (Barca) (التي أصبح مكانها المرج في القرن السادس الهجري) وأرسينوي Arsinoe (طوكرة حاليّاً) وبرنيق Berenice (بنغازي الحالية) وأبولونياس Apolloniace (سوسة الحالية) ؛ وعند الفتح كان هنالك أيضاً ميناء طلميثة « Ptolemaed » ودرنة Darnis وطبرق Antipyrgos . وقد أطلق على المدن الخمس الأولى اسم بنطابلس « Pentapolis » — والكلمة تعني المدن الخمس — فلما فتح العرب هذه المنطقة جعلوا بنطابلس مرادفة لبرقة (المدينة دون المنطقة) ولذلك قال البكري في التعريف بها : برقة واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن[1] ، وغلب لفظ « أنطابلس » عليها أكثر من لفظ بنطابلس .

وأمّا ولاية طرابلس فتضم المدينة نفسها Tripolis وبعض الموانىء مثل سرت Syrta وصبراتة (سبرت عند جغرافيي العرب) Sabrata ولبدة Leptis ؛ وهذه المدن الثلاث هي التي أُطلق عليها اسم Tripolis إذ كانت المدينة المسماة بهذا الاسم تسمى من قبل أُيَا Oea وهو لفظ موجود في المصادر العربية على شكل أُياس (وتصحف في بعضها إلى « أُناس ») . ثم أُطلق الاسم العام على مدينة واحدة من المدن الثلاث هي طرابلس الحالية .

ويبدو أن مؤرخي العرب تأثّروا بما تمّ في إدارة هاتين الولايتين في العهود الإسلامية فقالوا إن برقة كانت تابعة لحاكم الإسكندرية وإن طرابلس

---

١ البكري : ٤ .

كانت تابعة لصاحب إفريقية الذي يُعرف لديهم باسم جرجير Gregorius ، ولكن الأمر لم يكن بهذا الشكل القاطع في جميع عصور السيادة البيزنطية ، إذ نجد أن الولايتين في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع — مثلاً — كانتا تابعتين لصاحب الإسكندرية . ولعل جرجير الذي أعلن استقلاله عن بيزنطة في ولاية إفريقية قد اعتبر طرابلس — قبيل الفتح العربي — داخلة تحت نفوذه .

وكانت ملامح التفكك والاضطراب بادية على أوضاع ليبيا البيزنطية مثلما كانت واضحة في سائر ولايتها الإفريقية ، ويمكن أن نطبق على ليبيا في هذا الصدد ما ينطبق على سائر المستعمرات البيزنطية نفسها في الشمال الإفريقي من مظاهر الضعف وأسبابه العامة[1] :

فقد أصبحت الدولة البيزنطية لقلة مواردها عاجزة عن دفع ما تعودت دفعه من رشى وأعطيات لرؤساء القبائل البربرية كي تضمن استمرار خضوعها ، وعاجزة عن دفع المال اللازم لمن استخدمتهم جنداً من السكان الأصليين وغيرهم ، حتى إن القبائل الكبيرة ، مثل لواتة ، وجدت الفرصة سانحة لإقامة نوع من الاستقلال يحول دون تدخل السلطات البيزنطية في شؤونها ، وبذلك انحصر نفوذ البيزنطيين في المناطق الساحلية ، وتحقق للقبائل الكبيرة نوع من السيادة مكّنها من الامتناع عن دفع الضرائب للبيزنطيين ومن تأسيس وحدات بربرية قومية .

ولا ندري كم كانت أمور الفرقة الدينية والتناحر المذهبي في إفريقية تنعكس على منطقة ليبيا ، فقد حاول هرقل في النصف الأول من القرن السابع

---

١ انظر الفصل الخامس من كتاب L'Afrique byzantine ، لمؤلفه Charles Diehl vol II pp. 537—562 (New york).

الميلادي أن ينشر بين السكان مذهباً شبيهاً بالمذهب المونوثيلي ، وكان السكان يكرهون هذا المذهب — وما يشبهه — فعارضوه بشدة ؛ ولما جاء هرقل الصغير — وكانت أمه تميل إلى المذهب المونوثيلي — عادت المحاولات إلى فرضه على الإفريقيين بالقوة ، فسادت الاضطرابات بين أتباع هذا المذهب والمتمسكين بالمذهب الأرثوذكسي . وزاد في حدّة هذا الصراع قدوم راهب يدعى مكسيم ، جمع الناس من حوله ، وأشعل فيهم روح النقمة على بيزنطة وعلى آل هرقل ، بوجه خاص ، وصادفت حركته قبولاً لدى البابابوية ، فأيدته ، وانتصر له جرجوريوس (جرجير) نفسه فكان انفصال جرجير عن بيزنطة دينيّاً قبل أن يكون سياسيّاً . أما دور ليبيا في هذا الصراع فإنّه غير واضح . وتتحدث المصادر العربية عن مناطق من ليبيا ، أهلها أقباط ، ممّا يدل على أن المذهب اليعقوبي هو الذي كان يغلب على الكنائس والأديرة فيها قبيل الفتح العربي .

وأيّاً كان الأمر ، فإن منطقة ليبيا كانت تعاني الإهمال من قبل الحكام البيزنطيين لأن بعضها تابع لبطريق الإسكندرية وبعضها تابع لبطريق سبيطلة (أو قرطاجة) وكلّ واحد من هذين مشغول بما يليه من اضطرابات مذهبية وغير مذهبية ، وسرعان ما فقدت الوحدة بين تلك الأجزاء كما فقدت بين بيزنطة وولايتها الإفريقية عامة ، وأصبح المظهر العام للحكم العسكري البيزنطي لا يتمثل إلاّ في جمع الضرائب . ولم تعد المحارس على الساحل إلاّ امتداداً صوريّاً للسلطة القديمة .

ومن جراء النزاع الطويل بين الحاكمين والمحكومين (تتزعمهم لواتة) ران على منطقة ليبيا لونٌ من الضعف غالب ، جعل المحكومين لا يبدون مقاومة كبيرة نحو الفاتحين الجدد سواء في ذلك المتحضرون في الشمال أو البادون في المناطق الداخلية ، وقد نفسر قلة المقاومة أيضاً بتفاهم حدث بين الفاتحين

والسكان الأصليين للتخلص من حكم البيزنطيين، وهذا يعلل لِمَ ترك العرب البلاد في المرحلة الأولى من الفتح لأهلها يديرونها بأنفسهم ولم يتدخلوا حتى في طريقة جمع الجزية المفروضة برضى الطرفين .

وليس من المنتظر أن تبدي منطقة برقة مقاومة أمام الفاتحين بعد أن سقطت الإسكندرية — وهي أقوى مركز بيزنطي في شرقها — ، وكان تقدم الجيوش الإسلامية — من ناحية أخرى — إلى منطقة برقة استمراراً طبيعياً لحركتها بعد فتح الإسكندرية على يد عمرو عام ٢١ هـ. إذ لا بد من أن هذا القائد الذكيّ كان يدرك أن تعقبه للنفوذ البيزنطي لم ينته بفتح الإسكندرية .

قصة الفتح العربي في ليبيا

ينفرد ابن عذاري بالإشارة إلى أن عمرو بن العاص بعدما افتتح مصر في سنة ٢٠ هـ. « وجّه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها »[1] . وهذا الخبر على هذا النحو يعني أن عمرو بن العاص اتخذ من أعمال عقبة وسيلة للاستطلاع والتعرف قبل أن يذهب بنفسه لفتح برقة . ومع أن الرواية غير مستبعدة من حيث الدلالة على قيمة الريادة والاستطلاع وحذر عمرو ، فإنّها تُعد من ذلك النوع الذي يعاني من الإيجاز المخلّ : ذلك أن عمراً ليس من الطبيعي أن يبعث عقبة إلى برقة قبل فتح الإسكندرية ؛ كذلك فإن قول الرواية « فافتتحهما » ثم قولها « ثمّ توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها » غير منسجمين معاً ، ولهذا التنافر بين أول الرواية وآخرها نرى ابن أبي دينار قد تصرف فيها فذكر فتح الإسكندريّة أولاً ، ثم أسقط ذكر برقة من سائر الرواية فقال : « ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والإسكندرية بعث عقبة بن نافع إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد ، فصارت تحت ذمة الإسلام ، وسار عمرو فغزا مدينة طرابلس وفتحها »[2] . فابن أبي دينار لا يذكر هنا أن عمراً صالح برقة بعد أن صالحها عقبة لأن ذلك شيء لا يوحي بالانسجام .

والأقرب إلى المعقول هو ما تتفق عليه الروايات الأخرى ، أي أن الذي

---

١ ابن عذاري ١ : ١ .

٢ المؤنس : ٢٢ – ٢٣ .

سار للفتح هو عمرو بن العاص وفي جيشه عقبة بن نافع ، فلمّا فتح برقة أواخر عام ٢١ هـ.[1] أرسل عقبة في حملة إلى الداخل فجاب البلاد حتّى زويلة .

وتتفق أكثر المصادر[2] على أن برقة – وهي مدينة أنطابلس – فتحت صلحاً[3]، وأن أهلها وافقوا عمرو بن العاص على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقداره ١٣ ألف دينار ، وأن عمراً كتب لهم بذلك كتاباً . وقد يُستنتج من قولة لعمرو « ما لأحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهداً يوفي بها »[4] أن أهل أنطابلس كانوا نصارى ، ولكن التعبير اللغوي قد يتحمل غير ذلك أيضاً ، أما قول ابن عذاري إنّه فرض ديناراً على كل حالم[5] فلا يمكن قبوله على هذا النحو إلا إذا افترضنا أنّه يعني أن الثلاثة عشر ألف دينار كانت تشير إلى العدد التقريبي للحالمين ، وأن الصلة بين الروايتين قد تقرب إلى الذهن عدد سكان برقة حينئذ ، إلاّ أن نقدر أن قسماً كبيراً من أهلها قد أسلم حينئذ كما يقول ياقوت . وبذلك تكون هذه الجزية منبئة عن عدد أهل الذمة[6] .

وقيل إن عمراً أدرج في كتابه لأهل أنطابلس قوله : « إن عليكم أن

---

١ الكندي : ٩ وقال اليعقوبي (البلدان : ٣٤٦) بقوله انه فتحها عام ٢٣ هـ . وانظر ياقوت : « برقة » . وقال المقريزي في الخطط ٢ : ٨٠–٨١ انه افتتح برقة سنة ٢٢ وقيل في سنة ثلاث وعشرين ؛ وعند ابن الأثير سنة ٢١ قال وقيل سنة ٢٠ (٣ : ١٥) ثم عاد فذكر فتحها سنة ٢٢ (٣ : ١٩) .

٢ انظر مثلا ابن عبد الحكم : ١٧٠ ، وفتوح البلدان : ٢٦٤ والمغرب : ٣٩ .

٣ في خطط المقريزي ٢ : ٨٠ – ٨١ أنها فتحت عنوة .

٤ ابن عبد الحكم : ٨٩ ، وفتوح البلدان : ٢٥٤ واليعقوبي ٢ : ١٥٦ .

٥ ابن عذاري ١ : ١ .

٦ ياقوت : « برقة » .

تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية »[1] ، وإن الليث بن سعد كان يقول من بعد في تعليقه على هذا الشرط : « فلو كانوا عبيداً ما حلّ ذلك منهم »[2] وأنا استبعد إدراج مثل هذا القول في العهد ، لأن الروح العامة التي كانت تملي شروط الجزية — وخاصة في عقود الصلح — لم تكن تفترض بيع الأبناء والبنات ، وإنّما تقدّر أن يكون في ما يقدم في الجزية بعض العبيد — كما حدث في صلح النوبة مثلاً — وكثيراً ما كان الناس يسخون — في تلك الأيّام — بتقديم الأبناء والبنات ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة لإدراج مثل هذا التنويه في العقود ، فالنصّ الصريح على ذلك مجافٍ لروحها وإن كان شيئاً يتم على نحو عملي .

وبعد أن وجّه عمرو عقبة بن نافع بقسم من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة ، سار على رأس القسم الأعظم من جيشه قاصداً أطرابلس (سنة ٢٢ هـ) ففتح في طريقه أجدابية صلحاً على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار ، وقد أسلم كثير من أهلها في هذا الفتح[3] . وتعيين عام ٢٢ في المسير إلى أطرابلس متسق مع الانتهاء من فتح برقة أواخر عام ٢١ هـ . وهذه هي رواية عثمان ابن صالح أحد رواة ابن عبد الحكم . وفي رواية عن الليث بن سعد أن فتح طرابلس تمّ سنة ٢٣ هـ.[4] وليس من تعارض كبير بين الروايتين إذا أخذنا بقول من قال إن عمراً أقام أشهراً أمام أسوار طرابلس بدلاً من قول ابن عبد الحكم « فحاصرها شهراً » ، فإنّه إذا أقام عليها أشهراً امتدت به أعمال الفتح حتّى السنة التالية أي سنة ٢٣ هـ .

---

١ ابن عبد الحكم : ١٧٠ وفتوح البلدان : ٢٦٥ وتاريخ الطبري ١ : ٢٦٤٥ .

٢ فتوح البلدان : ٢٦٥ .

٣ ياقوت : « أجدابية » .

٤ ابن عبد الحكم : ١٧١ والكندي : ١٠ والمغرب : ٤٥ وياقوت « طرابلس » .

ونزل عمرو على القبة التي على الشرف من شرقي طرابلس فحاصرها – شهراً كما يقول ابن عبد الحكم وأشهراً كما يقول غيره – لا يقدر منهم على شيء[1] ؛ ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن الذي أعان على فتحها هو حركة الجزر في غربيها ، فقد خرج أحد رجال الجيش مع رفقة له يتصيدون، ومضوا في غربي المدينة ممعنين في سيرهم ، فوجدوا ماء البحر قد انحسر من جانب المدينة ، ولم يكن بين البحر والبيوت سور ، فتسللوا من ناحية كنيسة هنالك وفاجأوا الروم فظن هؤلاء أن الجيش قد دخل مدينتهم ، فلاذوا بسفنهم هاربين من هول المفاجأة ، ونذر عمرو بالحركة فخفّ إلى المدينة بجيشه واحتلها[2] . ويقول ابن عذاري إن أهل طرابلس استغاثوا بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة إذ كانوا دخلوا معهم في دين النصرانية[3]، وإذا صحت هذه الرواية فسّرت اهتمام عمرو بإرسال قطعة من الجيش – وهو محاصر طرابلس – إلى ودّان وذلك لمشاغلة نفوسة وصدها عن إعانة طرابلس .

وفي مدة امتناع طرابلس على عمرو ومقاومتها لحصاره ظلت مدينة سبّرت أيضاً ممتنعة، فلمّا سقطت طرابلس أرسل عمرو خيلاً كثيرة في الليل إليها، وأمر القائد بالسرعة بحيث يصلها الجيش مصبحاً وأهلها غافلون ، قد فتحوا أبواب السور لتسريح مواشيهم ، فكان فتحها على هذا الوجه ميسراً[4] .

كان عمرو بن العاص يدرك تماماً أنّه لا بد له من أن يؤمن ما وراء كلّ من برقة وطرابلس أي المنطقة الساحلية كلّها بين المدينتين ، ومن أجل هذا

---

١ ابن عبد الحكم : ١٧١ .
٢ المصدر السابق والبكري : ٨ – ٩ وابن الأثير ٣ : ١٩
٣ ابن عذاري ١ : ١ .
٤ ابن عبد الحكم : ١٧٢ وياقوت « طرابلس » . وابن الأثير ٣ : ١٩ .

لم يكتف بالتوجه في خط الساحل ، وإنّما جعل خطته « تعميق » الخطوط إلى مسافة داخلية طويلة ، وقد رأينا كيف أنّه لم يكد ينتهي من فتح برقة حتّى أرسل عقبة بن نافع لتمهيد المنطقة الداخلية إلى جنوبها ، وكذلك لم يصبر حتّى ينتهي من فتح طرابلس بل أسرع أثناء حصاره لها بإرسال بسر بن أرطاة لمهاجمة المناطق الداخلية وراءها ، هادفاً من ذلك إلى شيئين : توسيع المنطقة المؤمنة حول طرابلس والحيلولة دون اعتمادها على مدد من الداخل .

فأمّا عقبة بن نافع فإنّه توغل في فتوحاته حتّى بلغ زويلة ، وكان من ثمرات أعماله أن تمهد الفتح الأولي في مناطق صحراوية نائية[1] ، حتّى إن عمراً كتب إلى الخليفة يقول : « إن مَن بين زويلة وبرقة سلم كلّهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقرّ معاهدهم بالجزية ، وإنّه قد وضع على أهل زويلة ومَن بينه وبينها ما رأى أنّهم يطيقونه ، وأمر عمّاله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم »[2] .

وأمّا بسر بن أرطاة فإنّه افتتح مدينة سرت وودّان ، وفرض على أهل ودّان ٣٦٠ رأساً من الرقيق[3] ، ولكن ماذا تمّ بعد ذلك ، أعني بعد فتح طرابلس وفتوحات عقبة وبسر ؟ هل رجع عمرو بن العاص وصاحباه إلى مصر ؟ من الصعب أن نتصوّر أن عمراً لم يترك في البلاد مفارز من جيشه إذا

---

١ يقول اليعقوبي (٢ : ١٥٦) إن عمراً بعث عقبة إلى أرض النوبة ؛ وانظر الطبري ١ : ٢٦٤٦ في بعث عقبة إلى زويلة (سنة ٢١ هـ) .

٢ فتوح البلدان : ٢٦٥ .

٣ ابن عبد الحكم : ١٩٤ وياقوت : « ودان » ويقول إن بسراً فتحها سنة ٢٣ هـ .

قدّرنا عودته إثر فتح طرابلس . ولكن إذا أخذنا بقول البكري « وفتح عمرو نفوسة وكان أهلها نصارى »[1] تبين لنا أن عودة عمرو لم تكن عاجلة وأنّه تلبث في ليبيا وأن عودته لم تتم قبل أوائل سنة ٢٥ هـ. ويبدو أنّه ترك كلاًّ من بسر بن أرطاة وعقبة بن نافع ليحاولا فتح « الجيوب » الصغيرة التي لم تكن قد فُتحت بعد ؛ فنحن نرى بسراً – حسب رواية ابن عبد الحكم – يحاول أن يتوجه بعد فتحه لسرت إلى مغمداش سنة ٢٦ هـ ، وهذا التأريخ المتأخّر يدل على أنّه بقي في منطقة ليبيا بعد مغادرة عمرو ، وتقول الرواية إنّه عجز عن فتح مغمداش لأن الشتاء أدركه عندها وكانت صحته ضعيفة معتلّة[2] ؛ وكذلك بقي عقبة في منطقة برقة حيث انضم إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عندما جاء إليها من مصر سنة ٢٧ هـ .[3]

وظلت برقة أيّام عمرو وعبد الله بن أبي سرح بعده مطمئنة إلى الشروط المعقودة بينها وبين والي مصر ، حتى إنّه لم يكن يدخلها صاحب خراج وإنّما يبعث أهلها بالجزية في وقتها المضروب[4] ، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة[5] ، وكان استقرار الأحوال فيها عوناً كبيراً على تقدم الأعمال الحربية في الغرب .

أمّا طرابلس فقد يُفهم من الروايات أنها لم تحافظ على عهدها كما فعلت

---

١ البكري : ٩ .

٢ ابن عبد الحكم : ١٩٤ .

٣ ابن الأثير ٣ : ٦٨ (حوادث عام ٢٦) وفيه : فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب . . . الخ .

٤ ابن عبد الحكم : ١٧١ .

٥ فتوح البلدان : ٢٦٤ .

برقة . إذ يروي لنا المالكي صاحب رياض النفوس أن الجيش الذي سار مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح لفتح إفريقية تحصن منه أهل طرابلس ، يقول : « ولم يعرضوا لنا ولم نهجهم »[1] ولكن هذه الرواية بحاجة إلى مناقشة إذ لا يُعقل أن يتجاوز ابن أبي سرح إلى إفريقية ومنطقة طرابلس معادية للمسلمين متنكرة لشروط الفتح الأولى ، وعلى هذا فيجب أن تُقرأ في هذه الرواية معان أخرى وفي سبيل ذلك أوردها كاملة ؛ جاء في رياض النفوس : « فلمّا فصلنا من مصر تقدمت سرية فوصلت طرابلس وإذا ثمّ مراكب قد أرست ، فشدوا عليهم ، فأقاموا ساعة ثم استأسروا فكتفوا وهم مائة ، حتى لحقهم ابن أبي سرح فقتلهم وتحصن أهل طرابلس ولم يعرضوا لنا ولم نهجهم ، وأخذنا ما في السفن فكانت هذه أول غنيمة أصيبت »[2] .

وأرى أن هذه الرواية تدل على أن بعض سفن الروم كانت قد وصلت إلى طرابلس إمّا للتجارة وإمّا لتقوية من كان بها من الروم ، وأن المصادفة وحدها هي التي جعلت تلك الطليعة تحول دون إتمام أحد الهدفين ، والدليل على أن أصحاب السفينة كانوا أقرب إلى المحاربين منهم إلى التجار أن ابن أبي سرح أمر بقتلهم . هنا بلغ ابن أبي سرح مدينة طرابلس ، وكان يعتقد أنها مدينة مسالمة ، فإمّا أن يدخلها للتزود والتفقد وإمّا أن يمضي عنها مطمئناً إلى ولائها ، لأن غايته ملحّة عاجلة . وقول الرواية « تحصن أهل طرابلس » قول موهم ومعناه الصحيح في هذا السياق أنهم خافوا من أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية ، فلجأوا إلى منازلهم ولم يستقبلوا جيش المسلمين استقبال الحليف ، غير أن عبد الله بن سعد لم يحاسبهم وإنّما أعجلته مهمته

---

١ رياض النفوس ١ : ١٠ .

٢ المصدر نفسه ؛ واكتفى ابن الأثير (٣ : ٦٨) بقوله : فنهبوا من عندها من الروم .

عن ذلك وقدر أن الخوف جعلهم يقرون في منازلهم وهو ما ترمز إليه الرواية بكلمة « التحصن » .

ولكن هذه الرواية ذات دلالة هامة على وضع طرابلس ، إذ ما دام أن بعض أهلها من الروم وهي تستطيع أن تتلقى مساعداتهم البحرية فإنّها عرضة للانتقاض ورفض الشروط القديمة ، وبالفعل انتقضت من بعد وكان انتقاضها اللاحق هو الذي ألقى ظله على الروايات المتصلة بعهد عبد الله بن سعد حتّى لنجد في النويري أن الرواية التي أوردها المالكي في شيء من غموض قد أصبحت صريحة واضحة ونصها : « فوالله إنا لبطرابلس وقد أصبنا من بها من الروم ، وقد تحصنوا منّا فحاصرناهم ، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه فأمر الناس بالرحيل »[1] فعبد الله — حسب هذه الرواية — يحاصر طرابلس لأن أهلها تحصنوا منه ثم يعجز عن فتحها ، ويخاف أن تشغله عمّا عقد عزمه عليه ، فيتركها في حال عصيان وامتناع ويمضي إلى ما وراءها من بلدان إفريقية . وقبول هذه الرواية لا يمكن إلاّ إذا حكمنا بأن خطة عبد الله ابن سعد كانت واهية وأن الحرص على إحراز السمعة بفتح مناطق جديدة كان أهم في نظره من تأمين مؤخرة جيشه ؛ أو أن طرابلس لم يكن يُخشَى منها شيء لأنها إن كانت تستطيع أن تمتنع بأسوارها فإنّها لا تستطيع مبادأة بقتال أو استعانة بمدد من الخارج .

إذن فأنا أذهب إلى القول بأن منطقة ليبيا — التي فُتحت على يد عمرو وقادته — بقيت هادئة مستقرة أيام ابن أبي سرح (٢٥ — ٣٥) يستوي في ذلك برقة وطرابلس ، وإذا صدقنا ابن عبد الحكم بأن معاوية بن حديج خرج

---

١ نهاية الأرب : ٢٢ (الورقة ١٦٣) .

بعد ابن أبي سرح في غزو إفريقية سنة ٣٤ هـ.[1]، وجدنا في سكوت المصادر عن أي انتفاض في ليبيا دليلاً على أنها ظلت أيضاً أيام معاوية بن حديج على ما كانت عليه من هدوء واستقرار .

ولكن هذا الاستقرار لم يلبث أن تزعزع بعد إذ شُغل المسلمون في المشرق عن شؤون إفريقية كلّها بمقتل عثمان والحرب بين علي ومعاوية ؛ ولذلك اضطر عمرو بن العاص في ولايته الثانية على مصر (٣٨ — ٤٣ هـ) إلى أن يرسل الجيوش لغزو البربر الذين كانوا قد خضعوا له من قبل ، فعقد لشريك ابن سمي الغطيفي على غزو لواتة سنة ٤٠ هـ. فصالحهم ، ثم عادوا فانتقضوا ، فأرسل إليهم عقبة بن نافع في السنة التالية ؛ وبلغ عقبة في تعقبهم حتّى طرابلس ، ولما ضعفوا عن لقائه سألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : إنّه ليس لمشرك عهد عندنا[2] . وهذه الرواية خطيرة الدلالة لأن لواتة كانت من أشد القبائل استعداداً في الفتوحات الأولى للترحيب بالفاتحين . ويقول المقريزي إنّه عقد لعقبة أيضاً على غزو هوارة وعقد لشريك بن سمي على غزو لبدة

---

١ ابن عبد الحكم : ١٩٢ — ١٩٣ وابن عذاري يجعل هذه الغزوة سنة ٣٠ ويقول إن معاوية عزل عمرو بن العاص عن مصر سنة ٣٧ وولاها معاوية بن حديج ، ويضيف أنه كان عاملا على مصر وإفريقية سنة ٣٨ . ويقول ابن عبد الحكم إن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات : سنة ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٠ ؛ والتوفيق بين هذه الروايات أمر عسير لأنه يتعارض مع أخبار وروايات أخرى . ودور ابن حديج في إفريقية من أشد الأدوار غموضاً ، وفي خطط المقريزي ٢ : ٨٢ أن معاوية بن حديج بعد مقتل عثمان مضى إلى برقة ثم رجع إلى الإسكندرية . ويقول الطبري إن مسلمة بن مخلد ولي إفريقية سنة ٥٠ ولكن ابن الأثير ٣ : ٣٨٦ يتردد في قبول روايته ويقبل قول أهل التاريخ من المغاربة الذين يقولون إن الوالي حينئذ هو عقبة وهذا يضيف إلى الاضطراب بين سنتي ٤٣ — ٥٠ في أمر الولاة .

٢ الكندي : ٣٢ .

فقاما بالغزو سنة ٤٣ وعمرو في مرض الموت[١] .

ولعل غياب الجيوش الإسلامية مدة طويلة عن مناطق ليبيا الداخلية قد شجع أمراءها على عدم تأدية الجزية المفروضة ، ولعلهم كانوا قد سمعوا بالمشكلات التي واجهها العرب في المناطق الساحلية ؛ فكان لا بد من حملة جديدة تؤكد ما بدأه الفتح الأول ، وعهد بالأمر إلى رجل الفتوحات العارف بمنطقة ليبيا بل بالمغرب كلّه أعني عقبة بن نافع الفهري ، وهذه هي الجولة الثالثة التي يتولى فيها عقبة الأعمال الحربية في المغرب ، إذ كانت المرة الأولى في صحبة عمرو بن العاص والثانية في ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (٣٨ — ٤٣) ؛ أمّا هذه المرة فإن تاريخها حسب رواية ابن عبد الحكم هو سنة ٤٦ هـ . وإذا قبلنا هذا التاريخ قدّرنا أن عقبة صرف في الأعمال الحربية بليبيا أربع سنوات (٤٦ — ٥٠) وفي هذا مبالغة واضحة ، ولعلّ هذه الجولة الثالثة إنّما كانت كما قدر الدكتور مؤنس[٢] في سنة ٤٩ هـ .

وكانت ودّان من المدن التي انتقضت وامتنعت عن أداء الجزية التي فرضها بسر بن أرطاة في الفتح الأول . فسار عقبة إليها فنزل بمغمداش — ومعه بسر بن أرطاة نفسه وشريك بن سمي المرادي — وترك قسماً من جيشه فيها بعد أن أخضعها ؛ ويبدو أنّه إنّما فعل ذلك تأميناً لعدم انتقاضها ومحاولة لتسوية أمور لم تكن قد سويت في منطقة سرت ؛ وخلف على الجيش عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ، وسار إلى ودّان[٣] . وتبدو لنا اليوم محاولات عقبة نوعاً من المغامرة إذا نحن تذكرنا أنّه لم يصحب معه سوى

---

١ خطط المقريزي ٢ : ٨٣ .

٢ فتح العرب للمغرب : ١٣٧ .

٣ انظر أيضاً ياقوت «ودان» ، وابن الأثير ٣ : ٣٥٢ .

أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة . غير أنّه استطاع بهذا العدد الضئيل فتح ودّان وأخذ صاحبها وجدع أذنه فقال له : لم فعلت هذا بي وقد عاهدتني ! فقال عقبة : فعلت هذا بك أدباً لك إذا مسست أذنك ذكرته فلم تحارب العرب[1] .

وبعد ودّان سار إلى جرمة — مدينة فزان العظمى — ودعا أهلها إلى الإسلام فأجابوه ، ثمّ قصد قصور فزان فافتتحها واحداً بعد آخر . وقد دامت غيبته عن عسكره خمسة أشهر بلغ فيها إلى عاصمة كوار ؛ ولما انضمت فئتا الجيش بعد عودة عقبة إلى مغمداش سار يقصد فتح إفريقية مجانباً الطريق الأعظم ، وفي طريقه افتتح بقية المنطقة الواقعة في الحدود الليبية الحالية وبعث خيلاً إلى غدامس فافتتحها وسار من بعدها متقدماً إلى قفصة[2] .

في هذه المرة كان الفتح العربي لمنطقة برقة وطرابلس وودّان وفزان راسخاً متيناً ، إذ لا نسمع أن سكان هذه المناطق قد تأثروا بثورة كسيلة وبمقتل عقبة سنة ٦٣ هـ ؛ وبهذا انفصلت ليبيا — موقتاً — عن حركات المقاومة التي استطار شررها في إفريقية ، وأصبحت ليبيا مركزاً للجيوش الإسلامية أو منطلقاً للقوى الذاهبة إلى الغرب لإخضاع الثورات في إفريقية أو ملاذاً للتراجع والانحياز . حتى إنّه لما قتل عقبة واحتلّ كسيلة مدينة القيروان وانقلبت إفريقية ضد العرب ، انسحب زهير بن قيس البلوي الذي كان عقبة قد خلفه في القيروان ، إلى برقة منتظراً رأي الخليفة بدمشق[3] .

وكانت الأحوال في المشرق تنذر بتصدع الدولة الأموية إثر وفاة يزيد

---

١ ابن عبد الحكم : ١٩٤ ؛ وياقوت : « ودان » .

٢ ابن عبد الحكم : ١٩٥ — ١٩٦ والبكري : ١٢ — ١٤ .

٣ ابن الأثير ٤ : ٩١ .

ابن معاوية ونشوب الحرب بين القيسية واليمنية في معركة مرج راهط سنة ٦٤ هـ وثورة ابن الزبير . وقضى مروان بن الحكم فترة عصيبة مليئة بالمشكلات التي ورثها ابنه عبد الملك ونهض لتسويتها بهمة لا تعرف التردد . وكان من جملة تلك المشكلات ضياع الجهود التي بذلتها الجيوش الإسلامية في إفريقية . ورغم كثرة الأعباء التي واجهت عبد الملك رأى أن إعادة الهيبة للجيوش الإسلامية في إفريقية أمر لا يحسن إرجاؤه ، فبعث إلى زهير وهو في برقة بمدد ، وأنهى إليه أن يتوجه لمحاربة كسيلة ويثأر لعقبة [1] إذ كان زهير — وهو رجل عاقل متدين — من أعلم الناس بسيرة عقبة وخططه [2] .

فلما انتصر زهير على كسيلة في موقعة ممس (سنة ٦٩ هـ) عاد إلى برقة . وتقول الرواية في تعليل رجوعه : « إن زهيراً رأى بإفريقية ملكاً عظيماً فأبى أن يقيم بها وقال : إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين » [3] . وهذه الرواية لا تكاد تفسر سبب تلك العودة ، ولكن يبدو أن زهيراً اعتبر مهمته انتهت بعد قتله لكسيلة وتخليص من بإفريقية من المسلمين [4] .

وهذه العودة تثير السؤال التالي : هل قُتل زهير إثر عودته هذه إلى برقة ؟ لقد ذكرنا أنه انتصر على كسيلة عام ٦٩ هـ ، وإذن فإن السنة التالية — على الأكثر — شهدت وجوده في برقة . ولكن ابن عبد الحكم يخبرنا أنه قُتل سنة ٧٦ فأين كان زهير طوال تلك السنوات ؟

---

١ ابن الأثير ٤ : ٩١ عند ابن الحكم (٢٠٠) أن عبد العزيز هو الذي أرسله وقيل بل حسان ابن النعمان ، والروايتان بصيغة التمريض .

٢ ابن عذاري ١ : ١٨ — ١٩ .

٣ ابن الأثير ٤ : ٩٢ وابن عذاري ١ : ٢٠ .

٤ فتح العرب للمغرب : ٢٢٨ .

نحن هنا إزاء فئتين من الروايات : رواية ابن عبد الحكم وهي رواية غريبة في سياقها العام ، ولكن تتبعها قد يدل على أن ما فيها من تفصيلات جدير بالتنبه، وحسب هذه الرواية [1] فإن زهيراً حين تلبث في برقة وترك إفريقية بعث عبد الملك والياً جديداً هو حسّان بن النعمان سنة ٧٣ ﻫ . وجعل ولايته تمتدُّ على كل منطقة برقة وطرابلس ، فانضم إليه زهير ، ومضى حسّان في جيش كبير حتّى نزل طرابلس واجتمع إليه بها الفئات الإسلامية التي كانت ترّقب الأحوال في إفريقية . فخرج حسّان إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم ، ولكنّه حين وصلها وجدهم قد أخلوها ولم يبق فيها إلاّ عدد من ضعفائهم . فانصرف لغزو الكاهنة التي أشعلت الثورة بعد كسيلة واستولت على جل إفريقية ، فلقيها على نهر يسمى « نهر البلاء » فكانت الهزيمة على حسّان وجيوشه ، فلم يجد محيصاً عن التراجع والاعتصام بمنطقة برقة ، فنزل قصوراً من حيزها سميت من بعد « قصور حسّان » منتظراً المدد من الخليفة .

ولا بدّ أن انهزام حسّان — حسب هذه الرواية — تمّ قبل سنة ٧٦ (أي سنة ٧٤ مثلاً) وعلى أساسها نقدّر أن انتظاره للمدد لم يطل [2] وإذا به يعود إلى إفريقية ويحرز النصر على الكاهنة — ومعه زهير بن قيس — ويتوجه عائداً إلى عبد الملك بالغنائم سنة ٧٦ ﻫ ؛ وفي رجوعه كان معه زهير بن قيس ، إلاّ أن زهيراً لم يتابع معه المسير إلى دمشق بل آثر التلبث في مصر .

---

١ انظر ابن عبد الحكم : ٢٠٠ — ٢٠٣ .

٢ في الروايات الأخرى أنه أقام بالموضع المعروف بقصور حسان مدة خمس سنين (انظر ياقوت : « قصور حسان » وابن الأثير ٤ : ٣٠١ ، ويقول ابن الأثير إن حساناً أقام في برقة إلى سنة ٧٤ (ج ٤ : ٣٠٢) أي أنه بقي من عام ٦٩ — ٧٤ وهذا يجعل انهزامه أمام الكاهنة من بعد مقبولا في حوالي ذلك التاريخ (أي بين ٧٤ — ٧٦) .

وبعد انصراف حسّان عن إفريقية أغارت الروم – حسب هذه الرواية – على أنطابلس وكان حسان قد خلف عليها إبراهيم بن النصراني ، فهرب منها وخلّى أهلها وأهل ذمتها في أيدي الروم فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا فيها الفساد . عندئذ طلب عبد العزيز بن مروان والي مصر إلى زهير بن قيس أن يسير لصدّ الروم عن أنطابلس ، فأخذ يجمع الناس فلم يجتمع له من أصحابه الاّ سبعون رجلاً ، أي من الناس الذين مارسوا الغزو معه من قبل ، وكان عارض الجيش المنتدب للخروج مع زهير يسمى جندل بن صخر ، فكره زهير خروجه معه لفظاظته وغلظته ، ودارت بين زهير وعبد العزيز ملاحاة جعلت زهيراً يغضب ويسرع في الخروج قائلاً لعبد العزيز « أنا منطلق فلا ردّني الله إليك » حتى إذا وصل درنة تبين له أن الروم كثيرو العدد، فتلبث هنالك ليلحق به بقية الجيش ، فعيّره فتى كان معه بالجبن ، فقال له : « ما جبنت يا ابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك! » وحمل على الروم فاستشهد هو وأصحابه جميعاً سنة ٧٦ هـ .

تلك هي رواية ابن عبد الحكم ؛ أمّا الفئة الثانية من الروايات فإنّها تتحدث عن غزو زهير وانتصاره على كسيلة سنة ٦٩ وتُصوره عائداً من إفريقية إلى برقة (لا قادماً من مصر إليها) وأن الروم بلغهم خبر عودته فخرجوا إلى برقة في مراكب كثيرة فأغاروا عليها وأصابوا سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ، فأخبر زهير بخبرهم فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل، فلمّا أشرف على الروم وجدهم كثيري العدد فتردد في مهاجمتهم ولكن صيحات الأسرى الذين كانوا يستغيثون به جعلته ينزل هو وأصحابه لقتالهم، وكان أصحابه من أشراف العابدين ورؤساء العرب[1] المجاهدين وأكثرهم من التابعين، فقُتل زهير ومن معه

---

[1] ابن عذاري ١ : ٢١ والمالكي ١ : ٣٠ – ٣١ وابن الأثير ٤ : ٩١ – ٩٣ .

(سنة ٦٩ هـ) وعلى أثر مقتله أرسل عبد الملك حسّان بن النعمان والياً على إفريقية في العام نفسه .

إن قلّة التعقيد في الرواية الثانية تغري بقبولها ولكن هذه الصفة ليس من الضروري أن تُتخذ حكماً على رواية ما . والرواية الثانية هذه تنطوي على ضعف شديد حسب نصّ ابن عذاري ، فقد جاء فيها « فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة »[1] ؛ وإذا كان الروم قد عرفوا بخروج زهير إلى برقة فقد كان الأحرى بهم أن يهاجموا سواحل إفريقية لا ساحل برقة . غير أن ابن الأثير والمالكي يوردان الرواية على نحو أوضح ، فيقول ابن الأثير « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها شيئاً كثيراً وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة »[2] . فالروم حسب قول ابن الأثير والمالكي انتهزوا غياب زهير عن برقة فهاجموها — وهذا متفق مع وقائع الحال — ولم يكونوا يدرون أن زهيراً سيعجل العودة إليها . وعلى الرغم من أن الرواية حسب نص ابن الأثير والمالكي مستوية معقولة فإنّا لا نزال في هذا الموقف — بين الروايتين — بحاجة إلى الإجابة على الأسئلة الآتية :

١ — متى كانت تولية إبراهيم بن النصراني على أنطابلس من قبل حسّان بن النعمان إن كان زهير هو الذي كان صاحب الأمر في إفريقية حينئذ ؟

---

١ ابن عذاري ١ : ٢١ .

٢ ابن الأثير ٤ : ٩٢ ؛ وليس في الرواية كما أوردها المالكي اختلاف كبير عن رواية ابن الأثير .

٢ ــ أيهما هو الذي حدا بعبد الملك إلى إرسال والٍ جديد : أمقتل زهير أم تخلّيه عن إفريقية وعودته إلى برقة ؟

٣ ــ هل خرج زهير لقتال الروم من مصر أو في عودته من إفريقية إلى برقة ؟
إن الإجابة على هذه الأسئلة قد تصبح سهلة لو كانت لدينا معرفة قاطعة بالعام الذي توفي فيه زهير بن قيس البلوي .

أما عيب الرواية التفصيلية الأولى فهو أنها تجعل التغلب على الكاهنة مبكراً في تاريخه ، إذ إن الفئة الأخرى من الروايات تؤرخ خروج حسّان إلى الكاهنة سنة ٧٨ وبعضها بعد ذلك ، فإذا قدّرنا أن حساناً انتهى من حربه للكاهنة سنة ٨٠ كان الوهن في رواية ابن عبد الحكم واضحاً ، ولكن هذا التقدير نفسه بحاجة إلى مناقشة .

* * *

يحسن بنا هنا أن نلقي نظرة على ما مرَّ بنا من أحداث (٢١ ــ ٧٨) : مرَّ الفتح العربي في ليبيا بثلاث مراحل :

١ ــ مرحلة الغزو السريع (٢١ ــ ٢٦) على يد عمرو وعقبة وبسر وسمي ابن شريك .

٢ ــ رد الفعل والعودة إلى الانتقاض بين ٣٠ ــ ٤١ هـ.

٣ ــ مرحلة الترسيخ والتثبيت ٤١ ــ ٤٩ على يد عقبة بن نافع .

ولقد عمل على نشر الإسلام في المغرب عامة ــ وفي ليبيا موضوع هذا البحث خاصة ــ أربعة من أكبر القادة في التاريخ الإسلامي هم : عمرو بن

العاص الرجل الذي كان يجمع جمعاً موفقاً بين قدرة السياسي وحنكة العسكري ، وهو الذي وجّه الجيوش إلى ليبيا ولم يتجاوزها إلى إفريقية ، وقعدت به السن في السنوات الأخيرة عن مباشرة العمل العسكري بنفسه ؛ وابن خالته عقبة ابن نافع الذي كفل للإسلام في ليبيا وجوداً راسخاً ، ووضع حجر الزاوية في كيان إفريقية الإسلامية بتأسيس القيروان . وقد كان تأسيسها ذا أثر في مقدّرات المغرب كلّه وفي مقدّرات ليبيا على وجه الخصوص ، فقد تحتم بذلك أن تظل ليبيا ولاية (أو ولايات) بين مركزين كبيرين هما الفسطاط (ثم القاهرة) والقيروان . وهذا يعني أن ليبيا ظلت كما كانت في العصر البيزنطي بين مركزي الإسكندرية وقرطاجة . وقد كان عقبة في تدينه وسيرته الصالحة مثالاً طيباً لأثر الإسلام في نفوس معتنقيه ، ولكنه كان يجنح أحياناً إلى الشدة في بعض التصرفات العسكرية . ويمثل خليفته والمقتدي به زهير بن قيس البلوي – ثالث أولئك القادة – صورة « المجاهد » أو المرابط الذي لم يكن له همّ سوى إعلاء كلمة الدين . أمّا الشيخ الأمين حسّان بن النعمان فقد تميز عنهم جميعاً بأعماله التنظيمية التي لم يُتح لعمرو بن العاص أن يؤديها بإفريقية مثلما أدّاها بمصر . فحسّان ساوى في الأعطيات بين العرب والبربر وأدخل قسماً منهم في الجيش الإسلامي ، فاستجابوا له وأسلموا على يديه ، وأشركهم مع العرب في الفتوحات وأعطاهم نصيبهم من الفيء والأرض ، ودوّن الدواوين ونظم الإدارة في القيروان ، ووضع نواة الأسطول الإفريقي الإسلامي حين بنى دار الصناعة بتونس[1] ؛ وكانت سياسته القائمة على التسوية بين العرب والبربر سبباً في هدوء تام شمل بلاد المغرب ، وسيكون الخروج عن روح هذه السياسة عاملاً في كثير من الانتقاضات التي حدثت من بعد . ولو توالى

---

١ انظر رياض النفوس ١ : ٣٦ – ٣٨ .

على إفريقية عمال من طراز حسّان لما فاءت إلى الثورات المتكررة ، ولكن الذي حدث أن دعاة الخوارج انبثوا بعد فترة بين السكان الأصليين ولقنوهم مبادىء تتحدث عن عدم شرعية الدولة القائمة وعن ولاة الجور والخروج عليهم ، ووجد السكان في تصرفات بعض الولاة مصدقاً لأقوال أولئك الدعاة .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز أسلم على يدي واليه إسماعيل بن أبي المهاجر عبيد الله المخزومي آلاف من البربر حتى نكاد نقول إنّه قد تم تحول أكثرهم إلى الإسلام بين عامي ٩٩ ــ ١٠١ ، وقد أعان إسماعيل في مهمته عشرة من التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز لتحقيق تلك الغاية[1] ؛ لكن يزيد بن أبي مسلم الوالي الذي خلفه على إفريقية كان عسوفاً غشوماً وكذلك كان عمال عبيد الله بن الحبحاب ، فإن والي طنجة في زمنه « أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين »[2] وكذلك ابن الحبحاب نفسه منّى الخلفاء بالمشرق بكثير من طرائف المغرب فاضطره ذلك إلى التعسف وسوء السيرة[3] ؛ وكانت أحداث إفريقية ذات أصداء في منطقة ليبيا ، فإذا أردنا أن ندرس حركات المقاومة التي نشبت في الشمال الإفريقي فيجب أن نتذكر أعمال هؤلاء الولاة الذين ساءت سيرتهم وأثاروا نقمة على أعمالهم .

---

١ ابن عذاري ١ : ٤٥ ــ ٤٦ .

٢ المصدر السابق ٥١ ــ ٥٢ .

٣ المصدر السابق : ٥٣ .

حركات المقاومة في ليبيا

ولاة إفريقية الذين عاصروا حركة المقاومة

عبيد الله بن الحبحاب	١١٦
كلثوم بن عياض القشيري	١٢٣
حنظلة بن صفوان الكلبي	١٢٤
عبد الرحمن بن حبيب الفهري	١٢٧
حبيب بن عبد الرحمن	١٣٨
عاصم بن جميل الورفجومي	١٤٠
محمد بن الأشعث الخزاعي	١٤٣
عيسى بن يوسف الخراساني	١٤٨
الأغلب بن سالم بن عقال الأغلبي	١٤٨
الحسن بن حرب الكندي	١٤٩
الأغلب (مرة ثانية)	١٥٠
عمرو بن حفص هزارمرد المهلبي	١٥١
يزيد بن حاتم المهلبي	١٥٤

ثورة عكاشة بن أيوب الصفري

إن اعتناق البربر للمذهب الخارجي ذو دلالات عميقة ، فهو يعبّر عن ميلهم إلى التشدد في فهم التعاليم الإسلامية وتمسكهم بها تمسّكاً يصبح « قوّة معارضة » ضخمة في وجه الدولة ، حين يسلك ولاتها مسالك اجتهادية يشوبها التساهل في ممارسة بعض الأمور بحكم تطوّر الزمن ؛ وهو يدلّ على تشبثٍ بمعنى المساواة المثالية التي أقرّها الإسلام من الجانب النظري ، وعلى تشبّثٍ بتطبيقها دون خلل – وذلك أمرٌ لا يدرك مدى العسر فيه إلاّ من اضطلع بمسؤولية تطبيقه ؛ وحين يصبح الدين سلاحاً فقد تختفي وراءه نزعات أخرى كالعصبية العنصريّة والرغبات المادية ، وغير ذلك ؛ ولكن ثورات البربر – في أغلبها – كانت غضبة المحنق على إهدار الحقوق .

ومنذ أن ثار البربر على عبيد الله بن الحبحاب في طنجة بقيادة ميسرة الفقير السقّاء الذي بايعه الخوارج بالخلافة ، تطلعوا إلى الثورة في مواضع أخرى ؛ فقام عكاشة بن أيّوب الفزاري بالثورة في ناحية قابس وأرسل أخاه إلى سبرت ، فاستطاع أن يؤلب زناتة لمعاونته وأن يحاصر أهل سوق سبرت في مسجدهم ، وكان أمير طرابلس حينئذ هو صفوان بن أبي مالك ، فخفّ لنجدة أهل سبرت وفاجأ أخا عكاشة وهو محاصر لهم ، ودار بين الفريقين قتال انهزم فيه أخو عكاشة لاحقاً بقابس ، وقُتل كثير من رجاله وبخاصة من

زناتة المشايعين له ، وبهذا النصر تمكن صفوان من أن يرد خطرهم عن منطقة طرابلس[1] .

وبقي على والي القيروان مسلمة بن سوادة أن يواجه عكاشة نفسه ، ولكن الصفرية استطاعوا أن يهزموا مسلمة وأن يردّوه إلى القيروان ، وفي الوقت نفسه كان كلثوم بن عياض القشيري قائد الدولة الأموية يخوض حرباً ضروساً ضد الصفرية الذين يقودهم ميسرة السقّاء في طنجة ؛ وقد استنفر لمعونته والي الأندلس ووالي طرابلس — صفوان بن أبي مالك — ، وما كاد صفوان يصل مدينة قابس مخفّاً لنجدته حتّى بلغته الأخبار بمقتل كلثوم بن عياض[2] .

وقد استقوى عكاشة في ثورته بعد هذه الانتصارات التّي أحرزها ميسرة ، ولما ولي حنظلة بن صفوان الكلبي أمر إفريقية سنة ١٢٤ ه أرسل إليه جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، فانهزم عكاشة مرة وثانية ، ولكنه لم ييأس ، وزاده أملاً بالنصر انضمام عبد الواحد بن يزيد الهواري إليه ، وكان أيضاً صفريّاً ، والتقى الحليفان بجيوش عبد الرحمن بن عقبة ، فدارت الدائرة عليه وقُتل هو وكثير من أصحابه عام ١٢٤ ، وأخذ القائدان الصفريان بعد هذا الانتصار يتسابقان إلى القيروان . عندئذ رأى حنظلة أن ضياع القيروان كارثة تهدد بضياع إفريقية كلّها ، ولذلك لجأ إلى شيئين : بعث إلى واليه بطرابلس — وهو معاوية بن صفوان — يستمده ضد الصفرية ، وحاول أن يستميل إليه عكاشة ليحول دون اجتماع الحليفين ، فاصطدم بعبد الواحد أولاً في معركة ضارية قُتل فيها عبد الواحد وكثير من رجاله ، وهرب منهم من استطاع الهرب ، ثم عاجل عكاشة قبل أن تبلغه هزيمة عبد الواحد

---

١ ابن عبد الحكم : ٢١٩ .

٢ ابن عبد الحكم : ٢٢٠ ، ٢٢١ .

ونازله في معركة أخرى فرَّ عكاشة على أثرها هارباً ، وأخيراً جيء به أسيراً إلى حنظلة فقتله[1] .

ولم يكن معاوية بن صفوان قد بلغ قابس حين بلغته الأخبار بهزيمة الصفرية ، فتوقف حيث وصل ، وهناك تلقى رسالة من حنظلة يطلب إليه فيها إخماد ثورة صفرية أخرى ذرَّ قرنها في نفزاوة ، وكان الثائرون فيها قد قاموا على أهل الذمة وسبوهم ، فمضى معاوية لمحاربتهم واستطاع أن يرد ما كانوا سبوه ، ولكنه قُتل في المعركة ، فأرسل حنظلة زيد بن عمرو الكلبي ليخلفه في القيادة فأعاد الجند إلى طرابلس[2] .

كانت ثورة عكاشة وعبد الواحد جزءاً من الثورة الكبرى التي أعلنها ميسرة السقّاء ، وكان دور طرابلس فيها جزءاً من أعمال الجيوش الأموية مجتمعة ، ولكنها لم تكن تعبّر عن نزعة عامة في منطقة طرابلس ، لأن الصفرية لم يكونوا فيها من القوة بمكان . بل إنّا سنجد — بعد قليل — أن هذه الثورات المتطرفة لم تكن تعجب أصحاب المذهب الإباضي الغالبين على منطقة طرابلس وجبل نفوسة .

---

١ المصدر السابق : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

٢ ابن عبد الحكم : ٢٢٣ وانظر ابن خلدون ٦ : ١١١ .

ثورة الإباضية في طرابلس

١ – ثورة الحارث بن تليد الحضرمي وعبد الجبّار بن قيس المرادي :

بعد مقتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموي سنة ١٢٦ اشرأبّ عبد الرحمن ابن حبيب من نسل عقبة بن نافع إلى حيازة ولاية إفريقية لنفسه ، ظنـاً منه أن الخلافة الأموية قد انتهت ، وأن الفرصة قد حانت له لتحقيق أهدافه في الزعامة ، فأعلن الثورة في تونس ، وهمم بالتوجه إلى القيروان للاستيلاء عليها ، وكان والي إفريقية حينئذ هو حنظلة بن صفوان الكلبي : «وأراد حنظلة الخروج إليه والزحف لقتاله ، ثم كره قتال المسلمين ، وكان ذا ورع ودين»[1] ؛ وفارق حنظلة إفريقية عائداً إلى المشرق ، فما كان من مروان بن محمد حين استقرت له الخلافة إلاّ أن يقرّ عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية تفادياً للانقسامات والفتن .

وولّى عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس بن حبيب على طرابلس ، وكان المذهب الإباضي قد انتشر فيها وفي ضواحيها منذ أوائل القرن الثاني . ويعود هذا النشاط في نشر المذهب إلى سلمة بن سعد الذي وجهه إمام الإباضية أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ليقوم بالدعوة للمذهب الإباضي بين البربر[2] . وهكذا تحوّل أهل منطقة طرابلس وجبل نفوسة بتأثير سلمة إلى اعتناق المذهب الإباضي في زمن قصير . وينبغي القول هنا إن الإباضية يتميزون عن سائر

---

١ ابن عذاري ١ : ٦٥ .

٢ انظر تاريخ المغرب الكبير ٢ : ٤١٠ .

فرق الخوارج بمعتقدات أساسية منها أنهم لا يكفّرون مرتكب الكبيرة وإنّما يرون أن من يأتي الكبائر كافر كفر نعمة لا كفر ملّة ، ويعتقدون أن دار من يخالفهم من المسلمين دار توحيد ولا يجيزون المبادأة بالقتال ولا يستحلون أموال من يحاربونهم[1] . ولا بد من أن يكون الجور هو الذي يحرجهم فيخرجهم للاحتكام إلى السيف .

وكان رئيس الإباضية في طرابلس يوم وليها إلياس بن حبيب هو عبد الله ابن مسعود التجيبي ؛ ولا ندري ماذا فعل عبد الله بن مسعود حتى أخذه إلياس وقتله[2] . ولعلّ إلياس كان يقصد من ذلك إثبات هيبته بين طائفة الإباضية ، ولكن هذا التصرف الأخرق أغضب الإباضية بشدة ، فأخذوا يحتشدون للثورة ، وحاول عبد الرحمن تهدئة الأحوال فعزل أخاه إلياس عن طرابلس وولّى عليها حميد بن عبد الله العكي[3] ؛ إلاّ أن هذا الإجراء لم يحل دون ثورة الإباضية بقيادة إمامهم الحارث بن تليد الحضرمي وقاضيه ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي[4] .

ولم يكن حميد بن عبد الله العكي قد وصل طرابلس وإنّما حلّ في قرية من قراها حين فاجأه القائدان الإباضيان ، وزاد من شدة الموقف انتشار الوبا في جيش حميد ، فاستأمن إلى القائدين فأمّناه ، وقبض عبد الجبار على قاتل عبد الله بن مسعود وقتله به واستولى الإباضيون على زناتة وأرضها[5] .

---

١ الشهرستاني ١ : ١٢١ .

٢ ابن عبد الحكم : ٢٢٤ .

٣ يقول ابن خلدون (٦ : ١١١) إن الإباضية قتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي ولكن لا ذكر لاسم هذا الوالي عند ابن عبد الحكم .

٤ تاريخ المغرب الكبير ٢ : ٤١١ وهذا يصحح خطأ المصادر غير الإباضية التي تذكر أن الثائر هو عبد الجبار وأن الحارث انضم إليه .

٥ ابن عبد الحكم : ٢٢٤ .

عندئذ وجّه عبد الرحمن بوالٍ جديد إلى طرابلس هو يزيد بن صفوان المعافري ، واختار هوارياً اسمه مجاهد بن مسلم ليخذّل هوارة عن تأييد قائدي الإباضية ، ولكن جهوده ذهبت سدًى بعد أن أقام في قومه أشهراً يدعوهم إلى ما ندب له ، فطردوه فلحق بيزيد في طرابلس[1] .

ولما وجد عبد الرحمن أن خطة التخذيل قد أخفقت لجأ إلى تعبئة جيش جديد بقيادة محمد بن مفروق ، وأمر والي طرابلس بالانضمام إليه ، ووقف هو عن كثب يرقب ما تسفر عنه المعركة ، فتكشفت عن مقتل قائديه معاً ، فعاد عبد الرحمن إلى استنفار جيش أكثف من الأول وولّى عليه عمرو ابن عثمان ، وبقي هو بعيداً أيضاً عن حومة القتال . وكان اللقاء بين جيش عمرو بن عثمان والجيش الإباضي في أرض زناتة فانهزم عمرو واستطاع تليد وعبد الجبار أن يستوليا على منطقة طرابلس كلّها[2] .

ولم يكتف الحارث بن تليد بهذا النصر بل ذهب يتعقب عمرو بن عثمان الذي بلغ في انهزامه إلى دغوغا ، فلمّا نذر عمرو بلحاقه به توجه نحو الصحراء ، والحارث ماضٍ في أثره ، فتقدمه إلى سرت ، وهناك أدركته خيل الحارث وقتلت نفراً من أصحابه واحتوى الحارث على عسكره ونجا هو جريحاً . ويحدثنا ابن عبد الحكم — وهو الذي اعتمدناه في إيراد هذه الأخبار لاعتنائه بتفصيلها — أنّ الحارث وعبد الجبار بعد كل هذه الانتصارات دبّ بينهما الخلاف ، ولكن الأستاذ علي دبوز يرفض هذه الرواية ويقول : إن عبد الرحمن دسّ عليهما من يترقبهما ، فلمّا كانا ذات يوم وحدهما في دار الحكم ، تقدم إليهما جماعة زعموا أنهم من ذوي الحاجات وقتلوهما وأدخلوا

---

١ المصدر نفسه .

٢ المصدر نفسه .

في كل واحد منهما سيفاً وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا فقتل كلّ منهما صاحبه[1] ؛ ولعلّ الأستاذ علي دبوز قد وجد في المصادر الإباضية نفسها ما يوضح هذا الموقف ، ولكن بعض أتباع الرجلين صدقوا القول باختلافهما وانقسم الناس في أمرهما فريقين ، فريق ذهب إلى البراءة منهما وفريق ذهب إلى الشك في اقتتالهما وبقي يؤمن بولايتهما وتقواهما .

وفي سنة ١٣٢ ولّى الإباضية عليهم إسماعيل بن زياد النفوسي ، فأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشاً بقيادة ابن عمّه محمد بن عثمان ، وبقي عبد الرحمن نفسه بقابس ، فلمّا التقى الجيشان قُتل إسماعيل وأصحابه وأُخذ من البربر أسرى كثيرون ، وبلغ خبر النصر عبد الرحمن فتقدم من مستقره إلى سوق طرابلس وكتب إلى عمرو بن عثمان الذي كان قد فرّ إلى سرت جريحاً يأمره بالقدوم عليه ، ثم قدّم الأسرى فضرب أعناق بعضهم وصلب آخرين ، وولى على طرابلس عمرو بن سويد المرادي ، وهدأت فيها الأحوال إلى حين[2] .

٢ ـ ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري :

فيما كان عبد الرحمن بن حبيب يقضي على ثورات الإباضية في منطقة طرابلس ، كانت الدولة الأموية قد انهارت ، وورثتها الدولة العباسيّة ، وأصبحت مصر وسائر إفريقية تحت إمرة صالح بن علي ، فولى على جيوش المغرب أبا عون عبد الملك بن يزيد ، وأرسل إلى أهل المغرب دعاة يتقدمونه

---

١ تاريخ المغرب الكبير ١ : ٤١٣ .

٢ ابن عبد الحكم : ٢٢٥ .

ويستميلون الناس للدولة الجديدة ؛ وكان يواكب الجيش البريّ في حركته أسطول تحرك من الإسكندرية متجهاً نحو طرابلس . ولما بلغ أبو عون برقة وأقام بها أحد عشر شهراً وبلغ دعاته مدينة سرت وصلت الأخبار بوفاة أبي العباس السفاح (١٣٦ هـ) وبخلافة أبي جعفر المنصور، فكتب صالح إلى أبي عون يأمره بالرجوع ويطلب ردّ الدعاة[1] .

ونزولاً على الأمر الواقع أقرّ أبو جعفر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية إفريقية مثلما فعل مروان بن محمد من قبل ، وبعث إليه بالخِلع السود فلبسها وأعلن الدعاء على المنابر للخليفة العباسي ، ووجّه عبد الرحمن إلى الخليفة بهدية فيها بزاة وكلاب ، وقال له في رسالته : « إن إفريقية اليوم إسلامية وقد انقطع السبي منها » ؛ فأغضبت لهجة الرسالة أبا جعفر وكتب إلى عبد الرحمن يتوعده؛ عندئذ جمع عبد الرحمن الناس وخطب فيهم قائلاً : « إنني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإني الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هذا » ، وقذف به من رجله[2] .

وتطوّرت الأحداث بعد ذلك فتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه ، وقام إلياس بأمر إفريقية من بعده ، ثم ثار عليه ابن لعبد الرحمن اسمه حبيب وتولى زمام الأمور ، وفي إمارته هبّ الصفرية تمثلهم قبيلة ورفجومة بالثورة سنة ١٣٨ واستمرت ثورتها ما يزيد على عامين استولت في أثنائها على القيروان وسامت أهلها سوء العذاب وقتلت حبيب بن عبد الرحمن سنة ١٤٠ هـ .

إن الفظائع التي ارتكبتها ورفجومة في ثورتها كانت السبب المباشر في

---

١ الكندي : ١٠٣ .

٢ ابن عذاري ١ : ٧٦ .

ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، كما أن اضطراب الحبل في إفريقية كان خير فرصة مناسبة لإتمام العمل الذي بدأه من قبل عبد الجبار والحارث بن تليد وإسماعيل بن زياد .

بايع الإباضية أبا الخطاب فتقدم بجموعه ليفتح مدينة طرابلس سنة ١٤٠ ، ولما استولى عليها أذن للوالي العباسي فيها بمغادرتها إلى المشرق وولى عليها عبد الله بن رحيمة ، وبعث إلى سرت والياً اسمه عمر بن يمكتن ، وهكذا دانت لأبي الخطاب ولاية طرابلس وجبل نفوسة ، فأخذ يُعد العدة للزحف على القيروان (عام ١٤١ هـ) للقضاء على ثورة ورفجومة . وقد استطاع أبو الخطاب أن يهزمها وأن يستولي الإباضية على القيروان ، وأن يصبح واليها عبد الرحمن بن رستم الذي سيكون ذا شأن كبير من بعد في تاريخ الشمال الإفريقي وتاريخ الإباضية – على وجه الخصوص[1] .

في تلك الأثناء ولّى أبو جعفر المنصور على مصر محمد بن الأشعث ، فأرسل هذا الوالي جيشاً بقيادة أبي الأحوص العجلي (١٤٢ هـ) لإخماد حركة الإباضية ، فخرج أبو الخطاب للقائه ، فالتقى الجيشان عند مغمداس على شاطىء البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه عائدين إلى مصر واستولى أبو الخطاب على ما خلفوه وعاد إلى طرابلس ، وقد تمكن بأسه وتأثلت دولته[2] .

لهذا وجّه المنصور إلى ابن الأشعث يأمره أن يقود الجيوش بنفسه لمحاربة أبي الخطاب ، فجمع أبو الخطاب جيشاً كثيفاً يقال إن عدده كان مائتي ألف ، وهو تقدير واضح المبالغة ، وإنما يدلّ على الكثرة وحسب ؛ وعسكر في أرض سرت منتظراً قدوم الجيش العباسي . ولما علم ابن الأشعث بكثافة جيش

---

١ انظر ابن خلدون ٦ : ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢١ .

٢ ابن عذاري ١ : ٨٢ والبكري : ٧ .

أبي الخطاب – وكان جيش العباسيين أربعين ألفاً – ضاق ذرعاً بلقائه ؛ غير أن جيش أبي الخطاب لم يتقدم كلّه للمعركة ، إذ كان مؤلفاً من هوّارة وزناتة ، فاتهمت زناتة أبا الخطاب بأنّه يميل إلى هوّارة ، وفارقته جماعات منها ، فتشجع ابن الأشعث عندما علم بنبإ تلك الخلافات وأقدم على خوض المعركة ، التي قُتل فيها أبو الخطاب نفسه وكثير ممن معه[1] .

إن إخفاق أبي الخطاب في ثورته كان درساً أفاد منه عبد الرحمن بن رستم والي القيروان ، فقد أدرك أن النجاح في منطقة يسود فيها المذهب السني وتقاتل عنها الجيوش العباسية بضراوة أمرٌ غير مكفول النتائج ، ولذلك فرّ عن القيروان إلى موضع تاهرت وهناك استطاع في سنوات قليلة أن يبني مدينة تكون عاصمة دولة إباضية مستقلة ، تلك هي الدولة الرستمية التي كان يشايعها إباضيو طرابلس وجبل نفوسة ويدينون لها بالولاء .

كذلك فإن نجاح ابن الأشعث في القضاء على أبي الخطاب جعل من السهل عليه أن يقضي على بقية الحركات الإباضية في المناطق الداخلية ، فأرسل جيشاً إلى زويلة وفيها عبد الله بن حيان الإباضي ، فاستولى الجيش على المدينة وقتل واليها ، ثم استولى على مدينة ودّان[2] .

لكن نجاح ابن الأشعث كان موقتاً ، فإن اضطراب الجند وثورتهم عليه قد اضطره إلى مغادرة إفريقية فولى الجند عليهم والياً من بينهم ، ثم بعث المنصور بالأغلب بن سالم التميمي ثم بعمرو بن حفص الملقب هزارمرد فثارت عليه الصفرية والإباضية ثورة عامة في الزاب وقُتل سنة ١٥٣[3] .

---

١ ابن عذاري ١ : ٨٣ وابن خلدون ٦ : ١١٢ ، ١٢١ .

٢ ابن عذاري ١ : ٨٤ .

٣ سنة ١٥٤ عند ابن خلدون .

٣ — ثورة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي :

وتحركت في طرابلس ثورة إباضية جديدة في ذلك العام بقيادة يعقوب ابن لبيب الإباضي المكني بأبي حاتم ، وكان والي طرابلس هو الجنيد بن بشار الأسدي ، خلفاً للخارق بن غفار الطائي (الذي وليها من ١٤٤ — ١٥٠) ؛ ولم يستطع الجنيد مقاومة الإباضية ففرّ منهزماً إلى قابس .

فلمّا علم المنصور بمقتل عمرو بن حفص هزارمرد ولّى يزيد بن حاتم المهلبيّ على إفريقية ، وحين وصل طرابلس زحف إليه أبو حاتم والتقى الجيشان في معركة أسفرت عن هزيمة الإباضية ، وولّى يزيد على طرابلس سعيد بن شداد وسار إلى القيروان فدخلها سنة ١٥٥[١] . وترك في طرابلس جيشاً بقيادة عبد الله بن السمط الكندي ، فاستطاع ضبط شؤون الولاية والقضاء على ثورة إباضية أخرى قام بها أبو يحيى بن قرياس الهواري[٢] ؛ وبعد ثورة الهواري هدأت الأحوال في منطقة طرابلس وإفريقية وظلّ الهدوء شاملاً حتّى وفاة يزيد بن حاتم المهلبي (عام ١٧١ هـ)[٣] .

* * *

من الطبيعي أن نتوقف هنا قليلاً لنلقي نظرة على هذه الثورات التي تُعد أبرز مظهر في تاريخ ليبيا (وغيرها من نواحي المغرب) في العصرين الأموي

---

١ ابن عذاري ١ : ٩٤ وابن خلدون ٦ : ١١٢ .
٢ اسمه يحيى بن قوناس عند ابن خلدون (٦ : ١٤١) وعند ابن الأثير (٦ : ٦) يحيى ابن فانوس .
٣ ابن عذاري ١ : ٩٤ .

والعباسي . فقد درسها أ. ف. جوتييه[1] وذهب إلى القول بأن هذه الثورات لم تكن إلاّ صورة أخرى من الدوناتية ــ نسبة إلى دونات أسقف كازنوار في المغرب الأوسط ، فقد أبى أن يعترف بصقليان بطريقاً لقرطاجنة لأن صلاح القسس الذين انتخبوه كان موضع شك لديه ، فثارت الخصومة بين دونات وصقليان وانقسم وراءهما المسيحيون الإفريقيون في طائفتين . وعلى هذا اعتبر جوتييه أن حركات الخوارج كانت شيئاً شبيهاً بالحركة الدوناتية وأن الحركة الخارجية كانت تعصباً لأفراد مثلما كانت الدوناتية تعصباً لدونات ضد صقليان ؛ ثم إن الحركتين تتشابهان في التعصب الذي لا يستثني الأمور الفرعية في العقيدة ، وكما كان الدوناتيون يتقدمون للانتحار طائعين ، كان البربر في الثورات الخارجية يتقدمون إلى الاستشهاد راغبين . ولا يهتم جوتييه بالناحية الدينية للموضوع بقدر ما يهتم لما تستّر خلف العقيدة ، ويستشهد بقول ابن خلدون : « إن الخارجية انتشرت على عجل في البلاد وأصبحت سلاحاً في يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة » . فالدوناتية كانت حركة بربرية سياسية اجتماعية قام بها الشعب ، وكذلك كانت الخارجية صورة لحركة شعبية تخفي وراءها ما يعانيه أصحابها من حرمان . ويتوصل جوتييه إلى القول بأن البربر الذين كانوا يقومون بهذه الحركات إنما هم من زناتة سواء في ذلك الذين قاموا مع ميسرة أو حول طرابلس وتلمسان .

ذلك هو مجمل رأي جوتييه وفيه محاولة لإدراج الحركات الخارجية تحت نظرة شاملة واستكشاف طبيعة بربرية فيها ذات سمات فارقة ، وقد كان

---

1 E. F. Gautier : Le Passé de l'Afrique du nord pp. 160 Sqe.

وقد عرض آراءه الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الأندلس ١٨٧ — ١٩٣ وعليه اعتمدت في إيجاز ما أوردته هنا .

رأيه ذا أثر في مدرسة المؤرخين الفرنسيين الذين درسوا تاريخ المغرب من بعده . وهذا الرأي على براعته وعمقه ، يتجاوز الأسباب المباشرة التي كانت سبباً في كل ثورة من تلك الثورات ، وإذا كانت زناتة هي التي قامت بالثورة فإن تعليل جوتييه لا يفسر لماذا كانت زناتة من أول القبائل تأييداً للعرب الفاتحين ؛ فثورة زناتة إذن ليست طبيعة بربرية بمقدار ما هي ردّ فعل لتغير المعاملة التي لقيتها من العرب . كذلك يغفل تحليل جوتييه طبيعة المذهب الخارجي نفسه ، فإن الذين اعتنقوا هذا المذهب في أواسط آسيا لم يكونوا أقل إقبالاً على الاستشهاد من إخوانهم في الشمال الإفريقي ، وإذن فإن دراستنا لطبيعة المذهب الخارجي أدق من تفسير تلك الثورات على ضوء طبائع الأجناس . وأما أن حركات البربر تخفي وراءها غايات مادية ، فكل حركة لا نعدم أن نجد لها الجانب الماديّ الذي يتخذ الدين ستاراً ، والسؤال الذي يستحق الإجابة في هذا المقام هو : لو أنّ ولاة الشمال الإفريقي راعوا سياسة حسّان ابن النعمان ، وطبقوا — ما أمكن تطبيقه — من مبدإ المساواة الإسلامي أكان البربر يفيئون إلى الثورة عليهم باسم الإسلام ؟ إن برغواطة التي انتحلت ديناً شبيهاً بالوثنية لا تصلح دليلاً على ميول البربر في كل مكان .

ليبيا بين الأغالبة والطولونيين

١٨٤ - ٢٩٦ هـ

الطولونيون

أحمد بن طولون	٢٥٤
خمارويه	٢٧٠
جيش بن خمارويه	٢٨٢
هارون بن خمارويه	٢٨٣
شيبان بن أحمد	٢٩٢

الأغالبة

إبراهيم الأول	١٨٤
أبو العباس عبد الله	١٩٧
أبو محمد زيادة الله	٢٠١
أبو عقال الأغلب	٢٢٣
أبو العباس محمد	٢٢٦
أبو إبراهيم أحمد	٢٤٢
أبو محمد زيادة الله الثاني	٢٤٩
أبو الغرانيق محمد	٢٥٠
أبو إسحق إبراهيم الثاني	٢٦١
أبو العباس عبد الله الثاني	٢٩٠
أبو مضر زيادة الله الثالث	٢٩٠ — ٢٩٦

نظرة في أحوال برقة

يحدثنا الكندي أن يزيد بن حاتم ضمَّ برقة إلى عمل مصر وأنّه أول من فعل ذلك ، وأمّر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة السبائي في سنة ١٤٨ هـ.[١] ؛ وهذا قد يوحي بأن منطقة برقة حتّى عهد يزيد ظلت تتمتع بحكم ذاتي ، وأنّها منذ أيامه أصبحت جزءاً من ولاية مصر من حيث القسمة الإدارية ، ولكنّا لا نستطيع أن نستوضح تماماً حقيقة المقصود مما أورده الكندي لأننا نعلم أن والي مصر هو الذي كان — منذ البداية — يختار لبرقة ولاتّها ؛ ومن أقدم هؤلاء الولاة رويفع بن ثابت الأنصاري الصحابي الذي وليها عام ٤٦ هـ. وغزا جربة في العام التالي وافتتحها ثم عاد إلى برقة وتوفي فيها[٢] . وبعد مقتل قيس بن زهير البلوي أرسل إليها عبد العزيز بن مروان والي مصر تليداً الفتى

١ الكندي : ١١٦ .

٢ رحلة التجاني : ١٢٤ وعند ابن عبد الحكم أنه تولاها سنة ٤٣ هـ . وقد نشأ حول رويفع حديث من المناكير ، فقد روي أنه سأل رسول الله (ص) عن الفتنة وكيف هو ناج منها فقال له الرسول : « يا رويفع الزم الجبال والقفار . . . فعليك بسكنى مدينة برقة ، إنها ستفتح عليكم وغيرها من مدائن المغرب » . قال عبد الله بن عمر : فما زلت أجعل ذلك من بالي من أجل هذا الحديث حتّى فتح الله على المسلمين مصر والمغرب ، فسأل رويفع عمر بن الخطاب أن يوفده إلى المغرب فولاه برقة فلم يزل بها حتّى مات فيها وقبره بها رحمه الله (تاريخ ابن الفرضي ٢ : ١٩٦) ؛ وواضح أن رويفعاً لم يتول برقة أيام عمر ، والحديث باطل وإسناده واه .

(وقيل تولاها رجل اسمه طارق) وجعل له مستشارين من أشراف أهل مصر ، وكان تليد عبداً فتذمر الناس في برقة من إمامة عبد لهم ممّا اضطر عبد العزيز إلى عتقه[1] ؛ ولما ولّى عبد الملك على إفريقية حسان بن النعمان كان حسان يعتقد أن برقة داخلة في نطاق عمله ، فطلب إليه عبد العزيز أن يرفع يده عن أنطابلس لأنّه يريد أن يولي عليها شخصاً من قبله ، فأبى حسان واستعفى من الولاية جملة[2] . وحوالي سنة ٩٩ كان واليها هو فهد بن كثير[3] ؛ وفي حدود ١٤٠ وليها شخص اسمه ابن دياس[4] ؛ وبعد سنوات نجد يزيد بن حاتم يولّي عليها عبد السلام السبائي ، حسبما تقدم .

ثم لا نعرف شيئاً من أمر الولاة الذين تعاقبوا على برقة بعد عبد السلام ، فهل تحوّلت برقة من تبعيتها لوالي مصر وأصبحت جزءاً من ولاية ابن الأغلب صاحب القيروان ابتداء من عام ١٨٤ ؟ يقول الكرخي : «وكان ملوك إفريقية وبرقة أولاد الأغلب الذي كان قد أُنفذ في أول أيام بني العباس ليكون في وجه إدريس بن إدريس[5] » ؛ ولكنّا لا نملك شيئاً يؤكد هذا القول ، بل لعلّ مما يضعفه أن الخلافة العباسية ظلت تتدخل ، من خلال والي مصر ، في شؤون برقة بينما لا نسمع عن تدخل لبني الأغلب فيها .

وكانت برقة حوالي سنة ٢١٥ تعاني اضطراباً في الأحوال إذ انتقض أهلها برياسة مسلم بن نصر الأعور ، ممّا جعل الأفشين حيدر بن كاووس يسير إليها بعد أن قضى على ثورة أهل البشرود بمصر ، ففتحها وقضى على رأس

---

١ ابن عبد الحكم : ٢٠٣ .
٢ الكندي : ٥٢ .
٣ ابن عبد الحكم : ١٢٧ .
٤ ابن عبد الحكم : ١٧٠ .
٥ الكرخي : ٣٧ .

الفتنة وولى عليها عيسى بن منصور أواخر العام المذكور ، وقفل عائداً في جمادى الآخرة سنة ٢١٦[١] .

وبعد ما يزيد على عشر سنوات نجد فريقاً من أهل برقة : بعضهم من البربر وبعضهم من قريش ، يقومون بالثورة على واليهم وكان يومئذ محمد بن عبدويه بن جبلة ، وذلك في خلافة الواثق (أي حوالي ٢٢٧) ، فوجّه إليهم الخليفة جيشاً بقيادة رجاء بن أيوب الحضاري ، فلمّا شعر به الثائرون هرب قسم كبير منهم ، وهدأ رجاء الأحوال هنالك[٢] .

كيف كانت أحوال برقة بين ولاية ابن جبلة ومجيء أحمد بن طولون والياً على مصر سنة ٢٥٤ ؟ تلك فترة لا نعثر على شيء متصل بها في المصادر ، ولكن يبدو أن الخليفة العباسي – وهو المعتمد – لم يعترف بما فعله الخلفاء من قبله من إسناد أمور برقة إلى والي مصر ، ولذا نجده يباشر بنفسه النظر لولاية برقة ويبعث عليها (سنة ٢٥٧) والياً اسمه محمد بن هرثمة بن أعين ، يدعوه اليعقوبي باسم « عامل المعونة »[٣] . غير أنّه لم يلبث فيها إلا قليلاً إذ ثار به الجند وأخرجوه عنها ، فذهب فارّاً إلى الفسطاط فتولى برقة من بعده أحمد بن عيسى الصغدي (أو الصعيدي)[٤] ؛ ومن يده تسلمها أحمد بن طولون – حين ضُمت إليه ولاية برقة – وولّى عليها محمد بن فروخ الفرغاني[٥] . وجعل على خراجها أحمد بن أبي يعقوب[٦] .

---

١ الكندي : ١٨٩ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٦٥ وخطط المقريزي ٢ : ١٠٠ .
٢ تاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٨٠ .
٣ تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٠٨ وقد كان هرثمة والد محمد ذا يد في بناء سور طرابلس من جهة البحر كما سنذكر ذلك في موضعه .
٤ المغرب لابن سعيد ١ : ٨٠ .
٥ سيرة ابن طولون للبلوي : ٧٠ ويسميه ابن الأثير محمد بن فرج .
٦ المغرب ١ : ١٢٢ .

ولم يرض أهل برقة بهذا الانضمام تحت جناح أحمد بن طولون ، ولذلك ثاروا بأميرهم الفرغاني وطردوه من بلدهم ، فأرسل إليهم ابن طولون جيشاً كثيفاً بقيادة أبي الأسود الغطريف والحاجب يزبك الفرغاني ، وجعل الأسطول المشحون بالأسلحة والمنجنيق مواكباً لهذا الجيش البري . وتدل الأحوال على أن ثورة أهل برقة كانت جامحة عنيفة ، وأن ابن طولون اتخذ للقضاء عليها استعدادات جمة فلم يكتف بإرسال جيش وأسطول بل أتبع ذلك بجيش ثان بقيادة غلامه لؤلؤ ثم بجيش ثالث بقيادة شعبة بن خركان ، وأوصى القواد الثلاثة بالتساند ، كما أوصاهم أن يدعوا أهل برقة للطاعة بالرفق واللين أولاً ، فإن لجّوا في عنادهم لجأوا إلى القتال . إلا أن جيش شعبة تأخر عن الجيشين السابقين .

وضرب الجيشان الأول والثاني الحصار حول سور المدينة — وهو سور منيع — فوقف الغطريف ويزبك على أحد الأبواب ، ولؤلؤ على باب آخر ، وفاوضوا أهل برقة باللين فاستجابوا للمفاوضة ، وكان ذلك حيلة منهم ، فإنهم فتحوا الباب الذي يقف عنده الغطريف وجيشه وأحدثوا في الجيش مقتلة فتسرع الغطريف لإنقاذ جيشه فقُتل هو وقائدان آخران معه هما دعباش وإسرائيل ؛ فلما فقد جيش الغطريف قائدهم انضموا إلى لؤلؤ .

وكتب لؤلؤ إلى أحمد بن طولون ينبئه بما كان ويستشيره في ما يفعل ، فأجابه ابن طولون يأمره بالقتال وعدم الملاينة ، فنصب المجانيق حول المدينة وعبأ جيشه ثم زحف على الحصن ، وأمطر المحصورين بوابل من الحجارة والنشاب ، فصاح من في الداخل يطلبون الأمان ، فلما أجيبوا إليه فتحوا الباب ، فدخله لؤلؤ وقبض على جماعة من زعماء الفتنة وعاقبهم : فجلد بعضهم بالسياط ، وقطع أيدي بعضهم ، وصلب آخرين .

وبعد إحراز النصر وصل الجيش الثالث بقيادة شعبة فتركه لؤلؤ والياً على

البلد وعاد إلى الفسطاط ومعه جماعة من الأسرى ، فكافأه ابن طولون على ما أحرزه من نصر واتخذ من منظر الأسرى – وهم يطاف بهم في شوارع الفسطاط – أداة لتخويف الناس وتمكين هيبته في النفوس[1] .

ولا ريب في أن مناعة برقة التي كلفت ابن طولون كلّ هذه الإعدادات قد كانت واضحة في ذهن العباس ابنه حين فكر في الثورة على أبيه ، فاتجهت إليها أنظاره بل خامره طموح في أن يتخذها قاعدة يستولي منها على إفريقية نفسها .

وكانت للعباس بطانة تحرضه على الخروج وتحسن له برقة وإفريقية وتهوّن في نظره من شأن إبراهيم بن أحمد الأغلبي وهو يومئذ والي إفريقية ؛ فلما كان أبوه غائباً في الشام ، أجمع أمره على الخروج مظهراً أنّه سائر إلى الإسكندرية ، ولكنه توجه في الحقيقة إلى برقة عام ٢٦٥ هـ . ويذكر ابن عذاري ما كان مع العباس بتفصيل فيقول : « وذلك أن العباس بن أحمد ابن طولون ولد صاحب مصر قدم في هذه السنة (٢٦٧ هـ)[2] في ٨٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه على خمسة آلاف جمل إلى مدينة برقة في ربيع الآخر يريد إفريقية والتغلب عليها وإخراج بني الأغلب منها وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ٨٠٠ حمل دنانير ذهباً ، فأعطى أصحابه الأرزاق بها ، وقيل إن مبلغ ما حمل من المال ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار »[3] .

ولما سمع أحمد بن طولون بثورة ابنه عاد توّاً إلى مصر وأرسل وفداً فيه القاضي بكار بن قتيبة بكتاب يليّن به جانب ابنه ويعده بالعفو عنه ، ولكن البطانة التي كانت حرضته على الخروج خشيت من عودته فأقنعته بالمضي في

---

١ سيرة ابن طولون للبلوي : ٧٠ – ٧٢ وانظر ابن الأثير ٧ : ١٩٥ .

٢ أما ابن الأثير فيقول : « وأتى إلى برقة في ربيع الأول (أي عام ٢٦٥) » (انظر ٧ : ٢٢٤) .

٣ ابن عذاري ١ : ١٥٦ .

ما خرج له ؛ وتهيأ العباس لفتح طرابلس فأشار عليه أحمد بن محمد الواسطي الذي كان كاتباً لأبيه بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر فقال له « أخشى أن تقدم العساكر من الشام قبل إحكام هذا الأمر — يعني عساكر أبيه — . . . ويكون أيضاً في ذلك فسحة لإبراهيم بن أحمد فيتمهل في الاستعداد ولكني أمضي على فوري هذا فآتي لبدة واطرابلس فجأة ثم آخذ في استمالة البربر بعد ذلك بالعطاء والإفضال » [1] .

اعتمد العباس — إذن — على السرعة لأنه كان يدرك أن تطاول الزمن ليس في مصلحته ، وحاول كذلك تبني الحق الشرعي والاتكاء عليه، فكتب إلى إبراهيم بن أحمد الأغلبي يقول له إن المعتمد قد قلده إفريقية وأمره بالدعاء له بها ؛ وكتب أيضاً إلى إلياس بن منصور النفوسي الذي كان يسيطر على جبل نفوسة ويقيم فيه حكماً إباضياً موالياً للدولة الرستمية بتاهرت — كتب له يأمره أن يقدم سامعاً مطيعاً [2] .

وتختلف الروايات هنا ، فأما الكندي والبلوي وابن سعيد وابن الأثير فيذكرون أن العباس لما وصل لبدة تلقاه عامل ابن الأغلب عليها بالحفاوة وفتح الناس له البلد، ولكن العباس أمر بنهب المدينة فنُهبت، وقُتل الرجال وجرت الفوضى إلى افتضاح النساء ، فاستغاث الناس بابن منصور النفوسي ، وفي الوقت نفسه حضر ابن قرهب عامل الأغالبة على طرابلس بجيش أرسله إليه إبراهيم الأغلبي بقيادة غلام يقال له بلاغ ، فأطبق الجيش الإباضي وجيش ابن قرهب على جيش العباس فقتل صناديد عسكره ووجوه أصحابه ونهبت أمواله وسلاحه ورجع هو إلى برقة [3] .

---

١ ابن عذاري ١ : ١٥٦ — ١٥٧ .

٢ المغرب لابن سعيد ١ : ١٢١ .

٣ الكندي : ٢٢٢ — ٢٢٣ والمغرب : ١٢١ والبلوي : ٢٥٣ — ٢٥٤ وابن الأثير ٧ : ٢٢٤ .

وأما ابن عذاري فيروي أن ابن قرهب جاء بجيوشه فدخل لبدة قبل وصول العباس إليها ، وأقبل العباس « وقد صنع له ببرقة خمسة آلاف بند فحمل له على كل جمل راجلاً ببنده » فالتقى به ابن قرهب على خمسة عشر ميلاً من لبدة ، فانهزم ابن قرهب لاحقاً بطرابلس، ولحق به العباس حتى بلغ المدينة وحاصرها ثلاثة وأربعين يوماً . وفي أثناء ذلك تعدّى بعض سودانه على بعض حرم أهل البادية — بادية طرابلس — فاستغاثوا بإلياس بن منصور النفومي فزحف إلى العباس في ١٢ ألفاً من رجال نفوسة فانهزم العباس أمام استبسال الإباضية [١] .

والفرق بين الروايتين : (١) أن الرواية الأولى تجعل اللقاء عند لبدة لا عند طرابلس . (٢) وأن الأولى تنسب هزيمة العباس إلى تضافر جيشين ، بينما تجعل الثانية عبء المعركة من نصيب إلياس بن منصور النفوسي ؛ ويبدو أن طرابلس هي التي كانت موضع المعركة الفاصلة لا لبدة ، وأن الجيشين اشتركا في هزيمة العباس ، وفي الوقت نفسه نقدّر أن أعمال السلب والنهب عند لبدة وصلت أخبارها إلى الإمام الإباضي ووصله تهديد العباس ثم استغاثة أهل طرابلس ، فاتحدت كل هذه العوامل وقوّت عزيمته على وضع حدّ لأعمال ذلك المفسد وجيوشه ، وداخلته — كما يقول الكندي — حميّة الإباضية فغضب ممّا ارتكبه العباس وجيشه غضباً شديداً [٢]. وكان إلياس يرى في تهديد العباس له وقاحة وحماقة، فجبل نفوسة الذي يدين له بالطاعة « ممتنع لنجدته وكثرة أهله وقوتهم »[٣]، وإلياس وهو في منعة من جبله وقومه لا يقبل تهديد ثائر مبيح

---

١ ابن عذاري ١ : ١٥٧ — ١٥٨ .

٢ الكندي : ٢٥٤ .

٣ المصدر نفسه .

للأعراض سفاك للدماء ، ولذلك كان جوابه مع رسول العباس : « قل لهذا الغلام إنّك أقرب الكافرين مني وأولاهم بمجاهدتي ، وقد ظهر من قبيح فعلك ما لا يمكنني معه التخلف عنك وعن جهادك وأنا على أثر رسالتي إليك »[1].

وقد ضرب إلياس وأصحابه في تلك الحرب مثلاً رائعاً من القتال في سبيل نصرة المستغيث دونما غاية سوى إرضاء الضمائر وما يعتقدون أنّه الحق ، فلمّا انكشفت المعركة عن هزيمة العباس وجيشه لم يتلبس جيش الإباضية بشيء من الغنائم وعادوا إلى معقلهم ، جبل نفوسة ، وبقي لجيش ابن الأغلب إحراز ما خلفه العباس في ساحة المعركة .

عاد العباس إلى برقة ، ولكن والده كان مصرّاً على أن لا يترك له فرصة من راحة ، وكذلك كان إبراهيم بن أحمد غاضباً لتعديه على طرابلس ، وكادت قصة وقوع العباس بين شقي « كماشة » جديدة تتكرّر ، إذ أرسل إليه أبوه جيشاً في شهر رمضان سنة ٢٦٧ بقيادة إبراهيم بن بلبرد ، فتوقف إبراهيم بجيشه فيما بين الإسكندرية وبرقة ، ثم عزم أحمد بن طولون على الخروج بنفسه فجمع عسكراً كثيراً ، قيل إنّه بلغ مائة ألف ، وخرج إلى الإسكندرية فوافاه بها الواسطي الكاتب هارباً من العباس وهوّن لديه من أمره، فتراجع أحمد بن طولون عن المسير بنفسه ، وعقد على قسم من جيشه لطبارجي، فسار طبارجي إلى برقة والتقى بالعباس في رمادة سنة ٢٦٨ فانهزم أصحاب العباس وأُخذ هو أسيراً ، ومضى طبارجي إلى برقة يتفقد أحوالها ويصلح ما يمكن إصلاحه منها ثم استخلف والياً عليها وعاد إلى مصر[2] . وبلغت هزيمة العباس مسامع إبراهيم بن أحمد وكان قد بلغ بجيشه طرابلس فعاد إلى تونس .

---

١ المصدر نفسه .

٢ الكندي : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

طرابلس في أيام بني الأغلب

عُدّتْ طرابلس — حسب القسمة القديمة — جزءاً من ولاية إفريقية ، وقد حرصنا فيما سبق على أن نذكر أسماء من وصلتنا أسماؤهم من ولاتها ؛ فممّن وليها بعد سعيد بن شدّاد رجل اسمه يحيى بن موسى (١٧٧ هـ) ، ثم سفيان بن المضاء أبي المهاجر (١٧٩ هـ) وفي أيامه قام هرثمة بن أعين والي إفريقية ببناء سور طرابلس من جهة البحر[١] .

وفي سنة ١٨٤ أصبحت ولاية إفريقية لإبراهيم بن الأغلب مؤسس أسرة الأغالبة ، فأصبحت طرابلس تابعة له ، وكانت أحوال البلد في اضطراب شديد وأهله يكثرون من أعمال الشغب لأسباب لا تتحدث عنها مصادرنا ، وكان إبراهيم يحاول أن يترضاهم بعزل من يتبرمون به من ولاتهم ويولي غيره ، وبين عامي ١٨٤ — ١٨٩ تولّى طرابلس عدد من الولاة ، وكان آخرهم سفيان بن المضاء ، فثار عليه أهل طرابلس واتفقوا على إخراجه من بلدهم وإعادته إلى القيروان ، ودار القتال بينهم وبينه حول داره ، فلمّا وجد أنّه لا يستطيع مقاومتهم هو وأصحابه لجأ إلى المسجد ، فهاجموه وقتلوا أصحابه ، وأمّنوه على أن يبارح طرابلس وذلك في شعبان من العام المذكور ، فكانت مدة ولايته الرابعة هذه أقل من شهر . فقام جند طرابلس بتولية إبراهيم بن سفيان التميمي . غير أن الاضطرابات تجددت بين جماعة من الجند المعروفين بالأبناء وبين ناسٍ يُعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف ، حتى عمّ الفساد البلد ، وفُقدت فيه الطمأنينة ، وبلغت الأخبار إبراهيم بن الأغلب فأرسل إلى طرابلس

---

١ ابن عذاري ١ : ١١٠ وابن الأثير ٦ : ٩٦ .

جمعاً من الجند وأمرهم أن يحضروا الفريقين المتنازعين بالقيروان ، فأحضروا إليه في ذي الحجة ، فلما مثلوا لديه طلبوا العفو فعفا عنهم وردّهم إلى بلدهم[1] ، ويزيد ابن خلدون أن الجند الذين بعثهم ابن الأغلب قد هدأوا الفتنة بالقوة[2] وأقرّ الوالي الأغلبي إبراهيم بن سفيان ، بعد أن تعهد له هذا بالطاعة . لكن يبدو أن ابن الأغلب إنّما فعل ذلك تألفاً لأهل طرابلس وأنّه لم يكن راضياً عن استمرار ابن سفيان في ولايته ، إذ نراه يعزله ويعيد إليها سفيان بن أبي المهاجر (سفيان بن المضاء) مرة أخرى .

ويبدو أنّ طرابلس هدأت إلى أمد ، ولكن عادت الأحداث تتجدد فيها وتشير إلى قلق شديد لدى طائفة الجند . وكانت الفتن التي حدثت فيها عام ١٩٦ تمثل ثلاث مراحل :

١ — ثورة رجل اسمه أبو عصام ، التف حوله جماعة ممن يرون رأيه ، ولكن لا ندري عنه شيئاً ، فسار إليه إبراهيم بن الأغلب وظفر به وبأتباعه .

٢ — ثورة الجند عند تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب على طرابلس حين وليها سنة ١٩٦ ، وقد حصره الجند في داره ثم اتفقوا معه على أن يخرج عنهم ففعل ، ولكنه لم يبعد عن طرابلس كثيراً حتى أغرى من شاء الانضمام إليه بعطاء سخي للفارس أربعة دراهم في اليوم وللراجل درهمان ، فاحتشد حوله من البربر عدد كبير ، فسار إلى طرابلس ، وقبل أن يدخل المدينة وافاه جندها ، فدار بين الفريقين قتال كان النصر فيه لعبد الله ، فدخل مدينة طرابلس وأعلن الأمان لها .

---

١ ابن الأثير ٦ : ١٣٢ .

٢ ابن خلدون ٤ : ١٩٦ .

٣ — ثورة هوّارة وذلك على أثر عزل عبد الله وتولية سفيان بن المضاء[1].
ومن أجل أن نتفهم حقيقة هذه الثورة علينا أن نتذكر أن الدولة الرستمية بتاهرت كانت قد تأثلت ورسخت أصولها على يد عبد الرحمن بن رستم (الذي توفي سنة ١٧١)[2] وخلفه فيها ابنه عبد الوهاب (١٧١—٢٠٨)[3] وكان الإباضية بجبل نفوسة يتمتعون في زمن أبيه عبد الرحمن بنوع من الاستقلال الذاتي بمعزل عن نفوذ الدولة العباسية وولاتها. وفي عهد عبد الوهاب قويت الصلات بين تاهرت والجبل ؛ فإن عبد الوهاب لما ضايقته جماعة الواصلية المعتزلة بنواحي تاهرت طلب العون من جبل نفوسة. وتقول الرواية إنّه حدد هذه المعونة بأربعمائة نفر : مائة من الفرسان ومائة من المفسرين ومائة من المتكلمين ومائة من الفقهاء ، ولكن أهل الجبل لم يمدوه إلاّ بأربعة رجال هم : مهدي النفوسي المتكلم ومحمد بن يانس المفسر وأبو الحسن الأبدلاني الفقيه وأيوب بن العباس الفارس[4] .

ومثل هذه الرواية يستوقف النظر حقاً : فإنّه إذا صدقنا أن المحاربين من الواصلية بنواحي تاهرت كانوا ثلاثين ألفاً ويقال : كانوا أربعين ألفاً[5] ، وجدنا أن طلب مائة فارس من جبل نفوسة ، لا يعدّل كثيراً في الكفة العددية ،

---

١ ابن الأثير ٦ : ١٨٧ .

٢ يذكر زامباور أن وفاته كانت سنة ١٦٨ ولكن نتابع هنا مؤلف الأزهار الرياضية ٢ : ٩٩ .

٣ في المدة التي قضاها عبد الوهاب حاكماً اختلاف فبعضهم يقول إنه حكم عشرين سنة ١٦٨ — ١٨٨ وبعضهم يرى أنه بقي أربعين عاماً من ١٦٨ — ٢٠٨ وهذا الذي أثبتناه مخالف لرأي صاحب الأزهار الرياضية (٢ : ١٦٣) ولكن لا يمكن أن نعتقد أن عبد الوهاب توفي سنة ١٩٠ بينما هادن ابن الأغلب على طرابلس سنة ١٩٧ .

٤ الأزهار الرياضية ٢ : ١١٨ — ١١٩ .

٥ المصدر السابق : ١١٦ .

هذا مع علمنا أن الجبل كان قادراً على أن يمدّ الإمام عبد الوهاب بآلاف من المحاربين الشجعان، ولكن أهله اكتفوا بإرسال واحد من هذا الطراز . فالرواية تشبه من هذه الناحية الأحجية ، وتريد أن تضفي الثناء على الأربعة الذين أرسلوا وتقول إن الواحد منهم كان يعدل مائة . ولعل الحيرة تملكت أهل الجبل عندما وجدوا أنهم لا يستطيعون أن يقدموا مائة مفسر ومائة متكلم ، إذ كان عليهم اختيار الأعلام في هذين العلمين، لا أي مفسر ولا أي متكلم ، ومثل هذا العدد يكون عزيزاً في بعض الأحوال . ولو قنع الإمام عبد الوهاب بطلب مائة فقيه لكان طلبه أيسر بكثير .

وازدادت صلة عبد الوهاب بالجبل وأهله حين هدأت الأحوال من حوله واستطعم حلاوة الاستقرار وقضى على الفتن، وأحب أن يحقق رغبة ملحة في نفسه كانت تدفعه إلى الحج وزيارة قبر الرسول الكريم ، فمرّ في طريقه إلى الحج بالجبل ، وأقام بين أهله مدة من الزمن يتفقد أحوالهم ويعقد لهم مجالس العلم ، «وبالجملة فقد نشر في تلك المدة من درر البيان وجواهر التبيان ما اهتدى به كل جاهل ، واستضاء به كل مظلم، وتنبه به كل غافل، من علوم زاهرة ، ومواعظ زاجرة ، وأحاديث فاخرة ، عطفت عليه الألباب ، وأخضعت له الرقاب ، فاتسعت حلقة مجلسه المهيب ، وانتظم في سلك عقدها العلماء الراسخون . . . »[1] .

ونصحه علماء المذهب في الجبل أن يعدل عن الحج خوفاً عليه وضنانة أن يصيبه مكروه من أعدائه السياسيين ، ولكنه أحبّ أن يطمئن إلى فتوى علماء المشرق من أهل مذهبه ، وبعث في ذلك خادماً له برسائل يستفتيهم في الأمر، وأقام هو في قرية «ميري» وبنى فيها مسجداً ، وظل هنالك ينتظر

---

١ الأزهار الرياضية ٢ : ١٤٢ .

ما يجيء به رسوله من المشرق .

وفي أثناء إقامته بالجبل قامت الثورة حول مدينة طرابلس . وكانت هوّارة هي التي رفعت راية تلك الثورة ؛ فخرج الجند الطرابلسي للقاء جموع هوّارة ، ولكنها استطاعت أن تقتحم المدينة وأن تخربها وتهدم بعض أسوارها بعد إذ هرب جندها ذاهبين إلى إبراهيم بن الأغلب . ويقول ابن خلدون إن الذي تولى كبر ذلك من هوّارة : عياض ووهب[1] . ويرجح الباروني أن تكون هذه الثورة التي قامت بها هوّارة محاولة منها للانضمام إلى الدولة الرستمية ، وزادها رغبة في ذلك وجود عبد الوهاب الرستمي حينئذ في جبل نفوسة[2] .

فلمّا رأى إبراهيم بن الأغلب ما حلّ بالجيش الطرابلسي أرسل ابنه عبد الله في ١٣ ألف فارس لإنقاذ المدينة ، فتغلب عبد الله على جموع هوّارة وانتزع المدينة من أيديها وجدّد ما هُدم من سورها . فلجأت هوّارة إلى عبد الوهاب بن رستم تستنجده فخفّ لنجدتها[3] . وبذل عبد الله بن الأغلب جهداً كبيراً في الدفاع عنها ، فأغلق باب زناتة من سورها ، وركّز القتال عند باب هوّارة . والحقيقة أنّ عبد الوهاب بن رستم لم يكن على قدرة تمكنه من فتح المدينة لضعف وسائل الحصار لديه وعدم التكتّم في خططه : « وكلما دبر بالليل رأياً وجده بالنهار فاشياً في العسكر »[4] ؛ ولكن — في أثناء الحصار — وصلت الأخبار إلى عبد الله بأن أباه إبراهيم قد توفّي وأنّه عهد إليه بولاية

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤١ وابن الأثير ٦ : ١٨٧ ويقول الباروني : لا ذكر لهذين الرجلين في كتب الإباضية أصحابنا ولعلهما في غير الولاية عندهم (الأزهار الرياضية : ١٤٤) .

٢ الأزهار الرياضية : ١٤٦ .

٣ ابن خلدون ٦ : ١٤١ وابن الأثير ٦ : ١٨٧ .

٤ الأزهار الرياضية : ١٤٥ .

إفريقية من بعده ، فتقدم إلى مصالحة الإباضية على أن تكون المدينة داخل السور لابن الأغلب وأن يكون ما خارجه حتّى مدينة سرت تابعاً لعبد الوهاب بن رستم[1] ، وبذلك كسب عبد الوهاب شروطاً لم يكن يتوقعها ، وعاد عبد الله إلى القيروان عام ١٩٧ وخلّف على المدينة سفيان بن أبي المهاجر[2] ، فظلّ في ولايته حتّى قتلته زواغة ولواتة .

أمّا عبد الوهاب بن رستم فعاد إلى الجبل بعد أن رتب شؤون الولاية الطرابلسية الممتدة من سرت شرقاً إلى جبال مطماطة ودمر غرباً ، وكان رسوله قد عاد إليه بفتوى علماء المشرق الإباضيين يجيزون له عدم الحج ، فقرّر العودة إلى تاهرت ، وعندئذ تقدم إليه أهل جبل نفوسة ورجوه أن يعين عليهم حاكماً من قبله وبذلك كانوا يعلنون الولاءين الديني والسياسي له . فلمّا خيرهم فيمن يؤثرونه لولاية أمورهم اختاروا السمح بن أبي الخطاب أحد وزراء الإمام عبد الوهاب ، فاستجاب لرغبتهم وتركه والياً على الجبل وعاد إلى عاصمته ، وكان السمح من خير الولاة « عدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أبناء الأهالي في النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامه بحيث لم ينكروا عليه شيئاً في مدة ولايته كلها »[3] . وسنعود إلى الحديث عن أوضاع الجبل في موضع آخر ، أما في هذا المقام فنوجه النظر إلى من توالى على طرابلس من ولاة بني الأغلب .

ففيما يلي أسماء بعض من استطعت التعرف إليهم من ولاة طرابلس في العهد

---

١ ابن الأثير ٦ : ١٨٨ ويقول ابن خلدون (٦ : ١٤١) فصالحهم على أن تكون الصحراء لهم.

٢ انظر الحلة السيراء ١ : ١٦٨ وابن عذاري ١ : ١٢٠ .

٣ الأزهار الرياضية ٢ : ١٤٨ .

الأغلبي بعد سفيان بن المضاء :

١ — منصور بن نصر الجشمي الطنبذي — نسبة إلى قرية تُعرف بطنبذة من إقليم المحمديّة بجهة تونس — ؛ كان والياً على طرابلس، فلمّا قتل زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب : عمرو بن معاوية السلمي وولديه الحباب وسكتان استاء منصور وامتعض للقيسية ، واستنكر فعل زيادة الله ، فكتب صاحب الخبر بما تفوّه به منصور ، فعزله زيادة الله واستقدمه ثم صفح عنه ، ومن بعد قام بثورة في تونس سنة ٢٠٩[١] . وقد فصّل ابن عذاري خبر هذه الثورة تفصيلاً لا يتصل بهذا البحث .

٢ — محمد المكني بأبي عبد الله وليها أيّام أخيه محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب المكني بأبي العباس ومات بها في أيّامه سنة ٢٣٣[٢] .

٣ — أحمد بن سفيان بن سوادة الأغلبي ولي اطرابلس وأعمالها سنين كثيرة وله بها أخبار وآثار ووقائع مشهورة ، وكان ذا مكانة رفيعة بين الجند ، غير أن ابن الأبار لم يعين تاريخ ولايته على طرابلس[٣] . ولذا لا نستطيع أن نتأكد إن كانت ثورة سنة ٢٤٥ حدثت في أيامه ؛ ولكن سياق الأحداث يستدعي أن نتحدث عن هذه الثورة في هذا الموضع ، ففي تلك السنة امتنع بربر لهان عن دفع العشور والصدقات المترتبة عليهم لعامل طرابلس فلمّا تصدّى لهم هزموه ، فقصد لبدة فحصنها ، ثم سار إلى طرابلس وامتنع فيها وأرسل إلى أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ — ٢٤٩) يخبره بذلك ، فوجه إليه الأمير الأغلبي جيشاً بقيادة أخيه زيادة الله ،

---

١ الحلة السيراء : ٢ : ٣٨٢ .

٢ المصدر نفسه ١ : ١٦٩ .

٣ المصدر نفسه ١ : ١٨٣ .

هزم بربر لهان وقتل منهم كثيراً وتتبع خيالته المنهزمين ، وأسر جماعة وضرب أعناقهم ، وأحرق ما وجده في المعسكر ، ولما قمع الثورة بهذه الإجراءات الصارمة ، أخذ منهم رهائن ليضمن عدم عودتهم إلى الانتقاض[1] .

٤ — عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب أبو العباس : ولي اطرابلس ثم نقله أبو الغرانيق (٢٥٠ — ٢٦١) عنها وجعله والياً على صقلية ، ثم أعاده إلى ولاية اطرابلس مرة أخرى ، وكان عبد الله أديباً شاعراً طالباً للحديث والفقه ، ولما أتاه كتاب عزله عن طرابلس قال يخاطب صديقه أبا هارون موسى بن مرزوق ، صاحب بريد طرابلس :

قد أتى في الكِتابِ مَا قد علِمنا مِن ثَناء ورحلةٍ وفراقِ
وعددنا الأيّام فهي ثمان بَعد خمس سريعة الافتراق
فَعلَيك السلام إن فراقي قَد دنا والفراق مرُّ المَذاق[2]

٥ — محمد بن قرهب : كان عاملاً على اطرابلس لإبراهيم بن أحمد (٢٦٢ — ٢٨٩) وفي أيّامه حدثت فتنة العباس بن أحمد بن طولون الّتي تقدم بيانها[3] .

٦ — محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أبو العباس ولي اطرابلس لابن عمّه إبراهيم بن أحمد (٢٦٢ — ٢٨٩) ؛ وكان عالماً أديباً شاعراً خطيباً حسن السيرة على نقيض ابن عمّه ؛ ولحسن سيرته حقد عليه إبراهيم ، وممّا زاد في حقده أن أهل تونس شكوا إبراهيم إلى

---

١ ابن الأثير ٧ : ٥٨ .
٢ الحلة السيراء ١ : ١٧٩ .
٣ الكندي : ٢٢٢ والمغرب : ١٢١ وانظر ص : ٥٩ — ٦٢ من هذا الكتاب .

الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) فقال المعتضد : عجباً من إبراهيم ما يبلغنا عنه إلا سوء الثناء عليه ، وعامله على طرابلس يبلغنا عنه خلاف ذلك من رفق بمن ولي عليه وإحسان . وقيل إن المعتضد كتب له : إن لم تترك أخلاقك في سفك الدماء فأسلم البلاد إلى ابن عمك محمد بن زيادة الله صاحب طرابلس . فخرج إبراهيم إلى طرابلس خفية ، وأظهر أنه يريد الخروج إلى مصر، فقتل محمداً وصلبه[1] .

ويستفاد من الرواية السابقة أنه كان والياً في عهد المعتضد (أي بعد سنة ٢٧٩) ، وكان مقتله عام ٢٨٣ .

ولما كان إبراهيم بن أحمد في طريقه إلى طرابلس لتحقيق ما أضمره في نفسه اعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس تريد أن تحول بينه وبين الجواز وهم في زهاء عشرين ألف رجل .

إن هذه الحادثة تقتضي أن نعود في الزمن لنتتبع ما كان قد حدث في جبل نفوسة بعد بيعة السمح بن أبي الخطاب[2] ؛ فقد كان السمح في ولايته إماماً مرضياً لدى أهل الجبل، فلما توفي دون أن يعهد لأحد بالولاية على الجبل ، قام بعضهم فبايع ابنه خلفاً ، فأنكر هذه البيعة جماعة من الفقهاء والمقدمين منهم أيوب بن العباس وإسماعيل بن درار الغدامسي ؛ واحتكموا إلى عبد الوهاب بن رستم فكتب بالولاية إلى أيوب بن العباس ، ولم يطل عهده فيما يبدو فولّى عبد الوهاب بعده أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني (قبل سنة ٢٠٨) وكان معروفاً بالعلم والورع ، وفي أيامه جدّد خلف المخالفة ، وجمع حوله جموعاً أخاف بها السبل وقطع الطرقات ، وحاول أبو عبيدة أن يستميله باللطف

---

١ الحلة السيراء ١ : ١٧٩ .

٢ انظر ص : ٦٨ من هذا الكتاب .

نزولاً على نصيحة عبد الوهاب الذي كان يحب حقن الدماء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وفي مدة إمارة أبي عبيدة على الجبل توفي عبد الوهاب وخلفه ابنه أفلح ، وكان خلف ما يزال معلناً للعصيان، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام الجديد يستأذنه في محاربته لكثرة تعديه وموالاته أعمال القتل والنهب ، وكان أفلح يرى رأي أبيه في الملاطفة والمهادنة وأخذ الأمور بالتأنّي والرفق ، غير أن هجوم خلف على ناحية جادو كان لا بد أن يقابل بالقوة ، فجهز أبو عبيدة جيشاً هزمه أولاً ، فعاد خلف وجمع جموعه من جديد ، ويبدو أن أتباعه كانوا كثيرين إذا صدقنا أن عدد جيشه كان أربعين ألفاً ، وكان أهل سروس نفسها ممن أعانه في هذه الحرب . ومع كثرة جيشه وقلة عدد الجيش الذي كان مع أبي عبيدة فإن أبا عبيدة انتصر في المعركة التي تؤرخ بعام ٢٢١ هـ .

وتوفي أبو عبيدة بعد هذه المعركة الثانية فعين الحاكم الرستمي على الجبل العباس بن أيوب ؛ وفي زمنه قضي على ثورة خلف بعد معارك كثيرة ، وهدأت أحوال الجبل في أيامه، فلما توفّي خلفه أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي ولم تطل مدته ، قيل إنّها لم تتجاوز سبعة أشهر ، وكان من ولاة الجبل بعده أبو منصور إلياس النفوسي الذي عرضنا له عند الحديث عن حركة ابن طولون. وبعده تولّى الجبل أفلح بن العباس (حوالي ٢٨٣)[١] .

وفي زمن أفلح هذا كان توجه إبراهيم بن أحمد إلى طرابلس واعتراض نفوسة له تريد أن تمنعه من الجواز ، لأنّها كانت تعد اجتيازه من أرضها خرقاً لسيادتها ؛ ولا بد أن تكون غاية إبراهيم من خروجه هي التخلص من حاكم طرابلس ، وقد ورّى عن هذه الغاية بمهاجمة مصر دون سبب يدعو لذلك ،

-----

١ بإيجاز عن الأزهار الرياضية ١٤٨ — ٢٨٠ .

ولا يمكن أن يكون خروجه لحرب العباس بن طولون الذي انتهى أمره سنة ٢٦٨ بينا تجمع المصادر على أن اعتراض نفوسة لإبراهيم كان سنة ٢٨٣ .

وينقل الباروني عن أبي زكريا أن الجند كان قادماً من المشرق لا متوجهاً من القيروان إلى طرابلس وأن نفوسة اعترضته لكي تحول بينه وبين الوصول إلى تاهرت عاصمة الرستميين[1] وهذا تأول بعيد لا يمكن إثباته .

وكان لقاء الجيش الإباضي لإبراهيم في موضع يدعى « مانو » بين قابس وطرابلس ، وفي تلك المعركة فني معظم الجيش الإباضي وقُتل فيها كثير من العلماء حتى سماها الباروني : « المصيبة الكبرى التي تضعضع بها ركن الإمامة بتيهرت »[2] .

وبعد هذا النصر تابع إبراهيم سيره إلى طرابلس فتخلّص من ابن عمّه حاكمها ، واستمر يسير إلى تاورغا وهناك قتل خمسة عشر رجلاً ثم عاد إلى تونس[3] ، أمّا الإباضية فإنّهم بعد ما لحقهم في المعركة من خسائر في الأرواح عمدوا إلى واليهم أفلح فحمّلوه المسؤولية ، وقرّروا عزله ، وولّوا عليهم ابن عمّ له ، فلم يمهلهم إبراهيم كي تلتئم جراحهم ، بل أرسل إليهم في العام التالي (٢٨٤) جيشاً بقيادة ابنه أبي العباس فاجتاح بلادهم يقتل ويأسر ، وكان عدد من عاد بهم من الأسرى ثلاثمائة رجل ، قتلهم إبراهيم جميعاً[4] .

٧ ــ أحمد بن عبد الله بن الأغلب أخو زيادة الله آخر الأغالبة (٢٩٠ ــ ٢٩٦) وليها لأخيه زيادة الله ؛ وإذا كان هو آخر الولاة حقّاً على طرابلس فإنّه يتحمّل جانباً من المسؤولية في زوال دولة بني الأغلب ، وذلك أن المهدي

---

١ الأزهار الرياضية : ٢٨١ .
٢ المصدر السابق : ٢٨٠ .
٣ ابن عذاري ١ : ١٧٣ ــ ١٧٤ .
٤ ابن عذاري ١ : ١٧٤ .

ووالده وصلا إلى تلك المدينة عام ٢٩٦ ، مع قافلة من التجار ، وعلم زيادة الله بذلك ، وكان المهدي قد وجه أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي لتفقد الأحوال واستطلاع الأمور بالقيروان ، فقبض عليه زيادة الله فأنكر أبو العباس أن تكون له صلة بالمهدي وادعى أنّه تاجر وحسب . وفي أثناء ذلك كان المهديّ قد اجتمع بعامل طرابلس وتألفه بالهدايا ، فلمّا سمع بالقبض على أبي العباس ، غادر طرابلس ذاهباً إلى قسطيلة ، وكتب زيادة الله يسأله القبض على عبيد الله المهدي ، فكان ردّه أنّه قد سار عن البلد فلم يدركه[1] ، ولم يبدِ الوالي شيئاً من الاهتمام الإيجابي نحو هذا الأمر تفريطاً منه أو لعدم نفاذ في نظره .

---

١ ابن الأثير ٨ : ٢٩ .

ليبيا أيام بني عبيد

حتى رحيل المعزّ إلى مصر

٢٩٦ – ٣٦١

لم يأنس زيادة الله بن عبد الله الأغلبي – آخر الأغالبة – من نفسه القدرة على الصمود في وجه الجيوش العبيدية الزاحفة من المغرب ، فهرب من رقّادة – عاصمة ولايته – متوجهاً إلى مصر ؛ وفي طريقه حلّ بمدينة طرابلس[1] ؛ وكان عبد الله بن الصائغ المعروف بصاحب البريد يتولى أموره جميعاً ، فلما رأى دولته مدبرة تنكر له. ثم إن ابن الصائغ نفسه ركب البحر يريد المشرق ، فاضطرته الريح إلى النزول في ميناء طرابلس ، وشهدت المدينة التقاء الغريمين ، وكان عتاب انتهى بقتل ابن الصائغ سنة ٢٩٦[2] واستمر بعده زيادة الله هارباً حتى بلغ مصر .

وكانت الدولة الطولونية بمصر قد انقرضت منذ سنة ٢٩٢ بعد أن كان المعتضد قد كتب لخمارويه سنة ٢٨٠ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة[3] ، ولكن الأيام لم تمهلهم للتمتع بهذا الحق ، وعاد الخليفة العباسي يبعث بالولاة إلى برقة فوليها أبو منصور تكين من قِبَل المقتدر سنة ٢٩٧ ؛ وكان الخطر العبيدي من المغرب قد بدت نُذُره ، فأرسل تكين جيشاً إلى برقة بقيادة أحمد بن صالح أبي النمر – وهو أحد الأبناء[4] – فدخلها أبو النمر

---

١ ابن عذاري ١ : ٢٠١ .

٢ الحلة السيراء ١ : ١٨٩ وابن عذاري ١ : ٢٠٢ .

٣ الكندي : ٢٤٠ .

٤ الأبناء : هم نسل الجند الذين قاموا بالدعوة العباسية مع أبي مسلم الخراساني .

واشتد فيها سلطانه وفرض على من بها من البربر وغيرهم فروضاً ، واستمر في مسيره حتى بلغ سرت فأرسل إليه المهديّ العبيدي جيشاً بقيادة رجل كتامي اسمه حباسة بن يوسف ، فتواقف الجيشان دون أن يحرز أي منهما انتصاراً ؛ ولكن تكين رأى أن يستدعي أبا النمر ويولّي على برقة خيراً المنصوري، فلمّا علم أبو النمر بذلك تراجع إلى برقة وحباسة في أثره ، فدخل سرت بالأمان وهرب منها من كان فيها من جند بني العباس ، ثم دخل أجدابية بالأمان أيضاً[1] . ثم انصرف أبو النمر إلى مصر ، فدخل حباسة برقة ؛ وجاء خير المنصوري ومعه عبد العزيز بن كليب الجرشي ، فتشاجرا كل واحد منهما يريد الولاية لنفسه ، فكان ذلك سبب ضعفهما أمام حباسة فانتصر عليهما وردّهما إلى مصر مهزومين[2] .

وكان حباسة عسوفاً كلما دخل بلداً قتل أهله واستصفى أموالهم ، فلما حلّ ببرقة أتى فيها كثيراً من أنواع الفظائع . يقول ابن عذاري : «حتى لقد أخذ ببرقة جماعة كانوا يلعبون بالحمام ، فأضرم لهم ناراً وأجلسهم حواليها ، وأمر بأن تقطع لحومهم وتشوى ثم يطعموها ، وقذفهم بعد ذلك في النار ، وقال : إن هذه الحمام كانت تأتيهم بالأخبار من قِبَل بني العباس »[3] . وغرّم أهل برقة مائة ألف مثقال ، وقتل ناساً وباع نساءهم ، واستصفى أموالهم ، فكتب أهل برقة إلى عبيد الله الشيعي يشكون إليه ما ارتكبه حباسة من الفظائع ، فجاوبهم معتذراً ، وأمر حباسة بالرحيل عنهم ، فسار إلى مصر في جيش كثيف ودخل الإسكندرية في الثامن من المحرم سنة ٣٠٢[4] .

---

١ ابن عذاري ١ : ٢٣٥ .
٢ الكندي : ٢٦٨ .
٣ ابن عذاري ١ : ٢٣٥ .
٤ الكندي : ٢٦٩ وابن عذاري ١ : ٢٣٦-٢٣٧ ؛ يبدو أن أعمال حباسة في برقة كانت =

كان جعل ليبيا منطقة موالية للدعوة العبيدية أمراً حيوياً في المخطط الكبير الذي يهدف العبيديون فيه إلى الاستيلاء على مصر ، وكان تسليم سرت وأجدابية بالأمان يمثل مفارقة واضحة لما تمّ في برقة التي منيت بضروب من العسف والتنكيل ، وما ذلك إلا لأن برقة كانت مركز الجند العباسي وأبناؤها من أبناء ذلك الجند . غير أن العنف الذي مارسه حباسة لا يدل على ميل إلى تألف واصطناع ، وهو ما كانت الدعوة بحاجة إليه في طريقها إلى مصر ؛ فبرقة إذن تمثل المقاومة الآنية ضد سيادة غير السيادة العباسية ، ولكن ليبيا ستمثل بعد قليل مقاومة يحتل فيها الحرص على العقيدة المقام الأول ، كما يحتل المقامَ الثاني أنفةُ القبائل البربرية — لمتونة وهوارة وزناتة — من سيادة جديدة تمثلها كتامة .

ولذلك لا نستطيع أن نحكم على مدى نجاح الدعوة العبيدية في ليبيا من الناحية العقائدية : صحيح أننا نقرأ عن أمثال محمد بن سلام بن سيار البرقي المتفقه على مذهب العبيديين[1] وعن خليل بن إسحاق المثقف الذي انحاز للدعوة العبيدية ضد أهل بلده — طرابلس — ولكن أخبار المقاومة من جهة وقلة الأشخاص الذين عطفوا على الدعوة العبيدية تؤكدان لنا أن الإخضاع السياسي هو الشيء الوحيد الذي فاز به العبيديون في ليبيا . ولعل الدعوة في طرابلس كانت أقوى تنظيماً لأن القائمين بها ، من أمثال أبي العباس المخطوم أخي أبي عبد الله الشيعي وأبي جعفر الخزري[2]، كانوا من أكابر الدعاة ، ولكن طرابلس

= انتقاماً من أهلها لإحباطهم ثورة قامت حوالي سنة ٣٠٠ نرجح أنها إسماعيلية الاتجاه ، وقد قتل من شارك فيها خلق كثير ، وأرسل والي برقة إلى بغداد بهذا النصر فوصل الخبر سنة ٣٠٢ (انظر الطبري ٣ : ٢٢٨٨ وابن الأثير ٨ : ٥٦) .

١ ابن عذاري ١ : ٢٦٤ .

٢ ابن عذاري ١ : ٢٠٦ .

نفسها لم تكن أقلّ مقاومة للعبيديين من سواها . ولم تكن المراكز الإباضية أقلّ ضيقاً من أهل السنّة بالدعوة الجديدة .

وكان عبيد الله الشيعي قد ولّى على طرابلس ماقنون (ماكنون) بن دبارة الأجابي منذ عام ٢٩٨[١] فقامت هوارة بالثورة عليه برياسة أبي هارون الهوّاري . وزحف أيضاً جماعة من زناتة ولماية وغيرهم من القبائل إلى مدينة طرابلس محاصرين لأهلها ، فأرسل إليهم عبيد الله الشيعي جيشاً بقيادة أبي زاكي تمام ابن معارك الأجابي فهزمهم وفرق جموعهم وقتل كثيراً منهم[٢] ، ولكنّه لم يتمتع بانتصاره طويلاً إذ كتب الشيعي إلى ماقنون والي طرابلس يأمره بقتل أبي زاكي ، فأحضره ماقنون — وكان عمه — وأطلعه على ما أمر به عبيد الله فقال له : يا عمّ نفذ ما أُمرت به ؛ فضرب عنقه (٢٩٨)[٣] .

واستاء أهل طرابلس من سياسة ماقنون فيهم إذ أتاح لكتامة التسلط على الناس والتطاول إلى الحرم ، فثار أهل طرابلس (٢٩٩ — ٣٠٠) وفتكوا برجال كتامة ، وهرب ماقنون ، وأغلق الطرابلسيون مدينتهم ، وولوا عليهم محمد ابن إسحاق المعروف بابن القرلين .[٤]

فأرسل الشيعي ابنه أبا القاسم على رأس جيش لمحاربة طرابلس ، يواكبه في البحر خمسة عشر مركباً حربيّاً ، قضت على أسطول طرابلس ، ومضى الجيش البريّ نحو المدينة ، فأوقع في طريقه بهوّارة ثم ضرب الحصار حول

---

١ ابن خلدون ٤ : ٣٦ .

٢ ابن عذاري ١ : ٢٢٥ — ٢٢٦ .

٣ ابن عذاري : ٢٢٧ وابن الأثير ٨ : ٣٩ والسبب في قتله أنه شارك سنة ٢٩٨ في مؤامرة ضد المهدي مع أبي عبد الله الشيعي ، وكانت المؤامرة تحاك في بيت أبي زاكي وكذلك قتل أبو عبد الله الشيعي .

٤ ابن عذاري ١ : ٢٣٢ — ٢٣٣ ويزيد ابن الأثير أنه أخذ وجوه البلد رهائن عنده (٨ : ٥٠) .

طرابلس حتى ساءت حال المحاصَرين وأكلوا الميتة ، فطلبوا الأمان من القائد ، فأمّنهم سوى ثلاثة نفر ، وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار (أو أربعمائة ألف في قول التجاني) ثم دخل المدينة وتحكم فيها وقتل من كان فيها من بني الأغلب وقوّادهم[1] .

وكان أبو العباس خليل بن إسحاق بن ورد هو المتولي لتعذيب أهل طرابلس واستخراج الأموال المطلوبة منهم ، وخليل هذا من أبناء جند طرابلس وقد وُلد بها ، وكان في أول أمره يطلب العلم ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد ثم تحوّلت به الحال إلى الانضواء في ظل العبيديين[2] .

وقد بقي أبو القاسم جانباً من عام ٣٠٠ في طرابلس وبذلك حال دون وقوعها في يد أحمد بن قرهب والي صقلية الثائر على العبيديين[3]، وبعد أن استخلف أبو القاسم على طرابلس والياً من قبله غادرها لاحقاً بحباسة في الإسكندرية فوصل برقة في ذي الحجة سنة ٣٠١ ثم سار إلى مصر فملك الإسكندرية والفيوم فلحق به خليل بن إسحاق أيضاً فولاه أبو القاسم جباية الأموال[4] .

وعند عودة أبي القاسم من مصر (٣٠٢) دخل برقة واعتذر لأهلها عمّا كان فعله حباسة فيهم وأمر بترميم ما تثلم من مدينتهم وخلّف فيهم حامية من كتامة ، وما كاد يبارح مدينتهم حتى قاموا على الكتاميين وذبحوهم[5]، فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصي فاستولى على

---

١ ابن خلدون ٤ : ٣٨ وابن عذاري ١ : ٢٣٤ ورحلة التجاني : ٢٤١ .

٢ رحلة التجاني : ٢٤١ والحلة السيراء ٢ : ٣٠٢ .

٣ ابن الأثير ٨ : ٥٣ .

٤ انظر رحلة التجاني والحلة السيراء .

٥ ابن عذاري ١ : ٢٤٠ .

برقة سنة ٣٠٤ بعد حصار دام ثمانية عشر شهراً ، وأحرق قوماً منهم بالنار واستصفى أموالهم وأرسل جماعة منهم إلى عبيد الله الشيعي فأمر بقتلهم ؛ وظلّ أبو مدين في برقة حتى سنة ٣٠٦ حيث توفي[1] ؛ ولما احتل عبيد الله عاصمته الجديدة التي سمّاها المهدية عام ٣٠٨ كان قد ملك إفريقية وأعمال المغرب وطرابلس وبرقة وصقلية[2] . إلا أن برقة لقيت على يد العبيديين أشدّ أنواع النكال مرتين قبل أن تصبح ولاية خاضعة لهم .

كل هذه الأحداث تشير — في الأكثر — إلى مدى المقاومة السنيّة للحكم العبيدي الجديد ، ولم يطل الوقت حتى جاء دور الجماعات الإباضية للتعبير عن عدم رضاها بذلك الحكم . وكان إلياس بن منصور إمام الإباضية قد توفي وخلفه في الإمامة ابنه أبو عبد الله : « فلمّ الشعث وكشف اللبس ورتق الفتوق ورقع الخروق » ثم خلفه حفيده أبو زكريا التندميرتي وكان عالماً مقدماً في قومه ، ثم أبو زكريا يحيى الأرجاني — نسبة إلى أرجان إحدى قرى الجبل —

ويحدثنا ابن عذاري أن نفوسة ثارت على عبيد الله الشيعي عام ٣١٠ بقيادة شخص يكنى أبا بطة ، فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً يقوده أحد الدعاة ، فهاجموه ليلاً عندما اقترب منهم ، وقتلوا كثيراً من جيشه ، ولجأ هو وبعض الفلّ إلى طرابلس ، وكتب إلى عبيد الله ينبئه بما حدث ، فأمده بجيوش جديدة استطاعت أن تقتحم حصن نفوسة (أي مدينة جادو) فهدمه الداعي عليّ بن سليمان وقتل الرجال وسبى الذرية[3] .

لكن المصادر الإباضية التي لا تحدثنا بشيء عن أبي بطة هذا — بهذه الكنية —

---

١ ابن عذاري ١ : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ .
٢ الحلة السيراء ١ : ١٩٢ .
٣ ابن عذاري ١ : ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

توضح ما في رواية ابن عذاري من إيجاز وتقول إن جيوش الشيعة هاجمت قرية يقال لها الجزيرة فقابلها أبو يحيى الأرجاني وهزمها ، ثم كانت لها محاولة ثانية في الهجوم على قرية تيركت وكانت عندها هزيمة الجيش الشيعي ثانية إلا أن الإمام أبا يحيى قُتل في تلك الموقعة فولّى الإباضيون عليهم أبا عبد الله ابن أبي عمرو حفيد إلياس ثم عزلوه بعد قليل وولوا أبا زكريا بن أبي يحيى الأرجاني ؛ ولكن جيوش الشيعة استطاعت كما ذكر ابن عذاري أن تنتصر ضد جادو وتخرب الحصن وتُعمل يد السبي في النساء والأطفال . وتُعد حركة نفوسة هذه مغامرة باسلة إذا نحن تذكرنا أن السند الذي كانت تفيء إلى عونه كان قد ذهب بانقراض الدولة الرستمية في تاهرت (٢٩٦ هـ) .

وبالقضاء على مقاومة نفوسة تمهدت أكثر أجزاء ليبيا للعبيديين ، ولهذا نرى أن أحد جيوشهم يحاول إزالة كل عقبة في الطريق إلى مصر فيهاجم بقيادة مسرور بن سليمان منطقة الواحات ويخرب حصنين هنالك وينصرف إلى برقة [١] ؛ على أن العبيديين — فيما أعتقد — ما كانوا يطمعون من جبل نفوسة في سوى الإخلاد إلى الصمت ، ولذلك لم يحاولوا إحكام السيطرة عليه ، وعاد الإباضيون يمارسون حياة مستقلة دون اعتراف بالحكم الجديد ، وكان يكفي العبيديين تأمين خضوع المناطق الساحلية التي تمثل العصب الحيويّ بين إفريقية ومصر

أما سائر مناطق ليبيا بعد ثورة نفوسة وإخفاق مقاومة برقة ، فقد سئمت أو عجزت عن الانتفاض في وجه الدعوة الشيعية [٢] حتّى إن أهل طرابلس لم

---

١ ابن عذاري : ٢٦٥ .

٢ يقول ابن عذاري « إن أبا القاسم الشيعي زحف سنة ٣١٦ إلى قبائل البربر بالمغرب فنزل برقة على حصنها المعروف بأغزر . . . ثم توجه إلى تاهرت (ص : ٢٧٢) وحصن أغزر ليس في برقة وإنما هو مدينة في الطريق إلى جزائر بني مزغنا ، ولذا فإن لفظة « برقة » هنا مصحفة .

يقبلوا إيواء ابن طالوت القرشي[1] حين ثار على أبي القاسم الشيعي (حوالي ٣٢١ هـ) بل قاتلوه وصدوه عن بلدهم، ولم يلتفّ حوله البربر إلا حين أوهمهم أنّه ابن عبيد الله الشيعي، فلمّا تبيّنوا حقيقة أمره قتلوه وأرسلوا رأسه إلى أبي القاسم[2]. ولقد سنحت الفرصة الكبرى لإفريقية وليبيا كي تتخلص من حكم العبيديين في الثورة الشاملة التي أعلنها بإفريقية أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار (٣١٦ – ٣٣٦) وهي ثورة كادت تقضي على الدولة العبيدية، ولكن مشاعر الناس في ليبيا لم تكن مع الثورة لأسباب منها: أن ثورة أبي يزيد كانت نكارية فلم تجذب إليها من أهل السنّة إلا أهل القيروان، ومنها أن أبا يزيد نفسه قد كان شديد الوطأة على المدن التي يستولي عليها من يد العبيديين؛ وكانت أخبارها تصل طرابلس مع الهاربين منها وخاصة عند احتلاله المهدية.

ولهذا لا تحدثنا المصادر عن انتقاضات جديدة في ليبيا أيام المنصور العبيدي (٣٣٤ – ٣٤١) وأيام المعز قبل رحيله إلى مصر (٣٤١ – ٣٦١) فقد غلب الهدوء على أرجاء ليبيا واستكانت لولاة بني عبيد:

فكان زيان الصقلي والي طرابلس للمعز سنة ٣٤٥[3] ثم خلفه فيها نصير الخازن[4].

وكان باسيل الصقلي على سرت سنة ٣٤٢.

وابن كافي الكتامي على أجدابية.

وأفلح الناشب الكتامي على برقة[5].

---

١ انظر نسبه في جمهرة ابن حزم: ١٧٩ – ١٨٠.

٢ ابن عذاري: ٢٩٦ وابن خلدون ٤: ٤٠ وابن الأثير ٨: ٢١٢.

٣ رحلة التجاني: ٢٤٠.

٤ سيرة جوذر: ١١٩.

٥ المؤنس: ٦١ وسيرة جوذر: ٩٥.

فلمّا فتح جوهر الصقلي مصر وأزمع المعز الرحلة إليها كان يتنقل في مناطق لا تظاهره العداوة . قال ابن أبي دينار : « ورحل المعزّ من قابس يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول من السنة المذكورة (أي ٣٦١) ودخل طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من الشهر ورحل عنها يوم السبت لثلاث عشرة بقين من ربيع الثاني فوصل إلى سرت في الرابع من جمادى الأولى ثم رحل عنها ونزل بقصره الذي بني له بأجدابية ، ورحل من أجدابية فنزل بقصره المعروف بالمعزّيّة في برقة »[1] .

وكان المعز قد أعد العدة لهذه الرحلة منذ سنة ٣٥٥ إذ أمر في ذلك العام بأن تحفر الآبار في طريق مصر لتزويد جيش جوهر بالماء ، وأن يبنى له في كل موضع قصر يصلح لنزوله[2] .

وقد اختار المعز أن يكون مروره بأجدابية اختصاراً للمسافة ، فإن سيره على محاذاة الساحل يجعل الطريق طويلة ، وفي أجدابية صنع صهاريج لجمع ماء المطر فيها[3] . وكان في موكبه الحافل آلاف من الناس قد حُشدوا واحتشدوا للسير في ركابه ، ويبدو أن بعض الإباضية قد رافقوا هذا الموكب مكرهين فاغتنموا أول فرصة سنحت لهم وهربوا إلى جبل نفوسة[4] . وكان مع المعزّ أيضاً عدد كبير من الأنصار والأتباع من كتامة وغيرها ومن أبرزهم جوذر الفتى الذي يبدو أنّه مرض قبل بلوغ أجدابية فتأخر عن موكب المعزّ ، فلمّا وصلها

---

١ المؤنس : ٦٣ .

٢ ابن خلدون ٤ ، ٤٨ والمؤنس : ٦٢ .

٣ بسط الأرض : ٦٢ .

٤ لعل هؤلاء لم يكونوا إباضية . فابن الأثير (٨ : ٤٥٧) وابن خلدون (٤ : ٢٤٩) لا يوضحان أمرهم وإنما يقولان وهرب بعضهم – أي بعض عساكره – إلى جبل نفوسة فامتنعوا به .

استقبله المعز بنفسه ، وهو في عمارية بأحسن زي ، فلما بلغ جوذر طلميثة ، وكان المعز قد نزل قصر المعزّيّة ببرقة ، اشتد المرض على جوذر وازداد ضعفاً ، فأحب أن يكون وصوله إلى برقة في مزيد من السلاح والعدة ولذلك قال لمرافقه : « نحن ندخل برقة وهي بلد كبير ، وبه بعض أهل المشرق ، واسمنا من الدولة الطاهرة كبير بإعزاز مولانا عليه السلام لنا ، والواجب أن نجمل عسكرنا بالعدة والسلاح الشاكي والزيّ الحسن حتى يكون دخولنا تامّاً بهيّاً »[1] ، وقد استجاب المعز لرغبة جوذر — وكان أثيراً عنده — فكتب إلى نصير الخازن والي طرابلس بأن يبعث الجمال وصدراً كثيراً من السلاح وطلب إلى جوذر أن يبقى في عماريته إذا هو أشرف على قصر المعزّيّة لأن المرض به شديد . ولكن مرضه تزايد فلم يستطع بلوغ القصر خارج برقة ، وإنّما أنزلوه داراً في برقة نفسها أُخليت له ، وأرسل إليه المعز بعض تفاح وصله من مصر ؛ غير أنّه توفي « فحُمل في الليل من مدينة برقة إلى القصر الذي كان به مولانا عليه السلام بموضع يُعرف بمياسر . . . ودُفن بالموضع في مسجد بهذا القصر المذكور »[2] .

والظاهر أن المعزّ كان يجد في نصير رجلاً ناصحاً ويرى أن وجوده إلى جانبه أهم من بقائه في طرابلس ، وقد عبّر عن هذا بقوله : « ووالله إن الذي عدمنا في خدمة نصير بين أيدينا وما كان ينظر فيه لما كان بحضرتنا — سيّما بعد غياب جوهر سلمه الله ونصره — ليفي ما ضاع في جمعه بما توفر من مال طرابلس في سنة »[3] .

---

1 سيرة جوذر : ١٤٤ .

2 سيرة جوذر : ١٤٧ .

3 سيرة جوذر : ١١٩ .

وهذا قد يسوّغ القول بأن المعزّ استدعى نصيراً لمرافقته من بعد ، وخلّف على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي[1] ، ولم يجعل لبلكين بن زيري المخلف على إفريقية سلطاناً على ولاية ابن يخلف التي كانت تشمل طرابلس وسرت وأجدابية .

---

١ ابن خلدون ٧ : ٤١ وابن الأثير ٨ : ٤٥٦ ، ولنا أن نقدر أن لقب « الخازن » كان يعني أن نصيراً هو صاحب الخراج وأنه لم يكن والياً على طرابلس ، وإنما كان واليها منذ البدء هو « عبد الله بن يخلف الكتامي » .

عمران ليبيا منذ الفتح

حتى انتقال العبيديين إلى مصر

٢١ هـ - ٣٦١ هـ

الهجرة والاستيطان

لا بد من أن نقدم صورة تفصيلية بعض الشيء لانتشار السكان الأصليين في ليبيا قبل الفتح وبعده ، ولعلّ هذه الصورة لم تتغير كثيراً حتّى أواخر القرن الثالث الهجري[1] :

كانت منازل لواتة تمتد من الرمادة حتّى أجدابية ، وفي الرمادة نفسها قوم من مزاتة وبعض العجم ، وفي برنيق طوائف من تحلالة وسوة ومسوسة ومغاغة وواهلة وجدانة ، وبمدينة أجدابية نفسها قوم من زنارة وواهلة ومسوسة وسوة وتحلالة ، وكل هذه القبائل من بطون لواتة نفسها . وكان أكثر لواتة بمنطقة برقة ظواعن متنقلين[2] ، وتظل منازل مزاتة مستمرة على الساحل حتّى تورغة (تاورغا) ومن هذا الموضع تبدأ ديار هوّارة وتشمل ورداسة ولبدة ، ومن هوّارة بطون كثيرة منها بنو اللهان ومليلة وورسطفة ، وتمتد منازل هوارة من آخر عمل سرت حتّى طرابلس ، أمّا طرابلس نفسها فإن أهلها

---

١ اعتمدت في تكوين هذه الصورة على كتاب البلدان لليعقوبي وحيث أجيء بشاهد من غيره أشير إليه في الحواشي .

٢ ابن خلدون ٦ : ١١٧ نقلا عن المسعودي (٣٣٧ هـ .) .

أخلاط من قبائل شتّى . يقول ابن خلدون : «وكانت مواطن الجمهور من هوارة هؤلاء ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس والصمغر لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري ، وكانوا ظواعن وآهلين »[1] ، وفي هوّارة فريق في الداخل يسكن الجبل المعروف بجبل مسلاتة يحلّ فيه هؤلاء إلى بلد مسراتة وبرقة[2] .

وعند غربي طرابلس تبدأ منازل نفوسة وهم قبائل كثيرة وبطون شتّى مثل بني زمور وبني مكسور وماطومة[3] ، ويشغلون الجبل المعروف باسمهم ، وتستمر مواطنهم حتّى تقرب من القيروان . وأكثر سكان ودّان من مزاتة ، أما فزان فأهلها أجناس مختلفون .

وأما المستوطنون من العجم فكانوا يسكنون الرمادة ، وكان فريق من أهل برنيق من الروم القدماء ، ومن هذا يظهر لنا بوضوح أن العنصر البربري كان غالباً وأن الروم كانوا طارئين رحل بعضهم عن ليبيا إثر الفتح العربي .

وقد جاء الفتح والهجرات التالية بمستوطنين من العرب وغيرهم فغلب على مدينة برقة وأرباضها سكنى الجند ، كما استوطنتها أعداد كبيرة من قبيلة قرّة العربية — ولعلّ ذلك تمّ في أوائل القرن الرابع — وسكن مهاجرون من القبائل اليمنية من الأزد ولخم وجذام والصدف وغيرهم من قبائل اليمن جبل برقة الشرقي ، أمّا جبلها الغربي فاستوطنته أقوام من غسان والأزد وتجيب وجاوروا فيه بطوناً من لواتة . ونزلت قبائل عربية أخرى من بني مدلج وبلي وجهينة فجاورت مزاتة في جهات الرمادة ، ونزل جماعة من فرسان العرب

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤١ .

٢ ابن خلدون ٦ : ١٤٣ .

٣ ابن خلدون ٦ : ١١٤ .

حصن لبدة[1] . كما نزل ودّان قسمان من العرب سهميون وحضرميون[2] .

وليست لدينا أيّة فكرة عن نسبية عددية لهؤلاء العرب ، ولكن يبدو أنهم حتّى منتصف القرن الرابع لم يستطيعوا أن يصهروا العناصر الأصلية ، أما حركة التعريب التي تمت فكانت تمثل سيادة اللغة والدين لا قوة العنصر العربي .

الإسلام والتعريب

لم تكن المسيحية قوية الانتشار أو عميقة الجذور بين سكان ليبيا قبيل الإسلام، وربما اقتصر وجودها على أجزاء من منطقة صبراتة وطرابلس ، فقد ظلّ حولها أقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية حتّى زمان البكري [3]. ويذكر البكري أن أكثر أهل أجدابية أقباط وكذلك بعض جهات الواحات[4]، كذلك وجدت المسيحية في بعض منطقة أنطابلس ، ومن الغريب أن تذكر المصادر العربية أن المسيحية كانت موجودة في قبائل نفوسة .

غير أن العمليات الأولى من الفتح شهدت تحوّلاً سريعاً إلى الإسلام بين السكان الأصليين حتّى كتب عمرو إلى عمر (رضي الله عنه) يذكر أن من أسلموا بين برقة وزويلة قد أدّوا الصدقة[5] ؛ وربّما كانت الأحداث التي

---

١ البكري : ٩ .
٢ البكري : ١١ .
٣ البكري : ٧ .
٤ المصدر السابق : ٥ ، ١٥ .
٥ فتوح البلدان : ٢٦٥ .

قامت بها الكاهنة وأدت إلى تقهقر الفاتحين من أرض إفريقية قد أخّرت إسلام بعض السكان في ليبيا، ولكن أعمال حسّان بن النعمان الإصلاحية قد كفلت مزيداً من الانتشار للإسلام ، وكان الفضل في تحويل أكثر السكان إلى الدين الإسلامي يعزى إلى محاولتين :

١ — دعوة عمر بن عبد العزيز وإرساله بعثة العشرة وجهود الوالي إسماعيل بن أبي المهاجر .

٢ — انتشار دعاة الخوارج في المناطق الداخلية من ليبيا [١] .

وواكب الإسلام حركة تعريب سريعة ساعدت هجرة القبائل العربية عليها كما قوّاها شعور البربر بحاجة إلى لغة مشتركة يتفاهمون بها تخلصاً من تعدد اللهجات . ولعلّ في تمييز اليعقوبي لأهل نفوسة بأنهم عجم الألسن ما يشير إلى أن سائر مناطق ليبيا حتّى أواخر القرن الثالث كانت قد تعربت تعرّباً كاملاً أو شبه كامل من حيث اللغة . كذلك ظلّ أهل سرت — حتّى زمان البكري — يستعملون رطانة ليست بعربية ولا عجمية ولا بربرية ولا قبطية ولا يحسنها غيرهم [٢] .

ولم تكن مظاهر هذا التعريب لتقتصر على اللغة وحدها من حيث إنها لغة الدين الحنيف ، بل إن كثيراً من القبائل البربرية راجعت أنسابها ووصلتها بأصول عربية قديمة ، فذهبت لواتة إلى أنها تنحدر من قبائل لخم أو من قيس عيلان ، وادعى أهل ودان أنهم عرب من يمن ، وانتسبت هوارة كذلك إلى يمن ، وهذا قد يعبر عن إحساس — له بواعثه — بأثر موجة التعريب .

---

١ انظر ما سبق ص : ٣٦ .

٢ البكري : ٧ .

أمّا من حيث المعتقد فإن مزاتة كلها أصبحت إباضية المذهب وكذلك جميع أهل زويلة، هذا بينما لم تتحوّل منطقة فزان إلى المذهب الخارجي وظلت على حَرب دائمة مع قبائل مزاتة ؛ وكان سكان جبل نفوسة كلهم إباضية ، كما كانت هوّارة حول طرابلس ، وتمسك أكثر سكان السواحل بالمذهب المالكي .

وكانت هذه القسمة المذهبية ذات أثر في تاريخ ليبيا السياسي والعمراني . أمّا من حيث السياسة فقد رأينا أن حركات المقاومة كانت تمثل في الغالب المناطق ذات المذهب الإباضي ، وأمّا من الناحية العمرانية فإن الدولة صرفت اهتمامها إلى المناطق الساحلية دون أن تهتم كثيراً بأحوال السكان في المناطق الداخلية . حقّاً إن لهذا الاهتمام أسبابه الأخرى الحربية والاقتصادية ولكن كان أيضاً متأثّراً بالموقف العقائدي .

العمران الحضاري والاقتصادي

إن عناية الدولة بالمنطقة الساحلية جعلتها تهتم بها من ناحية المرافق الدفاعية والعامة . فكان وادي مخيل حصناً حصيناً فيه برك الماء والأسواق الناشطة ، وكان لبرقة سور منيع ذو أبواب من حديد أمر ببنائه المتوكل على الله ، وزودت برقة ببرك واسعة تنصبّ فيها مياه الأمطار جارية من الجبال ، واتُّخذ لمدينة أجدابية حصن يحميها كما كانت لبدة نفسها حصناً كالمدينة ، وأما طرابلس فقد جدّد عبد الرحمن بن حبيب بناء سورها من البر وأكمله هرثمة بن أعين من جهة البحر على يد ثقته زكريا بن قادم ، ثم زاد أبو الفتح زيان الصقلي

في إتقانه ورفع بناءه من الجهتين معاً[1]،ومنذ أيام بني الأغلب أصبحت الحصون متصلة على طول شاطىء ليبيا ، فإذا ظهر في البحر عدو نوّر كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير ، فيُنهى خبر العدوّ من طرابلس إلى الإسكندرية أو العكس في ثلاث ساعات أو أربع من الليل[2] .

ولم يقتصر الاهتمام العمراني على الناحية الدفاعية بل شمل مرافق أخرى ، جعلت البلاد في الفترة التي درسنا تاريخها السياسي بلاداً مزدهرة في النواحي الزراعية والصناعية والتجارية . وحظ الموانىء الساحلية في هذا الازدهار كبير لأنها تتلقى أنواع التجارات البحرية وإليها تنقل محصولات البلاد من الداخل ، وهي خط العبور بين إفريقية والإسكندرية . ومن المفيد أن نتتبّع هذا الخط الساحلي لنرسم له وضعه الاقتصادي في الفترة موضوع البحث .

فأمّا برقة فإن الكرخي وابن حوقل (قبل منتصف القرن الرابع) يصفانها بأنّها مدينة وسط ليست بالكبيرة . وينفرد ابن حوقل بحديث لافت عن عمرانها التجاري فيقول : « ووجوه أموالها جمة . . . وبها من التجار وكثْرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع ، طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقين ، وذلك أنّها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو ، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر ، والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة ، ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت، وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب »[3].

وكانت أجية ذات أسواق ومحارس وأجنة ومزارع وثمار كثيرة ؛ أمّا

---

١ رحلة التجاني : ٢٣٩ — ٢٤٠ .
٢ المعجب : ٤٣١ ورحلة التجاني : ٢٢٠ .
٣ ابن حوقل : ٦٩ .

طلميثة فكان نشاطها في التجارة البحرية أقلّ من برقة أو حتّى من أجدابية إذ أن المراكب لم تكن ترسو فيها إلاّ في بعض الأوقات، ويتضاءل ميناء طلميثة بالنسبة إلى ميناء برنيق الذي يقول فيه اليعقوبي إنّه ميناء عجيب في الإتقان والجودة [1] . وكانت أجدابية ذات سوق قائمة وميناء صالح لرسوّ السفن وتمتاز بتجارة الأكسية وشقق الصوف، وهي تستقبل المتاجر الصادرة إلى بلاد السودان او الواردة إليها ، ولواليها ضريبة معينة على هذه المتاجر . وكانت سرت أيام ابن حوقل تعتمد في أكثر تجارتها على الإبل والغنم وعلى بعض الحاصلات الزراعية من الفواكه والأعناب ، وفيها توضع الضرائب على الصادرات والواردات فيزيد بذلك دخلها على دخل أجدابية .

وتتفوق طرابلس على سائر تلك البلدان في نشاطها التجاري ، يقول ابن حوقل : « إلى مراكب تحط ليلاً ونهاراً وترد بالتجارة على مرّ الأوقات والساعات صباحاً ومساء من بلد الروم وأرض المغرب ، بضروب الأمتعة والمطاعم [2] » وإلى جانب هذا النشاط البحري كان فيها نشاط تجاري بري كبير . وكانت تؤخذ فيها الضريبة على ما يباع من رقيق وحيوانات ، هذا عدا الخراج على الأرض إذ أن ناحيتها كثيرة الضياع والبوادي وهي عامرة بالفواكه الطيبة كالخوخ والكمثرى . وفي طرابلس نفسها صناعة الأقمشة من الصوف وطيقان الأكسية الزرق والكحل والسود والبيض . وفي ربضها (وهو ما يقع خارج المدينة المسوّرة) أنواع من الأسواق الكبيرة ، ويحدثنا ابن حوقل أن السلطان نقل بعض تلك الأسواق إلى داخل المدينة . وقد أثرت هذه الناحية التجارية في أخلاق أهل طرابلس فشهروا على مرّ الزمن باللطف في معاملة

---

١ البلدان : ٣٤٣ وفي الأصل : في الاتفاق والجودة ، ولعل الصواب ما أثبته .

٢ ابن حوقل : ٧٢ .

الغريب وإكرامه ، وبالتوفّر على خدمة المراكب التي تريد أن ترسو في الميناء إذا عاقها الجزر ، دون أجر مقابل .

وبالمقارنة يظهر لنا أن حالة المناطق الداخلية لم تكن على نفس هذه الدرجة من الازدهار والحيوية ، فأكثر ما تشتهر به التمور من ودان والرقيق من زويلة والأعناب الطيبة والتين من جبل نفوسة . وفي هذا الجبل كان الناس يكثرون من زراعة الشعير لأنّهم يتخذون خبزهم منه . ومن الغريب أن أحداً من الذين كتبوا عن ليبيا في هذه الفترة لم يذكر أشجار الزيتون ، نعم مرّ ذكر الزيت عند الحديث عن تجارة برقة ، كما نوّه اليعقوبي بالتفاوت في الأعشار بين قرية وقرية بسبب قلة « الزيتون والشجر » [1] ، وهذا كل ما هنالك ، ومنه يمكن أن نقول استنتاجاً إن أشجار الزيتون كانت متوفّرة في بعض النواحي .

الإدارة

قد أشرنا من قبل إلى أن إنشاء الفسطاط والقيروان واتخاذ كلّ منهما مركزاً إدارياً هو العامل الذي حدّد طبيعة الإدارة في ليبيا بل كان ذا أثر في مستقبلها السياسي والثقافي في آن معاً؛ فقد كان من حق والي الفسطاط أن يعين من قِبَله والياً على إفريقية يتخذ القيروان مركزاً له ، وكثيراً ما كان الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية هم الذين يعينون والي إفريقية دون الاستئناس إلى رأي والي مصر . والغالب أن يعدّ والي إفريقية نفسه مسؤولاً عن منطقة طرابلس فهو يعين عليها والياً من قِبَله ، وقد حاول حسّان بن النعمان — حين تولى إفريقية —

---

1 البلدان : ٣٤٥ .

أن يجعل برقة أيضاً مشمولة بنفوذه، ولكن عبد العزيز بن مروان وقف من ذلك وقفة صلبة وأخذ لنفسه حق تعيين واليها ، وهكذا انقسمت ليبيا إلى ولايتين كبيرتين في أغلب الأحوال هما ولاية برقة وولاية طرابلس ، وإذا كان هنالك من تردد في تبعية والي برقة إلى صاحب مصر في أي وقت ، فإنّه في زمن يزيد بن حاتم أصبح أمراً مفروغاً منه ، غير أن ذلك لم يدم طويلاً إذ عاد بعض الخلفاء يستأثرون بهذا الحق لأنفسهم فيعينون لبرقة ولاتها ، فلمّا أصبحت كل من مصر وإفريقية تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي في عهد الطولونيين والأغالبة وضحت قسمة ليبيا في ولايتين ووضحت التبعية في حال كل منهما دون تردد ، حتى كأنّهما ولايتان منفصلتان . وفي زمن المعز الفاطمي انتُزعت طرابلس ومنطقتها من يد صاحب إفريقية وأُسندت إلى وال مستقل ، ولكن هذا الإجراء لم يدم طويلاً فعادت ولاية طرابلس تُعدّ ممّا يشرف عليه والي إفريقية .

وكانت ولاية برقة تمتد من حدودها الشرقية حتى تاورغة إلى الجنوب من مصراتة ، وتضم المنطقة الساحلية وما فيها من مدن مثل أجية وطلميثة وبرنيق وأجدابية وسرت وتاورغة الواقعة على مرحلتين إلى الغرب من سرت ؛ وتشمل في الداخل ودّان وتاجرت وقسماً من منطقة الواحات وزويلة، ثم تكون ولاية طرابلس شاملة لما عدا ذلك من ليبيا الحديثة باستثناء فزان التي لا تتضمن المصادر أيَّ نصّ صريح بتبعيتها لولاية طرابلس ؛ وسياق الأحداث يدل على أن قابس دخلت في عمل إفريقية ولم تعد تابعة لطرابلس كما كانت في أيام البيزنطيين .

ثم حدثت تغيرات في هذه القسمة أيضاً : فنُزعت منطقة ودّان ومدينتها التي كانت تُعد من عمل سرت ، نُزعت من ولاية برقة وأصبحت ولاية مستقلة في القرن الثالث . وكذلك استقلت زويلة عام ٣٠٦ على يد بني خطاب وأصبحت منذ ذلك التاريخ تُعرف بزويلة بني خطاب ، وظلت كذلك حتى

أواخر القرن السادس . وبقيت فزان على استقلالها يتزعمها رئيس منها لا يدين بالولاء لعمال الدولة . وانفصل جبل نفوسة عن ولاية طرابلس وأعلن الإباضية فيه استقلالهم تحت زعامة أئمتهم ومن أبعدهم شهرة إلياس بن منصور . ثم ضُمت أوجلة إلى صاحب برقة قبيل عصر ابن حوقل فأصبح هو الذي يولي عليها الولاة ويضيف ما يتحصل منها إلى مال برقة ، ومنذ أن ضُمت إلى برقة غزر مالها وكثر . وهكذا نرى أن ليبيا الحالية كانت في بعض العهود تتكون من خمس وحدات – لا من وحدتين – هي : برقة – طرابلس – فزان – ودّان – جبل نفوسة .

وفي كل وحدةٍ مدن وقرى ذات عمال يولون من قبل الوالي نفسه ؛ وقد يستقل هذا العامل بجميع الأعباء في مدينته وقد يكون إلى جانبه موظف آخر هو « صاحب الصلاة » . وكثيراً ما كان صاحب الصلاة يقوم بأعباء أخرى مثل جمع الصدقات والجبايات والضرائب على القوافل المجتازة ، ومراجعة السجلات والمناشير المتصلة بالأمتعة المنقولة لئلا يحتال أصحابها فلا يؤدوا عنها الضريبة اللازمة ، إذا كان في بلد تجاري مثل سرت . فإذا كان في بلد زراعي تجاري معاً مثل أجدابية وكل إليه أمر الصدقات وخراج الزروع والعشور على الخضر والبساتين ، ودخل في مسؤوليته أيضاً مسائل الضرائب التي تستوفى على البضائع المنقولة من بلاد السودان وإليها[1] .

ويلي منصب الوالي في كلّ من برقة وطرابلس منصب القاضي ؛ وقد كان القضاة ببرقة يعينون من قبل صاحب مصر ، كما أن قضاة طرابلس كان يعينهم صاحب إفريقية . وقد أهملت المصادر ذكر كثير ممن تولى هذا المنصب في كل من البلدين ، حتى إننا لا نستطيع أن نضع جدولاً بأسماء

---

١ ابن حوقل : ٧٠ .

أولئك القضاة . ولكنّا نعلم أن أكثر قضاة برقة في العصر الأموي كانوا من الحضرميين وكان آخرهم خير بن سعيد بن خير[1] ، ومنهم أبو إسماعيل خير ابن نعيم الذي ولي القضاء بمصر سنة ١٢٠ أيام حنظلة بن صفوان وكان قبل ذلك يلي قضاء برقة[2] .

ومن قضاة طرابلس إبراهيم بن محمد الغافقي المتوفّى سنة ٢٥٣[3] ، وشرحبيل قاضيها في أيام سحنون ، وموسى بن عبد الرحمن القطان (العطار في بعض المصادر) الذي تولى قضاءها أيام إبراهيم بن أحمد من الأغالبة[4] (وتوفّي سنة ٣٠٦) .

وفي أوائل العهد الشيعي بطرابلس تولى قضاءها ووثائقها رجل اسمه عبد الله بن سلمان فسعى به خليل بن إسحاق فعُزل عنها سنة ٣٢٠ ه وولي أحمد بن بحر مكانه قاضياً على طرابلس وكان يتولى قبل ذلك مظالم القيروان وصلاتها[5] .

وبعد رحلة المعزّ إلى مصر أصبح المغرب كلّه راجعاً في القضاء إلى نظر قاضٍ أعلى مقرّه القاهرة ، أو على الأقل ذلك هو ما كان يُكتب في عهود القضاة ، فالعهد بتولية ابن حيون القضاء كان يشمل القاهرة ومصر والإسكندرية والشام والحرمين والمغرب وأعمال ذلك[6] .

ومن أهم المناصب الإدارية منصب « صاحب الخراج » ، وقد رأينا

---

١ الكندي : ٤٢٥ .

٢ رفع الأصر ١ : ٢٢٦ .

٣ معجم البلدان (طرابلس) .

٤ ابن عذاري ١ : ٢٥٤ .

٥ ابن عذاري ١ : ٢٩٠ – ٢٩١ .

٦ رفع الأصر ١ : ٢٠٧ – ٢٠٨ .

كيف أن صاحب الصلاة في بعض المدن الصغيرة كان يقوم بهذه المهمة ، فأمّا في المراكز الكبيرة مثل برقة وطرابلس فإن صاحب الخراج أكبر موظف بعد الوالي ، بل ربّما تسلّم جميع سلطات الوالي أيضاً . ولم تكن جميع ولايات ليبيا تؤدي خراجاً للدولة ، فكانت المناطق المستقلة مثل ودّان ونفوسة لا تؤدي الخراج للسلطان . وكان خراج برقة في زمن ابن حوقل أكثر من خراج طرابلس . ويقول اليعقوبي إن خراج برقة « قانون قائم » ويعني بذلك أنها كانت تدفع مبلغاً مقرَّراً من المال لا يزيد ولا ينقص مهما تتغير الأحوال : «وكان هارون الرشيد وجّه مولى إليها يقال له بشار فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار ، على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والجوالي ، ومبلغ الأعشار والصدقات والجوالي خمسة عشر ألف دينار ربما زاد وربما نقص ، والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقرّاة »[1] . وفي التقدير الذي صنعه عمر بن مطرف الكاتب من أهل مرو ليحيى بن خالد أن برقة كان يحمل منها بيت المال مليون درهم ، بينما يحمل من إفريقية (وطرابلس منها) ١٣ مليوناً[2] .

وقد تغيرت هذه الحال بالنسبة لبرقة في أيام العبيديين إذ أصبح خراجها يعطى للمتقبلين ، أي الضامنين ؛ وغير مستبعد — كما يرى ابن حوقل — أن يكون هؤلاء المتقبلون ممن لا يتقيدون بالقوانين الموجودة في أيديهم فيحاولون استخراج أموال كثيرة لأنفسهم . وكانت برقة هي المنطقة الوحيدة في المغرب التي أعطي خراجها بضمان ، أما بقية المغرب فكان العمل فيه قائماً على الأمانة ، أي على العلاقة المباشرة بين ولاة الدولة ودافعي الخراج .

---

١ البلدان : ٣٤٤ — ٣٤٥ .

٢ الجشياري : الوزراء والكتاب : ٢٨٧ .

ومن أجل أن نتصور نسبة ما كانت تقدمه برقة للدولة العباسية من خراج وعشور (٣٩ ألف دينار أو أكثر أو أقل) نذكر أن اثنين من أصحاب بيت مال المغرب في الدولة العبيدية قدّرا ما يتحصل من المغرب كلّه بين ٧٠٠ ألف إلى ٨٠٠ ألف دينار[1] ولكن إعطاء برقة للمتقبلين في عهد العبيديين يجعل تقدير النسبة أمراً مستحيلاً .

ومن أهم المناصب أيضاً في الولايتين منصب صاحب البريد وصاحب الخبر والثاني يقوم مع معاونيه بإطلاع الدولة على أحوال الولاية وهو عين على الإداريين والناس ، وكثيراً ما كان المنصبان في عهدة رجل واحد ؛ ويبدو أن الخليفة المتوكل كان ذا عناية خاصة ببرقة ، فإنّه لم يكتف ببناء سور منيع حولها بل جعل رجلاً من خدمه اسمه يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي – ويعُرف بقوصرة – صاحب بريدها مع بريد مصر والإسكندرية سنة ٢٤١ هـ[2] .

ولا ريب في أنّه كان إلى جانب الوالي « صاحب رسائل » وإن لم تحدثنا المصادر بشيء عن هذه الناحية ، غير أنّ أصحاب الرسائل في الولايات الصغيرة لم يكونوا – على ما يبدو – من المقدّمين في البلاغة ، وكانت الكتابة الديوانية تعتمد على هؤلاء البلغاء في المراكز الكبرى ؛ وإن عدم الإشارة إلى أصحاب الرسائل ورسائلهم فيما يتصل بمنطقة ليبيا قد حرمنا معرفة جانب هام من الأدب النثري فيها ، وقد يفسر هذا الصمت بأنّه لم يكن فيها كتّاب رسائل من طراز لافت للنظر .

---

١ ابن حوقل : ٩٤ .

٢ تاريخ الطبري ٣ : ١٤٢٩ .

الحياة الثقافية

كان المسجد من أول المعالم الإسلامية التي استقرت أُسسها في ليبيا ، حتى إن بعض المساجد فيها ظلّ من بعد يُنسب إلى عمرو بن العاص ، كمسجد في زنزور ومسجد في طرابلس أمام باب هوارة من أبوابها[1] . وفي عهد بني الأغلب أُسّس كثير من المساجد وخاصة على السواحل لتكون رباطات للعباد ومحارس للمرابطين . وبُنيت في مدينة طرابلس وفي خارجها مساجد متعددة، ومن أهم المساجد في خارجها جامع الشعّاب نسبة إلى أبي محمد عبد الله الشعاب أحد الصلحاء الفضلاء من أهل طرابلس وكان نجاراً (توفي سنة ٢٤٣)[2] وقد ظلّ مسجد الشعاب من أعمر المساجد حتى عهد البكري . وهناك مسجد آخر يُعرف بمسجد الجدة ، لأن إحدى جدّات بني الأغلب بنته ، ثم سمّي من بعد بمسجد البارزي نسبة إلى أبي الحسن البارزي الذي كان يقيم فيه[3] . ولمّا جاء العبيديون بنوا مساجد أخرى كان من أشهرها جامع طرابلس الأعظم الواقع بين قصبة طرابلس وموقع ما أصبح يُعرف في القرن السابع باسم المدرسة المنتصرية ، وكان جامعاً على أعمدة مرتفعة وبه منار متسع مرتفع ، وكان خليل ابن اسحاق هو الذي تولى الإشراف على بنائه وقد تمّ في العام المكمل لثلاثمائة[4] ، واستغرق بناؤه بضع سنين وفيه ماجل عليه قبة قام ببنائه شكر الصقلبي سنة

---

١ رحلة التجاني : ٢١٥ ، ٢٤٥ .
٢ رحلة التجاني : ٢٤٧ .
٣ رحلة التجاني : ٢٤٩ .
٤ المصدر السابق : ٢٥٣ .

٢٩٩ ثم جاء خليل فزاد فيه المنار[١] . وابتنى أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي بأجدابية جامعاً حسن البناء له صومعة (أي مئذنة) مثمنة بديعة العمل[٢] .

ومهما يكن من شيء فقد كان لكل مدينة من المدن العامرة في أواخر القرن الثالث مثل أجية وأجدابية وسرت وغيرها مسجد جامع ، فأما المساجد الأخرى فكانت كثيرة العدد ، وأكثرها حظاً من المساجد مدينة طرابلس . ويزعم صاحب الاستبصار أن مدينة شروس بجبل نفوسة لم يُنشأ بها جامع ولا في ما حولها من القرى لأن أهلها الإباضية — في زعمه — لا يرون صلاة الجمعة في مذهبهم[٣] ، ولكن هذا لا ينفي وجود مساجد كثيرة فيها وفي قرى الجبل كلّه لا تقام فيها صلاة الجمعة .

ولا بد أن يكون المسجد في المدن والقرى الليبية قد اتّخذ مركزاً لطلب العلم ، وبخاصة في البلدين الكبيرين : برقة وطرابلس ، ولكنا لا نملك في مصادرنا صورة واضحة عن هذه الناحية ، وأوضح منها — في حال ليبيا — اتخاذ المساجد رباطات للعبادة ، وبخاصة على السواحل ، ولهذا نشأ في ليبيا تيار زهدي قد يلحق بالتصوّف ، ونشأ الإيمان بكرامات الزهاد في دور مبكر من تاريخها .

وأيّاً كان الأمر فإن مدن ليبيا كانت ولا بد عامرة بالفقهاء والقراء والأدباء حتى أواخر الفترة التي نتحدث عنها ، وقد ذكر البكري أن أهل ودّان « عندهم فقهاء وقرّاء وشعراء »[٤] . فإذا كان ذلك كذلك في ودّان النائية فإن الأمر يكون أعم في مدن الساحل الليبي . ولكن العلماء من هؤلاء لم يكونوا ينالون الشهرة إلا إذا ارتحلوا في طلب العلم ولقاء الشيوخ ، ولم يكن

---

١ المصدر نفسه : ٢٥٤ .
٢ البكري : ٥ .
٣ الاستبصار : ١١٤ .
٤ البكري : ١١ .

الأدباء – وخاصة الشعراء منهم –يُعرفون إلا إذا وصلوا أنفسهم ببلاط كبير مثل بلاط صاحب القيروان أو صاحب مصر . وقد جذبت الرحلة عدداً كبيراً من أبناء المدن الليبية فذهبوا يطلبون العلم ويدرسون الفقه ويروون الحديث على علماء القيروان وعلماء المشرق . كما كان مرور العلماء بالمدن الليبية راحلين في طلب العلم أو بغية الحج يتيح للطلاب والدارسين الليبيين الذين يعجزون عن الرحلة مزيداً من الاطلاع والثقافة كما يتيح للراحلين لقاء العلماء الليبيين من المستقرين في ليبيا والطارئين عليها . فقد رحل محمد بن قاسم بن سيار القرطبي سنة ٢٩٤ وسمع بأطرابلس من علمائها[1] ، ومرَّ محمد بن عيسى البياني بأطرابلس سنة ٣٣٢ فكتب عنه الطلاب ، والتقى به حماد بن شقران الاستجي ببرقة سنة ٣٣٨ لدى عودته من المشرق[2] ؛ وسمع محمد بن عبد الملك ابن ضيفون الحداد الراحل سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان المصيصي بطرابلس[3] ومنه سمع أيضاً هاشم بن يحيى بن حجاج البطليوسي الراحل إلى المشرق في ذلك العام[4] ، ومرَّ عبيد بن محمد القيسي فسمع بأطرابلس من محمد بن يحيى المصيصي سنة ٣٤٢[5] ؛ وهذه أمثلة وحسب ، ولكنها تدلّ على أن مدن الساحل الليبي كانت تتلقى كثيراً من العلماء من المغرب والمشرق . على أنّا يجب أن نذكر أن كثيراً من الراحلين والحجاج كانوا يفضلون بلوغ تونس برّاً ثم الركوب منها بحراً إلى الإسكندرية تجنباً لأخطار القفار الواقعة إلى الشرق من

---

١ تاريخ ابن الفرضي ٢ : ٤٨ .
٢ تاريخ ابن الفرضي ٢ : ٥٧ .
٣ المصدر نفسه ٢ : ١١١ .
٤ المصدر نفسه ٢ : ١٧٠ .
٥ المصدر نفسه ١ : ٣٨٤ .

برقة ، ولذا كانت الصلة التجارية بين الغ باء ومدن الساحل أقوى من الصلة العلمية .

وسأورد فيما يلي أسماء أهم العلماء الذين يحملون النسبة إلى برقة أو طرابلس أو غيرهما ، ولكن لا يغيبن عن البال أن النسبة وحدها ليست كافية في إثبات الصلة المكانية ، فبعض من دعوا « برقيين » أخذوا هذه النسبة لأنهم كانوا يتاجرون إلى برقة ، كما أنّ بعض الذين يهاجر أهلهم — وهم صغار السن — تظلّ النسبة عالقة بهم دون أن يكون لبرقة أو أطرابلس أي أثر في حياتهم الثقافية[1] . ومن لم يعش في برقة أو طرابلس أكثر حياته لا يُعد نتاجه ممثلاً لليبيا وإن نُسب فقيل « برقي » أو « طرابلسي » . غير أننا رغم هذا التنبه نعجز اليوم في كثير من الأحوال عن تبين هذه الأمور بوضوح .

فمن العلماء الذين ذكرتهم المصادر[2] :

١ — إبراهيم بن حماد البرقي أبو خزيمة خولاني النسب من أهل برقة يروي عن أبي يونس البرقي ومن حفدته فقهاء عُرفوا ببرقة .

٢ — أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفياض البرقي من الموالي درس على عبد الله بن وهب وتوفّي بمصر سنة ٢٤٥ .

٣ — أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد التجيبي البرقي (توفّي في شوال ٢٦٠).

---

١ قد يتصحف البرقي في المصادر إلى البرتي — أو العكس — بكسر الباء نسبة إلى قرية برت بنواحي بغداد ؛ وفي قرى قم قرية تسمى برقة أيضاً ينسب إليها . وأما سرت فاللبس في النسبة إليها أن بالأندلس بليدة بهذا الاسم (انظر تبصير المنتبه لابن حجر ، القسم الثاني : ٧٣٠) .

٢ اعتمدت على أنساب السمعاني في مادتي « برقي » و « طرابلسي » وعلى معجم البلدان مادة « برقة — أطرابلس » وحيث أخذت الحقائق من مصادر أخرى فإني أثبت ذلك في الحواشي .

٤ — أحمد بن عبد الله بن أبي زرعة البرقي مولى بني زهرة روى المغازي عن عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وكان ثقة وألّف كتاباً في التاريخ ، قيل إن أخاً له بدأ بتصنيفه فلم يتمه فأتمه هو[1] ؛ وقد ذكر أخوه محمد في المصريين وقيل إنهم كانوا يتجرون إلى برقة فعُرفوا بالنسبة إليها ، وقد قال ابن فرحون في محمد أخيه : « كان من أصحاب الحديث والفهم ، والرواية أغلب عليه ، وبيته بمصر بيت علم ، وله تأليف في مختصر ابن عبد الحكم الصغير ، زاد فيه اختلاف فقهاء الأمصار ، وكتاب في التاريخ وكتاب في الطبقات وفي رجال الموطإ وفي غريبه »[2] . وتوفّي سنة ٢٤٩ .

٥ — محمد بن معاوية الأطرابلسي أبو سليمان : سمع مالك بن أنس وغيره ، ومن تلامذته حبيب بن محمد الأطرابلسي . قال أبو العرب ، قال محمد ابن معاوية : كان بقي عليّ شيء من الموطإ من كتاب الصلاة ، فأتيت إلى مالك وقد دخل الناس ، فقال لي : من يقرأ لك ؟ قلت : حبيب ، وكنت قاطعته بخمسة دراهم ، ويقرأ الكتاب خمساً وعشرين ورقة ، فقرأها حبيب في مجلس واحد . قال حبيب : لم تغنني دراهمك يا مغربي[3] .

٦ — حبيب بن محمد الأطرابلسي : كان رجلاً صالحاً فهماً ، سمع جماعة من أهل بلده ، روى عنه أبو سلم العجلي ووثقه .

٧ — عبد الله بن ميمون الأطرابلسي : روى عن سليمان بن داود بن سلمون القيرواني ، ثم ارتحل فبلغ مدينة مرو وفيها روى عنه أبو سهيل عبد الصمد بن عبد الرحمن المروزي .

---

١ وانظر المنتظم ٥ : ٧١ .

٢ الديباج المذهب : ٢٣٣ .

٣ أعلام ليبيا للزواوي : ٢٩٨ .

٨ — موسى بن عبد الرحمن القطان (أو العطار) أبو الأسود : قاضي طرابلس ، عزله عن قضائها إبراهيم بن أحمد الأغلبي وحبسه ؛ روى عن محمد بن سحنون وشجرة بن عيسى وغيرهما ، وله أوضاع كثيرة في العلم . كان يحسن الكلام في الفقه على مذهب مالك وأصحابه ، ولما ولي قضاء طرابلس نفذ الحقوق وأخذها للضعيف من القوي ، وله مؤلف في أحكام القرآن يبلغ اثني عشر جزءاً[1] .

٩ — عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الأطرابلسي : هاجر أبوه أحمد من الكوفة إلى طرابلس وبها ولد ابنه عبد الله وأخوه صالح فنُسبا إليها ونشأ فيها أولادهم ، وحديثهم كثير مشهور وبيتهم بيت المعرفة والدراية والإكثار من الحديث . وكان أحمد والد هؤلاء العجليين يشبه بأحمد بن حنبل ، وقد خرج إلى المغرب أيام المحنة بخلق القرآن وتوفّي سنة ٢٦١ هـ وقبره على الساحل بطرابلس وقبر ابنه صالح إلى جنبه .

١٠ — ابن زكرون الأطرابلسي علي بن أحمد بن الحصيب (أو الخطيب) : تتلمذ لصالح العجلي وروى عنه أبو الحسن القابسي وأبو علي الحسن بن المتبي (؟) قاضي طرابلس وغيرهما ، وانتفع به أهل طرابلس وتعلموا منه الفقه والحديث والنسك ، وكان قد صحب جماعة من النساك ، وكان رجلاً صالحاً متعبداً ناسكاً له في الفقه والفرائض والحديث والرقائق تآليف كثيرة ، توفّي سنة ٣٧٠ هـ[2] ومنه سمع الوليد بن بكر أبو العباس الغمري السرقسطي عند مروره بطرابلس[3] .

---

١ انظر الديباج المذهب : ٣٤٢ — ٣٤٣ .

٢ الديباج المذهب : ٢٠١ — ٢٠٢ .

٣ جذوة المقتبس : ٣٣٩ .

١١ – إبراهيم بن محمد الغافقي الأطرابلسي : قاضي طرابلس (توفّي سنة ٢٥٣ هـ) .

١٢ – محمد بن سلام بن سيار البرقي الهمداني (توفّي سنة ٣١٠) وكان متفقهاً على مذهب الشيعة [١] .

١٣ – عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي أبو حفص (١٩٤ – ٢٨١) : كان فقيهاً فاضلاً ثقة سمع من سحنون وغيره ، وكان صالحاً متعبداً وجيهاً عند الأمراء [٢] .

١٤ – عبد الله بن إسماعيل البرقي : كان من أهل الفقه والأدب وغلب عايه في آخر عمره الورع ، وكان كثير البكاء وقد ذهب بصره في كبره ، وتوفّي سنة ٣١٧ [٣] .

١٥ – علي بن زياد العبسي : أصله من طرابلس؛ سمع من مالك والثوري والليث بن سعد وابن لهيعة وأخذ عنه سحنون وشجرة بن عيسى وأسد بن الفرات ، ولم يكن سحنون يقدّم عليه أحداً من إفريقية . والحق أن علي بن زياد انقطعت صلته بطرابلس وأصبح معدوداً من علماء إفريقية وفيها توفّي سنة ١٨٣ [٤] .

ويجب أن نذكر في هذا السياق أن جبل نفوسة قد شارك بدوره في الحركة العلمية التي تمثل ليبيا ، فكان أئمة الإباضية الذين مرت بنا أسماؤهم من أمثال

---

١ ابن عذاري ١ : ٢٦٤ .
٢ أعلام ليبيا : ١٤٩ نقلا عن معالم الإيمان ورياض النفوس .
٣ أعلام ليبيا : ١٨٨ نقلا عن رياض النفوس .
٤ الديباج المذهب : ١٩٢ .

السمح وإلياس بن منصور من علمائهم الفقهاء . وقد نبغ فيهم من المشتغلين بالعلم طائفة كبيرة ، ويكفي أن ينظر الدارس في الأزهار الرياضية وسير الشماخي حتّى يدرك بوضوح هذه الناحية . ومن علمائهم – على سبيل التمثيل لا الحصر – :

١ – إسماعيل بن درار الغدامسي : كان أحد الذين درسوا العلم في البصرة على الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ومكث هنالك خمس سنوات ولما عاد ولي القضاء لأبي الخطاب ، وكان يباشر شؤون التعليم إلى جانب عمله في القضاء .

٢ – محمد بن يانس الدركلي أبو المنيب : تتلمذ لإسماعيل بن درار وكان أحد جماعة انتدبوا بطلب من الإمام عبد الوهاب الرستمي لمناظرة المعتزلة بتاهرت ؛ وكان من رفقائه مهدي النفوسي الذي قُتل مع عبد الوهاب عندما أنجد طرابلس ضد الأغالبة ، وأبو الحسن الأبدلاني الذي يقول فيه الشماخي : « كان واسطة العقد وإنسان العين ، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها »[1] .

٣ – أبو زكريا التوكيتي : يقول فيه الشماخي : « شهرة أبي زكريا وعلمه وورعه ممّا لا يخفى على الحفاظ ، وكفاك أنّه [عاش] في زمن امتلأ فيه جبل نفوسة علماً وعملاً وعدلاً فاختير من جميعهم حتّى قيل فيه أبو زكريا هو الجبل والجبل هو أبو زكريا » – هذا ما قاله فيه وفد من إباضية المشرق حين زاروا جبل نفوسة .

٤ – عمروس بن فتح المساكني : درس في بلدة « قطرس » مسقط

---

١ سير الشماخي : ١٧٢ .

رأسه ، وكان له شغف كبير بجمع الكتب ، ولما مرَّ به عالم الإباضية بشر بن غانم الخراساني أودع عنده «مدونته» فنسخ عمروس لنفسه نسخة منها ، وهي التي حفظتها الأيام بعد احتراق النسخة الأصلية . وقد ألّف عمروس في الفقه كتاباً عُرف بالعمروسي ، وولي القضاء أيام إلياس وقُتل في وقعة «مانو» ضد ابن الأغلب .

٥ — أبو يحيى سليمان بن ماطوس الشروسي : من أشهر علماء الإباضية في النصف الأول من القرن الرابع . عُرف بالبراعة في الفتوى ، وانتشرت فتاواه بين أبناء مذهبه انتشاراً واسعاً حتى غدت مرجعاً في شؤون الأحكام .

٦ — أبو هارون موسى بن يونس الجلالمي : لعلّ اهتمامه بالعلوم القديمة كالمنطق والرياضيات وإتقانه لعلم الأصول يميزه بين سائر علماء الإباضية ، وكان على حالة مادية جيدة تمكنه من الانصراف إلى الاستزادة من هذه العلوم ومن الإنفاق على من يدرس عليه من طلاب العلم .

٧ — أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي : طلب العلم في سجلماسة على أستاذ من مشاهير الإباضية يُعرف بابن الجمع ، ولما دنت وفاة أستاذه أوصى له بجميع ما لديه من كتب . وكان أبو الربيع نموذجاً للطالب النجيب الذكي فتفوق في طلب العلم ، ثم وجّه أكثر همه — في مدن منطقة الجريد — إلى إزالة البدع ومحاربة عقائد النكارية .

أمّا العلماء المشتغلون بالنحو واللغة والتاريخ فمنهم في هذه الفترة :

١ — محمد بن صدقة المرادي الأطرابلسي : غلب عليه التقعر ، وكان على صلة بأبي الأغلب بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب والي طرابلس ، وله حظ من قرض الشعر [1] .

---

١ طبقات الزبيدي : ٢٥٣ وانباه الرواة ٣ : ١٥٢ .

٢ – أبو محمد عبد الله بن محمود المكفوف النحوي من أهل سرت: كان من أعلم الناس باللغة والغريب والشعر وأيام العرب . تتلمذ لاثنين من مشاهير نحويي القيروان هما المهري وحمدون الملقب بالنعجة ؛ وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والغريب وكتاب في العروض ؛ شرح وصف أبي زبيد الطائي للأسد ، وكان ينظم الشعر والأراجيز وبينه وبين إسحاق بن خنيس مهاجاة[1] . (توفّي سنة ٣٠٨) .

٣ – خلف بن مختار الأطرابلسي (٢١٥ – ٢٩٠): كان صاحب نحو ولغة ويقرض الشعر ويجيد المعاني[2] .

٤ – محمد بن سالم المعروف بالعقعق من أهل أطرابلس : كان مترسلاً شاعراً صاحب نحو ولغة مع علم بالجدل ونظر فيه ، وكان معتزليّاً[3] .

٥ – محمد بن مؤمن بن محمد بن مؤمن الكندي البرقي ، أبو بكر النحوي : كتب الحديث والنحو، وكان رجلاً صالحاً ، ذكره ابن الطحان المصري في تاريخ الغرباء القادمين على مصر وقال : توفّي في ربيع الأول من سنة ٣٥٦ وقد قارب الثمانين[4] .

٦ – علي بن مضر بن سليمان أبو الحسن البرنيقي نزيل مصر : كان نحويّاً فاضلاً مشهوراً بالأدب ، وكتب بخطه الكثير ، وكان الناس يتنافسون في خطه وقد بيعت نسخة بخطه من الجمهرة في عصر القفطي بأربعة وعشرين

---

١ طبقات الزبيدي : ٢٥٧ – ٢٥٩ وانباه الرواة ٣ : ١٤٧ وبغية الوعاة : ٢٩٠ .

٢ طبقات الزبيدي : ٢٥٩ – ٢٦٠ وانباه الرواة ١ : ٣٥١ وبغية الوعاة : ٢٤٣ .

٣ طبقات الزبيدي : ٢٦١ وانباه الرواة ٣ : ١٤٢ وبغية الوعاة : ٤٣ .

٤ انباه الرواة ٣ : ٢١٨ ومعجم الأدباء ١٩ : ٦٣ وبغية الوعاة : ١٠٩ .

ديناراً مصرياً؛ تأخرت وفاته – عن الفترة التي ندرسها – إذ توفي سنة ٣٨٤ [١] .

٧ – عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي ، كان فاضلاً عالماً بالتاريخ وغيره من العلوم (توفّي سنة ٣٨٤ ودفن بتونس) [٢] .

---

١ انباه الرواة ٢ : ٣٢٣ ومعجم الأدباء ١٥ : ٩٧ وبغية الوعاة : ٣٥٧ .

٢ أعلام ليبيا : ١٩٠ نقلا عن معالم الإيمان .

ليبيا بين العبيديين وبني زيري الصنهاجيين

بنو زيري الصنهاجيون

أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري	٢٦٢
المنصور بن يوسف	٣٧٣
باديس بن منصور	٣٨٦
المعز بن باديس	٤٠٦
أبو طاهر تميم بن المعز	٤٥٣
يحيى بن تميم	٥٠١
علي بن يحيى	٥٠٩
الحسن بن علي	٥١٥ (توفي سنة ٥٦٣)

المنافسة على ولاية طرابلس

لما ارتحل المعزّ أبو تميم معد إلى مصر خلف على إفريقية أبا الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري الصنهاجي (٣٦٢ – ٣٧٣) وكتب إلى عماله في نواحي المغرب يأمرهم بطاعته ، فأصبح سلطان أبي الفتوح يمتد على كل ما كان للعبيديين في المغرب سوى طرابلس وسرت وأجدابية ، فإن المعز استثناها من ولاية بلكين[١] . ومعنى ذلك أن جميع منطقة ليبيا — عدا جبل نفوسة — أصبحت تابعة لصاحب مصر لأول مرة ، بعد أن كانت برقة وحدها هي الداخلة ضمن نفوذ الوالي في الفسطاط . غير أن الخليفة الفاطمي ظلّ يعتبر المنطقة الممتدة بين طبرق وطرابلس ولايتين كبيرتين — لا ولاية واحدة — ولذلك ولّى على طرابلس وما انضاف إليها عبد الله بن يخلف الكتامي وجعل لبرقة والياً آخر .

وكان يوسف بن زيري يطمع في أن تكون ولاية طرابلس داخلة تحت نفوذه ، وصرّح برغبته هذه للخليفة العزيز نزار بن المعز (٣٦٥ – ٣٨٦) فأنعم عليه بها وبنواحيها عام ٣٦٧[٢] فأرسل بلكين إليها يحيى بن خليفة الملياني فلم تتجاوز ولايته بها أشهراً معدودات عُزل على أثرها[٣] وخلفه فيها تمصولة

---

١ ابن الأثير ٨ : ٤٥٦ .

٢ ابن خلدون ٤ : ٥١ ؛ ٦ : ١٥٦ وابن الأثير ٨ : ٤٨٩ .

٣ ابن عذاري ١ : ٣٢٩ .

(عوصلة ؟) بن بكار ، وكان والياً على مدينة بونة قبل ذلك[1] . وقد طالت مدة تمصولة على طرابلس حتى عهد الخليفة الحاكم (٣٨٦ — ٤١١) أي أنّه شغل فترة من ولاية بلكين وابنه المنصور وباديس بن المنصور بإفريقية . ويظهر أن طول المدة قد ألقى في نفس تمصولة قسطاً غير قليل من الملل ، فكتب إلى الخليفة الحاكم يعلمه أن نفسه تهفو إلى التخلي عن الحكم واللحاق بحضرته ويرجوه أن يتسلم منه عمل طرابلس[2] . ومن الغريب أن تمصولة لم يطالع الأمير الصنهاجي — وهو رئيسه المباشر — بنية الاعتزال ، مما قد يدل على أن تمصولة لم يكن يرى تبعية طرابلس لإفريقية ، أو أنّه على الأقل كان من ذلك الفريق المخلص للفاطميين الذي يرى أنّه هو وباديس ومن كان على شاكلتهما لا يستطيعون البت في شيء من الأمور دون الرجوع إلى إمامهم الكبير الخليفة الفاطمي . وكان التفاوت بين ما يراه تمصولة وبين ما يعتقده باديس صاحب إفريقية هو سبب ما يلي من أحداث .

فقد كان والي برقة حينئذٍ هو يانس الصقلي[3] ، فلمّا ألح تمصولة في الاستعفاء عقد الحاكم ليانس — بإشارة من برجوان الصقلي ذي النفوذ العظيم في بلاط الحاكم — على أطرابلس وأمره بالنهوض إلى عملها وتسلمها من يد تمصولة ، فوصلها سنة تسعين وثلاثمائة[4] . وعزّ على باديس خروج طرابلس من سلطانه ، فأرسل إلى يانس يسأله عن سبب وصوله إلى البلد وأنّه إن كان والياً حقّاً فعليه أن يبرز سجلاً بالولاية ، فردّ عليه يانس قائلاً : « إنّما بُعثت نائباً

---

١ ابن خلدون ٧ : ٤١ والأرجح أن الاسم هو « تمصولت أو تموصلت » .

٢ ابن خلدون ٧ : ٤١ .

٣ وورد عند ابن الأثير (٩ : ٨٦) أنه ولي على برقة أنساً الصقلبي ؛ ثم عاد فذكره باسم يانس الصقلي (٩ : ١٠٩) .

٤ ابن خلدون ٧ : ٤١ .

عن أمير المؤمنين ، ومثلي يكبر عن أن يولى بسجل »[1] .

لجأ باديس إلى إثبات حقّه بالقوة غير مقدّر إرادة الخليفة الفاطمي ، متحدّياً في الظاهر صدق يانس في ما ادعاه ، فأرسل جيشاً بقيادة جعفر بن حبيب ليخرج يانساً من طرابلس ، فنزل جعفر بقرية أجاس – من عمل طرابلس – وأقام فيها متلوّماً نحو ثلاثة أشهر غير مبادىء يانساً بقتال ، وأخذ يفاوضه لينزل على واحد من شروط ثلاثة :

أ – إمّا أن يبعث السجل بالولاية إن كان معه سجل .

ب – وإمّا أن يقدم على باديس للمفاوضة .

ج – وإمّا المناجزة بالحرب .

ولا ريب في أن يانساً ركب طريق العناد ، وقد كانت الرسالة التي تلقاها من الحاكم تقوم مقام السجل لو شاء المفاوضة والتفاهم السلمي ، ولكنه استشعر العزة ، فرفض القدوم على باديس وقال في ما يتصل بالسجل : « وأما سجل الولاية فأنا أكبر من ذلك إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس »[2] ؛ وإذن فلم يبق إلا القتال ، وكانت المعركة عند زنزور : نزل جعفر بن حبيب غربيها ونزل يانس في جانبها الشرقي ومزارع الزيتون تفصل بينهما ، فلمّا التقيا هُزم يانس وقُتل أكثر جنده ، وأُخذ هو أسيراً ثم قُتل . ولحق فلّ جيشه بمدينة طرابلس وعلى قيادته فتوح بن علي . ويقول التجاني إن أهل طرابلس أبوا استقبال الفلّ أو تمكين جعفر بن حبيب من البلد[3] ؛

---

١ رحلة التجاني : ١٨٢ .

٢ رحلة التجاني : ١٨٢ .

٣ رحلة التجاني : ١٨٢ – ١٨٣ .

أمّا ابن خلدون فيذكر أن فتوحاً وجماعته دخلوا البلد وامتنعوا فيه ، وأن جعفر ابن حبيب أقام محاصراً لهم حتى وافته الأخبار بأن فلفول بن سعيد نزل على قابس وأنّه قاصد إلى طرابلس ؛ عندئذ ارتحل جعفر إلى ناحية الجبل حتى ضاقت الحال به وبجنده فعادوا إلى قابس ، وقدم فلفول إلى طرابلس ، فتخلى له فتوح بن علي عنها ، وملكها فلفول سنة ٣٩١[١] .

زعامة بني قرّة في برقة (– ٤٤٣)

كان الخلاف بين يانس والي برقة العبيدي وباديس صاحب إفريقية حول ولاية طرابلس هو المنفذ الذي تسرب منه إليها مغامر من زناتة اسمه فلفول ابن سعيد ، استطاع هو وخلفاؤه أن يسيطروا على الجانب الأكبر من تاريخها مدة قرن ونصف من الزمان ، وسيكون حديثنا عن هذا المغامر وخلفائه في فصل تالٍ ؛ أما هنا فنوجه النظر إلى أحوال برقة بعد مقتل يانس في معركة زنزور .

قلّد الخليفة الحاكم ولاية برقة بعد مقتل يانس صندلاً الأسود وذلك في شهر المحرم سنة ٣٩٤[٢] .

وكانت قبائل قرة من العرب قد استوطنت منطقة برقة ، وكان شيخها في أيام الحاكم هو مختار بن القاسم[٣] ؛ فلمّا أصبحت طرابلس بيد فلفول بن

---

١ ابن خلدون ٧ : ٤١ وابن عذاري ١ : ٣٦١ وابن الأثير ٩ : ١٠٩ .

٢ خطط المقريزي ٤ : ٩٥ .

٣ يذكر ابن خلدون (٢ : ٣١١) أن شيخهم أيام الحاكم هو ماضي بن مقرب ، وهذا مناقض لقوله في مكان آخر إن ماضي بن مقرب كان شيخهم عندما اجتازت هلال ، وكان ذلك في زمن المستنصر لا زمن الحاكم ، وكذلك سيجيء ذكر الماضي في خبر أبي ركوة ، فلعل هناك اثنين بهذا الاسم من زعماء بني قرة .

سعيد المتقدم الذكر أرسل الحاكم إليه جيشاً بقيادة يحيى بن عليّ ، ويذهب ابن خلدون إلى أن يحيى إنّما أُرسل استجابة لاستصراخ فلفول في نزاعه مع باديس[1] ، ولكن هذا أمر مستبعد ، فإن الحاكم لم تكن له مصلحة في معاداة صنهاجة وتأييد الزناتيين ضدها ، إذ كانت صنهاجة ما تزال موالية للعبيديين وتحت سلطانها أكثر المغرب . وأيّاً كان الأمر الذي توجه فيه يحيى بن عليّ فإن أكثر جيشه كان من قبيلة قرّة ، ويرى ابن خلدون أن الأمور اضطربت على يحيى وأن قرّة كانت السبب الأكبر في اختلال الأحوال لعدم تعوّدها النظام . فأضمر يحيى النقمة على قرّة ، وأضمرت قرّة السخط على يحيى لأنّها لم تنل في توجهها إلى الغرب ما كانت ترجوه من غنائم ، وأرادت قرّة أن تؤكد ولاءها للخلافة الفاطمية فأرسلت وفداً لتقديم مراسم الطاعة للحاكم، ولكن يحيى كان — فيما يبدو — قد أوغر صدره على تلك القبيلة، فما كان من الحاكم إلاّ أن قتل أعضاء الوفد إرهاباً لقرّة ، فزادها بذلك نقمة ، وجعلها تربة صالحة لبذور الثورة على الدولة الفاطمية .

ففي عام ٣٩٥ ظهر بين قبائل قرّة معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام وينتسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أميّة ، وكان قد فارق الأندلس في زي الفقراء ، وقد حمل في يده ركوة فعرفه الناس بأبي ركوة[2] . وفي برقة أظهر الزهد والعبادة واشتغل بتعليم القرآن للصبيان وأخذ يدعو إلى تغيير المنكر . ثم حدّث الناس أنّه يعرف الملاحم وأن علم الحدثان الذي ورثه عن مسلمة ابن عبد الملك (وورثه مسلمة عن خالد بن يزيد) ينبيء بأنّه هو الأموي الذي

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٧ .

٢ أخبار أبي ركوة في النفح ٣ : ٤١١ — ٤١٣ وابن الأثير ٩ : ١٣٩ وما بعدها وابن خلدون ٦ : ١٧ وابن عذاري ١ : ٣٧٠ — ٣٧١ .

سيخرج فيقتل الجبابرة ويملك مصر ، وأخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة ابن عبد الملك ، ومنها في وصفه :

وابن هِشامٍ قائمٌ في برقَةٍ   بهِ ينالُ عبد شمس حقّه
يَسكونُ في بربرها قيامه   وقرة العُرب لها إكرامه

وكان شاعراً ، وشعره يستشرف الثورة وطلب المجد ، من ذلك قوله :

إن لم أُجلْها في ديار العِدا   تملأ وعرَ الأرض والسّهلا
فلا سمعتُ الحمدَ من قاصدٍ   يوماً ولا قلتُ له : أهلا

وصدقت به جماعة البربر من لواتة وزناتة وجعلوه إماماً لهم وبايعه بنو قرّة بالخلافة في رجب من العام المذكور ، وأخذ أمره في برقة يقوى وينتشر حتى استقل بحكم تلك البلاد طوال عام ٣٩٦ هـ وهزم جيش والي برقة ثم كسر جيشاً أرسله الحاكم لمحاربته بقيادة ينال الطويل فزاد بذلك أمره استفحالاً وكثرت أتباعه وجموعه في العام التالي . ويقول صاحب النفح إنّه هزم أيضاً عسكر باديس الصنهاجي صاحب إفريقية [1] .

ويرى ابن عذاري أن الحاكم وجد أن استعمال القوة ضدّه لا يجدي ، فأخذ يُعمل الحيلة للقضاء عليه : وذلك أنّه أمر قوّاده ورجاله أن يكاتبوه ويعرّفوه أنهم مشايعون له وأنّه إن اقترب منهم انحازوا إليه ، فاغترّ بذلك ، وزحف بجيشه من البربر وبني قرّة إلى أرض مصر ، وبذلك خرج من الأرض التي كان يحسن فيها الكرّ والفرّ ، وهناك صدمته عساكر مصر وهزمته ، ففرّ

---

١ انظر النفح ٢ : ٤١٢ وتفصيلات عند ابن الأثير حول حملة ينال .

هارباً إلى أرض السودان ثم جيء به أسيراً ، وقُتل بعد التشهير به في الشوارع ، في شوّال من سنة ٣٩٧[١] .

ولكن التفاصيل التي يوردها ابن الأثير تقول بغير ذلك إذ يُفهم منها أن المكاتبات التي وردت إلى أبي ركوة كانت ترمي إلى التخلص فعلاً من الحاكم لأنّه كان قد أسرف بمصر في قتل القواد وحبسهم وأخذ أموالهم، وكان ممن كاتب أبا ركوة الحسين بن جوهر المعروف بقائد القوّاد . كذلك فإن رواية ابن الأثير لا تدعي أن الحاكم لجأ إلى الحيلة وإنّما تقول إنّه في شدة خوفه من انتقاض الأمور كلّها جمع العساكر من مصر نفسها واستدعى عساكر أخرى من الشام، فلمّا جاءته فرّق الأموال والدواب والسلاح فيهم ، وكان عدة من اجتمع اثني عشر ألفاً ، سوى « العرب » ، جعل على رأسهم قائداً اسمه الفضل بن عبد الله .

وكانت خطة أبي ركوة تقوم على المناجزة السريعة ، أمّا الفضل فاتّبع خطة مناقضة إذ اعتمد على البطء والمطاولة ليستطيع استمالة أصحاب أبي ركوة بما يبذله لهم من الرشا ، وكان أن استجاب له أحد شيوخ بني قرّة واسمه — عند ابن الأثير — الماضي ، فأخذ الماضي يطالع الفضل بأخبار أبي قرّة وخططه وطبيعة تحركاته ، والفضل يرتب خطته بحسب ذلك . غير أن أسلوب البطء والمطاولة لم يعد ممكناً إذ كادت الميرة الموجودة مع الفضل تنفد فاضطر إلى خوض معركة في كوم شريك أسفرت عن قتلى كثيرة من الجانبين ، فانسحب الفضل خوفاً من جموع أبي ركوة .

وأخذ بنو قرة الذين مع أبي ركوة يراسلون العرب في جيش الفضل للتخلي عنه والانضمام إليهم ، حتى إذا أحرزوا النصر النهائي على الفضل ثم على

---

١ ابن عذاري ١ : ٣٧١ .

الحاكم أصبحت للعرب منطقة الشام وأصبح لأبي ركوة مصر وبرقة ، وتمّ الاتفاق على ذلك ، ولكن الماضي بعث بمجمل هذه الخطة إلى الفضل ، فتدبر الأمر بأن دعا شيوخ العرب ليفطروا عنده — وأظهر أنّه صائم — وقبل تناول الإفطار طاولهم الحديث ثم تركهم وحدهم في خيمته ، فأرادوا العودة إلى خيامهم فماطلهم أيضاً وجاء بالطعام في وقت متأخر ، وفي الوقت نفسه وجّه مفرزة من جيشه للاصطدام مع عسكر أبي ركوة ، ووصلت أخبار اللقاء إلى شيوخ القبائل وهم معه في خيمته ، فأرادوا الركوب فمنعهم من ذلك ، وأرسل إلى أتباعهم العرب ولم يكونوا قد علموا بخطة شيوخهم يأمرهم بالقتال ، فامتثلوا لأمره ، ولاح لبني قرّة الذين مع أبي ركوة كأنّما شيوخ العرب قد خدعوهم ، ولم يطبقوا الخطة المتفق عليها ؛ وعندما انغمس العرب في حومة المعركة خرج الفضل مع شيوخهم فلم يستطيعوا إلاّ الصمت ، وكان أبو ركوة قد وصل مدداً لطالعة جيشه الّتي اشتبك معها العرب، فعاد الفضل إلى خطة المدافعة حين تكاثرت الأمداد .

وسمع أبو ركوة بأن الحاكم أرسل جيشاً عدده أربعة آلاف، فسار إليهم أبو ركوة في سرعة خاطفة وضبط الطرق لئلا تتسلل رسل الماضي إلى الفضل بخبر اندفاعه نحو مصر ، فلقيهم عند الجيزة كبساً ، وقتل منهم ما يقارب ألف فارس . وكانت حركة بارعة من أبي ركوة ، جعلت الحاكم يحسّ أن أرض مصر تتزلزل تحت قدميه ، وانسحب أبو ركوة عائداً إلى جيشه .

وهنا لجأ الحاكم إلى الحيلة فكتب إلى الفضل ليشيع في الجند أن أبا ركوة انهزم ، وأنبأه الحقيقة وطلب إليه كتمانها ، فتظاهر الفضل بالسرور أمام الجند عندما قرأ عليهم الرسالة الأولى ، وكان أبو ركوة قد بلغ حينئذ موضعاً يُعرف بالسبخة كثير الأشجار، فلحق به الفضل ، فوضع له أبو ركوة كميناً بين الأشجار وتقدم هو بقسم من الجيش مطارداً أولاً لعسكر الفضل ثم مظهراً

التراجع كي يوقع الفضل في الكمين ، وفيما كان يتراجع ظنّه أهل الكمين منهزماً فولّوا هم منهزمين ، وتحوّلت الخطة إلى هزيمة حقيقية ، فتشجع أصحاب الفضل ولحقوا أصحاب أبي ركوة وقتلوا منهم ألوفاً وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرّة وقد ساءهم إخفاق ما بذلوه من جهود ؛ وهنالك وجد الماضي الفرصة سانحة لتخذيلهم عنه وهم في تلك الحال النفسية ، فقالوا لأبي قرّة : « قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال فخذ لنفسك وانج »[1] . فتوجه إلى بلاد النوبة ؛ فقُبض عليه وجيء به إلى الحاكم فقُتل كما قدمنا في رواية ابن عذاري .

كيف عامل الحاكم بني قرّة بعد مشايعتهم لأبي ركوة ؟ يضطرب ابن خلدون في هذا إذ يذكر خبرين متناقضين في موضعين مختلفين من تاريخه : فيقول في الأول[2] إن الحاكم غفر لهم جنايتهم ووسعهم بحلمه ؛ ويقول في الثاني[3] : إن الحاكم سلط عليهم العرب والجيوش فأفنوهم وانتقل جلهم إلى المغرب الأقصى ، ولعلّ الخبرين غير متناقضين وإنّما يشيران إلى حادثتين مختلفتين ، وأكبر الظن أن الحاكم في هذه المرّة عفا عن بني قرّة ، غير أنهم حين قابلوا جميله بالنكران سلّط عليهم العرب والجيوش .

وبعد بضع سنوات (أي عام ٤٠٣) أحبّ الحاكم أن يكافىء باديس على إخلاصه للدولة العبيدية ، فأرسل إليه هدية وسجلاً أضاف به برقة وأعمالها للأمير الصنهاجي ، وبهذا أصبحت ليبيا — وخاصة الأقسام الساحلية منها — تحت حكم صنهاجة . ولعلّ الحاكم نظر إلى انشغاله بشؤون أخرى في دولته ، وعدم قدرة ولاته في برقة على ضبط بني قرّة ، فأحب أن يكل أمرهم

---

١ انظر ابن الأثير ٩ : ١٣٩ — ١٤٤ .

٢ ابن خلدون ٦ : ٧ .

٣ ابن خلدون ٢ : ٣١١ .

إلى باديس ويرتاح هو من توجيه الجيوش نحوهم .

وردّ باديس على هدية الخليفة الفاطمي بهدية أخرى فيها مائة فرس ذات سروج محلاّة وثمانية عشر حملاً من الخز والسمور والثياب السوسية المذهبة وعشرون وصيفة وعشرون فتّى صقلبيّاً، ومعها هدية أخرى من أخت باديس إلى أخت الحاكم ، ووضعت الهدايا في مركب تحت إشراف يعلى بن فرج ، فلمّا أرسى المركب في برقة هاجمته قبائل قرّة ونهبت جميع ما فيه متحدّية بذلك باديس والخليفة الفاطمي على السواء[1] .

متى كان ذلك ؟ إن سياق الأحداث حسب رواية ابن عذاري يجعل هذه الواقعة من أحداث عام ٤٠٥ ، وقد أخذنا برواية ابن عذاري في تحديد تاريخ هدية الحاكم (أي سنة ٤٠٣) فإذا كانت هدية باديس ردّاً عليها فلا يمكن أن تكون — حسب هذا التسلسل الزمني —سنة ٤٠٢ كما يؤرخها ابن خلدون .

ولم تكتف قبائل قرّة بما فعلته وإنّما أمعنت في التحدّي ؛ كانت تعلم أنها قد عرّضت نفسها لعمل ينتظر عقاباً فليكن العمل كبيراً ما دام العقاب لا بد آتياً ؛ ولهذا زحفت على مدينة برقة وأخرجت عاملها منها[2] ؛ وأصبحت منطقة برقة مراداً لها تتحكم في شؤونها ، ولعلّ إرسال العرب والجيوش لمحاربتها إنّما تمّ بعد هذه الوقائع . على أن الشيء المؤكد أن قرّة لم تفنها الجيوش المسلطة عليها حينئذ ، بل بقيت أكثر برقة تحت زعامتها .

ويبدو أن زعامة مختار بن القاسم كانت قد انتهت في حدود سنة ٤٢٠ وخلفه في الزعامة مقرّب بن ماضٍ . ولمقرّب ذكر في محاولة الوصول إلى واح صبروا ، وذلك أن رجلاً من عرب بني قرة اسمه رجمة بن قائد القري وقع

---

١ ابن عذاري ١ : ٣٧٥ .

٢ ابن خلدون ٦ : ١٧ .

في ذلك الواح مصادفة ورجع يحدث عمّا فيه من نخل وزرع وفواكه وذهب ، وأن أهله لا خبرة لديهم بالحرب ، فحفز ذلك ماضياً للتوجه إلى ذلك الواح ، وأعد أزودة كثيرة وماء كثيراً ، ولكنه وصل الواح الخارج ولم يستطع الاهتداء إلى واح صبروا ، وكرّ راجعاً خوف أن ينفد زاده ، وفي العودة وقع هو وأصحابه على بيت لبناته من نحاس وتزعم القصة أنهم عادوا وقد حمّلوا دوابهم كميات كبيرة من النحاس باعوها بأموال كثيرة [1] .

وانتقلت الزعامة على برقة بعد مقرّب إلى جبارة بن مختار بن قاسم ، وقد كان كأبيه يكره التبعية للفاطميين ، فما إن سمع أن المعزّ بن باديس قد قطع الدعوة العبيدية ودعا للخلافة العباسية حتّى كتب إليه من برقة بالسمع والطاعة ، وأخبره في رسالته أنّه وأهل برقة أحرقوا رايات العبيديين والمنابر التي كانوا يخطبون عليها ، وأجروا لعنهم على المنابر ، ودعوا للخليفة العباسي وهو يومئذ القائم بأمر الله . ويؤرخ ابن عذاري هذه الحادثة بعام ٤٤٣ [2] ، ولكن ربما كان هذا التاريخ متأخّراً بحسب سياق الأحداث ، فقد كان العرب من بني هلال وسليم قد تجاوزوا برقة في ذلك العام .

ولكن جبارة وقومه ما كانوا يعلمون أنهم سيكونون بعد قليل موجة في ذلك الطوفان العارم الذي امتد على برقة واستمر يهدر حتّى بلغ أقصى المغرب . ولما أن اكتسح الهلالية برقة كان ماضي بن مقرّب من شيوخها البارزين ، وهذا لا يتعارض مع زعامة جبارة بن مختار إذ نقدر أن قرّة لم تكن تدين جميعاً لزعيم واحد .

---

١ البكري : ١٥ — ١٦ والاستبصار : ١٤٨ .

٢ ابن عذاري ١ : ٤١٦ .

دولة بني خزرون في طرابلس (٣٩١ - ٤٦٠)

يرجع نسبهم إلى قبيلة زناتة التي كانت توالي الأمويين بالأندلس ثم نزع سعيد بن خزر بن فلفول إلى صنهاجة وانحرف عن طاعة الأموية فأكرمه يوسف (بلكين) بن زيري غاية الإكرام وولاه على طبنة ، وزوّج ابنه فلفولاً من ابنته ، ثم تعاقبت أحداث في المغرب الأقصى جعلت فلفولاً يسترِيب من نوايا صنهاجة ويحجم عن التضامن مع باديس ، وقامت بينه وبين باديس حروب سنة ٣٨٩ ثم تجددت الحرب بينهما فأفلت منه فلفول إلى نواحي قابس ، فالتفّت حوله زناتة ، وتقدم بجموعه واحتلّ طرابلس سنة ٣٩١ ، وأسس فيها دولة تقلبت حياتها بين جزر ومدّ بسبب النزاع مع صنهاجة حتّى كانت نهايتها عام ٥٤٠ ، وإنّما نؤرخ هنا ما كان من أمر بني خزرون حتّى غلبة العرب على مناطق طرابلس .

فلفول بن سعيد (٣٩١ - ٤٠٠)

أرسل فلفول بن سعيد إلى الحاكم بالطاعة ، ولكن الحاكم لم يشأ أن يوليه أمر طرابلس - فيما يبدو - وإنّما أرسل إليه والياً من قبله اسمه يحيى بن علي بن حمدون ، فوصل يحيى مدينة طرابلس سنة ٣٩٢ . ويذهب ابن خلدون إلى أن قدوم يحيى كان استجابة لاستنجاد فلفول - كما قدمنا - ؛ ولكن فلفولاً لم يكن قد اشترك حينئذ في نزاع مع أحد ، والأقرب إلى المعقول

ما ذكره ابن الأثير وهو أن يحيى كان مدداً لأصحاب يانس الذين هُزموا عند زنزور[1] ، وأنه لما وصل كان فلفول قد استولى على البلد ، وعندئذ أظهر فلفول غاية الامتثال وتلقى يحيى بالحفاوة ووضع جهوده تحت تصرفه ، واجتمع رأي فلفول ويحيى وفتوح بن علي على محاصرة قابس وانتزاعها من واليها التابع لباديس ، فحاصرها الثلاثة مدة في سنة ٣٩٣ ثم رجعوا إلى طرابلس ، واختل الحال على يحيى بن علي فعاد إلى مصر ، ويعزو ابن خلدون اختلال أحواله إلى قبيلة قرّة — كما تقدم القول — ولكن ابن عذاري يقول إنّه لم يكن معه ما يعطيه لرجاله ، وإن فلفولاً حليفه انتقى هو ورجاله ما أحبّوه من خيول يحيى بين شراء وغصب[2] . ويزيد ابن الأثير أن فلفولاً وأصحابه أساءوا جواره ، ولعله يشير إلى حادثة غصب الخيل[3] . ولما عاد يحيى انفرد فلفول بحكم طرابلس.

ثم دارت حروب بين فلفول وباديس كان فلفول في أثنائها يستصرخ الخليفة الفاطمي لنصرته فلا يتلقى جواباً . وإنّما أحجم الحاكم عن إعانته — فيما أرى — لأن الرّجلين فلفولاً وباديس كانا يدينان بالطاعة للخلافة الفاطمية ، فلم يكن من الطبيعي أن يتحيز الخليفة لأحدهما ، وبخاصة لفلفول ، لأن تحيزه له يخرج المغرب كلّه من طاعته ويشجع صنهاجة على شق عصا الطاعة . ثم إن جيوش الفاطميين كانت مشغولة بثورة أبي ركوة بين ٣٩٥ — ٣٩٧ ، فلم يكن في مقدورها أن تعين واحداً من الفريقين على الآخر . ولذا توجه فلفول إلى أحلاف زناتة القدماء ، أعني الدولة الأموية بالأندلس ، فأعلن أنّه خارج على الفاطمية موالٍ للأموية ، وأرسل رسولين من قبله إلى قرطبة ،

---

١ ابن الأثير ٩ : ١٠٩ .

٢ ابن عذاري ١ : ٣٦٨ — ٣٦٩ .

٣ ابن الأثير ٩ : ١٢٥ .

ولكن الدولة الأموية بالأندلس لم تكن أيضاً على حال تمكنها من إعانته ، فقد كان محمد بن عبد الجبار المهدي خليفتها يومئذ (٣٩٩ــ٤٠٠) رجلاً ضعيفاً، وكانت الفتنة البربرية تدق على أبواب قرطبة ، والدولة الأموية تؤذن بالانهيار .

ووصل الرسولان إلى مدينة قرطبة يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال سنة ٣٩٩ فأديا الرسالة ، وذكرا أن فلفول بن سعيد راغب في طاعة الخليفة الأموي وهو يستأذنه في أن يضرب الدنانير والدراهم باسمه وأن يدعو له على المنابر ، فتلقى ابن عبد الجبار الرسولين بالقبول وزوّدهما بكتاب وبهدية إلى فلفول، فوصل الوفد طرابلس وقد مات فلفول من علّة ألمت به (سنة ٤٠٠ ﻫ) وهرب منها ورّوا أخو سعيد واحتلها باديس فقبض على رسل هشام وضرب أعناقهم [١] .

ورّوا بن سعيد (٤٠٠ ــ ٤٠٦)

كان لفلفول عدد من الإخوة منهم ورّوا بن سعيد وخزرون بن سعيد ومقاتل بن سعيد ؛ فلمّا مات فلفول اجتمعت زناتة على بيعة أخيه ورّوا ، فلم يمهله باديس بل هاجم طرابلس يوم الاثنين السابع من شعبان سنة ٤٠٠، فخرج عنها ورّوا ودخلها باديس ونزل قصر فلفول ، وتلقّاه أهل طرابلس مسرورين مستبشرين [٢] ، فبعث إليه ورّوا يطلب الأمان ، فأمّنه هو وقومه على شرط أن يرحلوا عن أعمال طرابلس ، وولى ورّوا على نفزاوة ، وجعل طرابلس لوالٍ

---

١ ابن عذاري ٣ : ٧٨ (تحقيق ليفي بروفنسال) .

٢ ابن عذاري ١ : ٣٧٢ وانظر ابن الأثير ٩ : ١٢٥ .

من قبله اسمه محمد بن حسن ، وبذلك لم تعد طرابلس – مؤقتاً – تحت حكم بني خزرون ؛ غير أن ورّوا نزع إلى الثورة من جديد ، وزحف بمن تبعه من زناتة على طرابلس ، إلاّ أن أخاه خزرون بن سعيد خالفه وانشق عنه وذهب إلى باديس فأكرمه وولاّه نفزاوة بدلاً من أخيه [1] .

ودارت الحرب بين ورّوا ومحمد بن حسن، فانهزم ورّوا وقُتل كثير من زناتة ، ولكنه لم ييأس فعاود الحصار ؛ عندئذ حرض باديس أخويه خزروناً ومقاتلاً على حربه فاضطر للانفصال عن طرابلس ومواجهة الجيش بصبرة (بين قابس وطرابلس) . وقد أخطأ باديس بالتحريب بين الإخوة على هذا النحو ، لأنهم كانوا بطبيعة الحال يرفضون أن تهلك زناتة بأيدي بعضها البعض في سبيل أمير صنهاجي ، وكان الذي جرّأ باديس على ذلك وجود رهائن من زناتة في قبضته . واتفق الإخوة فيما بينهم حين التقوا، فانحاز أصحاب خزرون إلى ورّوا ، ورجع خزرون إلى نفزاوة مقرّ عمله ، فاتهمه باديس بالمداهنة في أمر أخيه ، وبعث وراءه ليمثل بين يديه ، فاستراب من ذلك وهرب ، وعندئذ أجمعت زناتة على الخلاف فقتل باديس من لديه من الرهائن ، وبينا كانت زناتة تجلب على طرابلس بقتال عنيف انفصل مقاتل أخو ورّوا بجماعة من أهله لاحقاً بباديس ، فألحقهم باديس بالرهائن أيضاً . واستولى ورّوا على طرابلس وشغل عنه باديس بحرب أخرى ، فلمّا عاد باديس إلى القيروان بعث إليه ورّوا بالطاعة ، وبقي في منطقة طرابلس حتّى وفاته سنة ٤٠٦ دون أن ينتزع محمد بن حسن عن ولاية المدينة نفسها .

---

١ ابن عذاري ١ : ٢٧٣ وابن الأثير ٩ : ١٢٦ .

خليفة بن ورّوا (٤٠٦ – ٤٢٩)

خلّف ورّوا ولدين هما : خليفة وحماد ، وكان خليفة هو المقدَّم منهما ليرث زعامة أبيه ، ولكن زناتة لم تجمع كلّها على مبايعته إذ كان قسم منها يوالي عمّه خزرون بن سعيد[١] ، وكان محمد بن حسن يشعل بينهما نار الفتنة ، فاستطاع خليفة أن يتغلب على عمه وأن يستميل إليه سائر زناتة. وفي ذلك العام (٤٠٦) توفّي باديس وخلفه ابنه المعزّ أميراً على إفريقية (٤٠٦ – ٤٥٣) فعزل المعز الوالي محمد بن حسن عن طرابلس وأقام مقامه أخاه عبد الله بن حسن ، وفي هذه الأثناء كان حماد بن ورّوا يضرب على أعمال طرابلس وقابس ويواصل عليها الغارة والنهب (٤٠٦ – ٤١٣) .

ولما استرجع المعزّ محمد بن حسن عن طرابلس جعل إليه أمور المملكة فأقام على هذه الحال سبع سنين ، ولكن السعاة غيروا من قلب المعزّ نحوه فقتله[٢] ، فاستاء من ذلك أخوه عبد الله والي طرابلس ، فما كان منه انتقاماً لأخيه إلاّ أن مكّن خليفة بن ورّوا من الاستيلاء على المدينة ، فدخلتها زناتة وقتلوا الصنهاجيين ونزل خليفة في قصر عبد الله وأخرجه منه وصادر أمواله[٣] .

وانتشى خليفة بهذا النصر فاستغل الأسطول الطرابلسي في مهاجمة بعض أحلاف المعزّ بن باديس ، ووردت الأخبار بذلك إلى المعز عام ٤١٤ فحشد

---

١ ابن الأثير ٩ : ١٧٨ .

٢ يذكر ابن الأثير أنه لم يحمل خلال السنوات السبع شيئاً مما جباه للمعز وكان يكاتب من يكاتبهم المعز أصالة عن نفسه دون أن يأخذ رأي المعز (٩ : ٢٣٠) .

٣ ابن الأثير ٩ : ٢٣١ .

في المهدية أسطولاً وفّر له الاستعدادات اللازمة وبنى قطعاً حربية في وقت قصير وخرج به قاصداً طرابلس[1] . وتسكت المصادر بعد ذلك عن ذكر ما تم لهذا الأسطول ، ولكن يبدو أن المعزّ لم يستطع أن ينتصر على خليفة نصراً مؤزراً ، ولذلك نرى وروّا عام ٤١٧ يكتب إلى الخليفة الظاهر (٤١١ — ٤٢٧) بأنّه في طاعته ، وأنّه متكفل بحفظ السابلة ، فأقرّه الظاهر على ذلك ، ثم إنّه كتب إلى المعزّ في السنة نفسها كتاباً مع أخيه حماد وحمّله هدية إليه ، فتقبل المعز هديته وكافأه عليها[2] واطمأنّت به الحال في ولاية طرابلس إلى حين .

وفي أوائل عهد وروّا (أي سنة ٤٠٧) انتقض أهل طرابلس على المذهب الشيعي كما انتقض أهل إفريقية ، وقاموا بذبح الشيعة الموجودين بينهم، وكان قائد هذه الحركة هو الفقيه أبو الحسن بن المنمر الذي قطع من الأذان « حيّ على خير العمل » وردّ ما طمسه العبيديون من معالم المذهب السنّي[3] .

سعيد بن خزرون (٤٢٩)

عندما نشأ النزاع بين خليفة بن وروّا وعمّه خزرون وانتصر خليفة هاجر خزرون إلى مصر واستوطنها ونشأ فيها ابناه المنتصر وسعيد ، ثم إن فتنة هاجت بين جماعتي الجند : الأتراك والمغاربة ، فانتصر الأتراك وأجلوا المغاربة عن

---

١ ابن عذاري ١ : ٣٩٠ .

٢ ابن خلدون : ٤٢ — ٤٣ .

٣ رحلة التجاني : ٢٦٥ — ٢٦٦ .

مصر ، وكان في جملة من جلا سعيد بن خزرون وأخوه المنتصر ، فنزلا في نواحي طرابلس ، ثم سما سعيد إلى طرابلس واستولى عليها وظلّ والياً حتى توفّي سنة ٤٢٩ .

خزرون بن خليفة بن ورّوا (٤٢٩ ـ ٤٣٠)

يذهب التجاني إلى أن الوالي السابق سعيد بن خزرون قتلته زغبة سنة ٤٢٩ ، وقد استشكل ابن خلدون على هذا لأن زغبة لم تصل إفريقية إلاّ بعد سنة ٤٤٠ إلا إن كان بعض بطونها قد هاجر في تاريخ مبكر ، وهذا شيء لم يرد عند أحد من المؤرخين[1] ، وعلى الرغم من أن ابن خلدون يثير هذا الاعتراض فإنّه هو نفسه يتحدث في غير موطن من كتابه عن قتل زغبة لسعيد بن خزرون[2] ، وإذا أخذنا بهذا الرأي وجب علينا أن نجعل حكم سعيد بعد سنة ٤٤٣ أو أن نفترض أن سعيداً الذي قتلته زغبة شخص غير الذي تقدم ذكره . أترى أن التجاني حين ذكر ٤٢٩ كان يعني ٤٤٩ ؟ إذا صحّ هذا تغير تاريخنا للفترة التي حكم فيها بنو خزرون بعد سعيد .

وأيّاً كان المسؤول عن مقتل سعيد فإن الذي خلفه هو خزرون بن خليفة حفيد ورّوا ، المتقدم الذكر ، وكان أبو الحسن بن المنمر الثائر على التشيع من أكبر شخصيات طرابلس الدينية ، ففتح المدينة له فدخلها وأقام فيها أشهراً ، ثم لما كان شهر ربيع الأول من سنة ٤٣٠ وصل المنتصر بن خزرون يقود عساكر

---

١ ابن خلدون ٧ : ٤٣ .

٢ انظر مثلا ٦ : ٤٠ .

زناتة ، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس ودخلها المنتصر وعاقب أبا الحسن ابن المنمر بمصادرة أملاكه وبنفيه من البلد ونكّل بأقاربه وعذبهم [1] .

المنتصر بن خزرون (٤٣٠ ـ ٤٦٠)

في أيامه جدّد المعز محاولاته لأخذ طرابلس فهاجمها في عام ٤٣٠ ، فبرزت إليه زناتة وهزمته ، وكانت أخته أم العلو بنت باديس في الأسرى ، غير أن المنتصر أطلقها وردّها إلى أخيها . وهاجم المعزّ زناتة مرّة أخرى ، ولم تكن حاله في الهجوم الثاني خيراً من الأول ، ثم عاود الهجوم ثالثة فكان النصر حليفه ، وأذعنت زناتة لسلطانه واتقته بالمهادنة ، وهدأت الأحوال من حول المنتصر ، وفي أيام المسالمة بينه وبين المعز أهدى إليه المعز هدايا كثيرة وأعطاه مائة ألف دينار دفعة واحدة [2] .

وفي أيامه داهمت العربان إفريقية ودارت بينها وبين زناتة حروب طاحنة في منطقة طرابلس ، ثم وجد المنتصر أنّه لا قبل له بها ، فاكتفى بحكم طرابلس ـ البلد وحده ـ تاركاً ما حوله كلّه لزغبة ، ثم جاءت سليم فدفعت زغبة عن ضواحي طرابلس واستقرت فيها ، ورأى المنتصر أن من مصلحته محالفة القبائل البدوية من بني عدي الهلاليين فشاركهم في غزو مملكة بني حماد وهاجم المسيلة وأشير ولكن ناصر بن حماد استطاع أن يهزمه ففرّ إلى أشير وتحصن فيها ،

---

١ رحلة التجاني : ٢٦٧ وأن وفاة ابن المنمر سنة ٤٣٢ تحتّم أن يكون خزرون قبل هذه السنة وأن يكون صاحب طرابلس حينئذ هو المنتصر ، إلا أن يكون هناك اضطراب آخر في حكاية هذه الوقائع .

٢ ابن عذاري ١ : ٤٢٦ .

فكاتبه الناصر يطلب المصالحة ، فتمت بينهما على أن تكون للمنتصر ضواحي الزاب وريغة ، ثم إن الناصر أوعز إلى أحد حلفاء المنتصر بقتله فقُتل غيلة سنة ٤٦٠ .

وكان قاضي طرابلس أيام المنتصر هو محمد بن فاضل البكري الإفريقي ، ففرّ عنها خوفاً من أهلها سنة ٤٤٤ لأسباب نجهلها فنصب مكانه أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن هانش الذي بقي يتولى قضاءها حتى سنة ٤٧٧ [١] .

وبعد مقتل المنتصر يغدو تاريخ بني خزرون في طرابلس غامضاً ، ويكتفي ابن خلدون بقوله « وولي طرابلس آخر من بني خزرون لم يحضرني اسمه . . . واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة ٥٤٠ » [٢] ، وهذا تاريخ طويل يقارب قرناً من الزمان ، تحققت فيه سيادة القبائل العربية على أكثر نواحي الشمال الإفريقي ، ولا ريب في أن زناتة في طرابلس لم يعد لها من السلطان الشيء الكثير بعد ذهاب المنتصر . وفي سنة ٤٧٥ نجد تميم بن المعز (٤٥٤ — ٥٠١) يولي على طرابلس ابنه مقلّداً [٣] مما يدل على أن المدينة عادت لصنهاجة ، ومع ذلك نجد صاحب المنهل العذب يذكر أن خليفة بن خزرون أخا المنتصر كان هو صاحب طرابلس حتى سنة ٤٨٨ وأنّه اشتد عسفه على أهلها فما كاد يلوح لهم رجل غُزّي مغامر قادم من المشرق حتى رحبوا به وسلّموه البلد وأخرجوا خليفة منها .

وهذا الغُزّي هو شاهملك التركي ، أبلغه التطواف مع بعض أصحابه إلى مصر في أيام الأفضل ابن أمير الجيوش فأعطاه إقطاعاً ومالاً وتلقاه بإكرام ، ولكن بلغ الأفضل عنه ما اضطره إلى إبعاده عن مصر ، فهرب هو وأصحابه

---

١ رحلة التجاني : ٢٦٣ .
٢ ابن خلدون ٧ : ٤٤ .
٣ ابن عذاري ١ : ٤٣١ .

وتوجهوا إلى المغرب ، فلمّا وصل طرابلس تقبله أهلها أميراً تخلّصاً من أميرهم ، فلمّا سمع تميم بن المعز بخبره أرسل العساكر إلى طرابلس ، فاستولت عليها ، وقبضت على شاهملك وأُخذ إلى تميم[1] .

ثم إن محمد بن خزرون بن خليفة تولاّها بعده وقرَّب إليه شيوخ بني مطروح من رؤسائها ، وبمحمد هذا خُتمت أسرة بني خزرون واستولى الأسطول الصقلي على مدينة طرابلس[2] .

---

١ ابن الأثير ١٠ : ١٦٤ .

٢ انظر المنهل العذب ١ : ١٢٨ — ١٣١ .

موجة القبائل العربية في ليبيا

استيطانها ونتائجه

يتفق المؤرخون على أن العامل المباشر الذي أدّى إلى أن تجتاز القبائل العربية نهر النيل غرباً إلى إفريقية هو سخط الدولة الفاطمية على المعز بن باديس حين قطع الدعوة للفاطميين وتحوّل بها للعباسيين . وكانت الدولة في تشجيعها القبائل على المضيّ غرباً تحقق غرضين معاً : تتخلص من هؤلاء الأعراب الذين يعيثون فساداً في شرق النيل ، وتضرب بهم دولة الصنهاجيين ، ويلخص ابن خلدون نصيحة الوزير اليازوري للخليفة المستنصر بتولية مشايخ هؤلاء الأعراب أعمال إفريقية فيقول : « فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة ، وعمالاً بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من صنهاجة الملوك »[1] ، وإمعاناً في إغرائهم على الجواز دفعت الجوائز الكبيرة لأمرائهم وأعطي لكل واحد من عامتهم بعير ودينار ، وقال لهم الخليفة : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون »[2] ، ويقول ابن عذاري : إنّه لم يأمرهم بشيء لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصيته[3] .

وتحركت هذه القبائل مغرّبة فنزلت برقة وافتتحت أمصارها واستباحتها ، وخربت المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت ، وأقامت لهب (هيب)

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤ .

٢ المصدر نفسه وانظر أيضاً ٤ : ٦٢ .

٣ ابن عذاري ١ : ٤١٧ .

من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وعمرة بأرض برقة وسارت دباب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه ، حتّى وصلوا إلى إفريقية سنة ٤٤٣ [١] .

ورحب المعز بالطلائع من وفودهم ولم يحسب لهم حساباً، ولكنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتّى خربوا القيروان واقتسموا البلاد حين غلبوا عليها ، فكانت طرابلس وما يليها لزغبة ، وباجة وما يليها لمرداس بن رياح ، ثم عادوا فاقتسموها ثانية فكان لهلال من تونس إلى الغرب ، وهم هلال وزغبة والمعقل وجشم وقرّة والأثبج والخلاط وسفيان ، وتصرّم الملك من يد المعز بن باديس[٢] .

ومن الواضح أن بني قرّة الذين كانوا يحتلون الجبل الأخضر من برقة قد شاركوا أقرباءهم في الانسياح والغزو بزعامة شيخهم ماضي بن مقرب . ثم انضاف إلى جماعاتهم بنو خزرون الزناتيون رغم ما وقع من معارك بين الفريقين أول حلول القبائل منطقة طرابلس ، وقد تحدثنا كيف قام المنتصر ابن خزرون معهم بشن الحرب على بني حماد ثم كيف امتدت موجة سليم من برقة حتّى ولاية طرابلس ودفعت بني زغبة عن مواطنها الأولى .

وتوالت موجات الأعراب هؤلاء ، إذ يحدثنا ابن عذاري أن فريقاً منهم اندفع من برقة سنة ٤٦٨ ونزل حول القيروان . والحق أن هناك هجرتين كبيرتين قام بهما بنو سليم وهلال : هجرة أولى كانت غايتها الغزو ، وهي التي قضت على زعامة بني قرّة وبني خزرون وخربت القيروان ، ودقت على أبواب تونس وحطمت دولة المعز ؛ وهجرة ثانية قام بها إخوان المهاجرين

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤ وانظر تلخيص الخبر عن دخول العرب إلى إفريقية في تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٨٧ .

٢ ابن خلدون ٦ : ١٥ .

الأول يحفزهم ما أصابته طلائع المهاجرين من الفتح والغلبة وما حازوه من المغانم .

وقد قدّم لنا كتّاب القرن الخامس حتّى القرن التاسع معلومات تفصيلية عن استيطان هذه القبائل وتوزعها وتفرعاتها ، ولذلك فإن شئنا أن نتمثل هذه القبائل في مواطنها بليبيا فعلينا أن نرجع إلى الإدريسي وابن سعيد والتجاني والعمري وابن خلدون والقلقشندي .

وفي سبيل تكوين صورة مفصلة بعض الشيء نقول : نزلت بنو هيب من سليم أرض برقة من حدودها الغربية عند سرت حتّى العقبة الصغيرة من جهة الإسكندرية ، فسكن بنو أحمد منهم أرض أجدابية وجهاتها وهم يرجعون إلى شماخ وكانوا أنضر بني هيب حالاً وأعزهم لكونهم استوطنوا المنطقة المخصبة من برقة مثل المرج وطلميثة ودرنة ، ونزل إلى الشرق منهم سمال ومحارب ومعهم جماعات من رواحة وفزارة ، يقول الإدريسي : ومن آخر عمالة طلميثة (إلى جهة المشرق) قبائل هيب ورواحة ، وهم أهل إبل وأغنام وثروة وبلادهم آمنة وادعة [1] . وكان بعض بني كعب يسكنون برقة وعليهم نزل أبو بكر بن العربي ووالده حين غرقت سفينتهم ، ثم تحولت كعب من مواطنها تلك إلى نواحي قابس ، وخلفهم في مواطنهم أحياء من بني جعفر تارة ينتسبون إلى كعب بن سليم وتارة إلى فزارة ، ويقول النسابون إنهم من مسراتة — وهي بطن من هوارة — .

ونزلت دباب من سليم — وهي بطون كثيرة — بين قابس وطرابلس ، وأبرزهم بنو وشاح بن عامر ، وهم بطنان عظيمان : المحاميد وقد استوطنوا ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال ؛ ثم الجواري

---

١ نزهة المشتاق : ١٠٣ .

ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهراغة وزنزور . ويقول الإدريسي : إن المنطقة من طرابلس إلى صرت (وهي تشمل المجتنى وورداسا ورغوغا وتاورغا والمنصف وقصور حسّان والأصنام) داخلة في ملك قبيلتين هما دباب وعوف[1] .

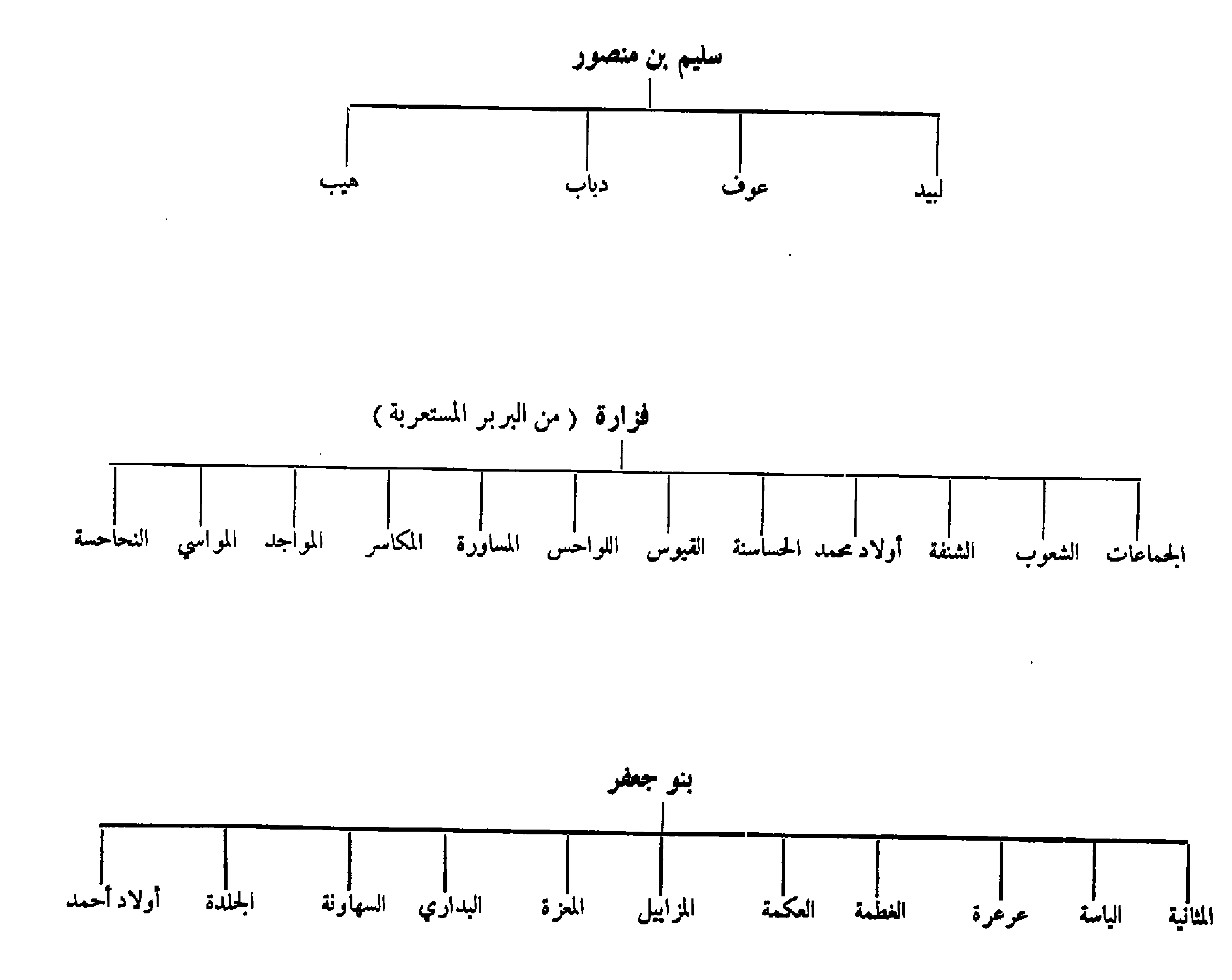
ومن بطون دباب هذه جماعات متزاحة في القفر ، فآل سليمان منهم ينزلون جهة فزان وودان وآل سالم ينزلون مسراتة ، والعلاونة مجاورون للعزة من عرب برقة . وإلى الجنوب من مواطن هذه البطون من دباب بين قصر العطش وقافز قبائل ناصرة وعميرة وهم من سليم أيضاً ، ويجاورهم من قافز إلى طلميثة قبائل بربرية متعربة يقال لها مزاتة وزيبانة وفزارة[2] .


وهذه جداول تبين تفرعات أهم القبائل :

---

١ نزهة المشتاق : ٩٠ .

٢ انظر نزهة المشتاق : ١٠٠ .


سليم بن منصور
لبيد
عوف
دباب
هيب
فزارة (من البربر المستعربة)
الجماعات
الشعوب
الشنفة
أولاد محمد
الحساسنة
القيوس
اللواحس
المساورة
المكاسر
المواجد
المواسي
النحاحسة
بنو جعفر
المثانية
الياسة
عرعرة
الفطمة
العكمة
المزاييل
المعزة
البداري
السهاونة
الجلدة
أولاد أحمد


لبيد (بن سليم بن منصور)
الصربات
الرواشد
العواكلة
الوزازير
العلاونة
السبوت
الموالك
السوالم
النسابة
الشبكة
الفلدوة
الشراعبة
النوافلة
الحواشنة
أولاد سليمان
قطاب
أولاد سلام
النعاقبة
البركات
البشرة
البواجنة
البلابيس
الرفيعات
القنائص
الحداددة
الحوتة
القصاص
الدروع

وقد ترتب على هجرة هذه القبائل واستيطانها نتائج خطيرة في منطقة ليبيا، فهم المسؤولون عن خراب العمران الذي وصفناه في فصل سابق، أو كما يقول ابن خلدون : « وجميع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل خربوا مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخهم »[1] ، ويقول في موضع آخر : « وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسّان وأمثالها فعادت يباباً ومفاوز كأن لم تكن »[2] . وفسدت في كثير من جهات برقة مذاهب المعاش وخاصة في مناطق الجعافرة ، وصار معاش أكثر العرب فيها من الملح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير ، أو ينتجعون إلى مناطق النخل في الواحات، أو يدخلون بلاد السودان[3] . وتطالعنا صورة هذا الخراب فيما كتبه الجغرافيّون والرحّالون من أمثال الإدريسي وابن سعيد والعبدري وفيه صورة مفارقة تماماً للصورة التي رسمها اليعقوبي وابن حوقل من قبل . ولما كان الإدريسي أقرب هؤلاء الكتّاب إلى عصر الاستيطان رأينا أن نحتكم إليه في تصور حال ليبيا : فهو يحدثنا أن المنازل بين قابس وطرابلس خلاء بلقع قد أتت العرب (أي الأعراب) على عمارتها وطمست آثارها وأخربت عمارها وأفنت خيراتها فليس بها (الآن) أنيس قاطن ولا حليف ساكن وهي مستباحة لقبيلة من العرب تسمى مرداس ورياح ؛ ويقول إن مدينة طرابلس كانت مفضلة العمارات من جميع جهاتها كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمة ونخل إلا أن الأعراب أضرت بها وبما حولها وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وغوّرت مياهها . فإذا وقف عند

---

١ ابن خلدون ٦ : ٧٢ .

٢ ابن خلدون ٦ : ١٠٣ .

٣ ابن خلدون ٦ : ٨٧ .

سرت تحدث عن بقايا نخيل وتين فيها وأنّه لا يوجد فيها زيتون «غير أن العرب تأتي على أكثر ذلك» . ولم يبق من أجدابية إلاّ قصران في الصحراء وقصور حسّان لا عامر بها وإنّما هي (الآن) خراب[1] .

ويتضح من هذه الصورة القاتمة أن العمران الزراعي — على وجه الخصوص — أصيب في ليبيا بالتعطل والضرر البالغ ، وأن ما بقي من مظاهر زراعية ، في النواحي المختلفة ، إنّما كان يقوم به السكان الأصليون ، فبقيت لبدة عامرة بالزيتون والنخيل ، ولكن العاملين فيها بربر من هوارة ، وبقي أهل سويقة متكود (مطكود) — وهم من هوارة أيضاً — ينتجون الشعير على السقي ، وظلّت زراعة القطن موجودة في برقة كما أن منطقة أجدابية بقيت تنتج قليلاً من الحنطة والشعير وضروب القطاني والحبوب ، ولم تتأثّر ود"ان كثيراً بل كانت الذرة ما تزال أهم محصولاتها ، والفواكه من توت وتين وتمر متوفرة فيها ؛ إلاّ أن هذا كلّه لا ينفي أن الغالب على الحياة الزراعية هو الركود والتخلف[2] .

وإذا قسنا الحياة التجارية بالحياة الزراعية وجدنا أن حالها كان أحسن نسبياً . فقد كان إلى الشمال من لبدة على نحر البحر قصر كبير عامر آهل به صناعات وسوق عامرة ، وكانت سويقة ابن متكود ذات سوق ، وظلت المراكب رغم خراب سرت وأجدابية تتردد إليهما بالأمتعة النافقة فيهما ؛ وظلّت برقة تهتم بتجارة الجلود المدبوغة وتصدر الصوف والعسل والزيت وتربتها الكيماوية التي كان الناس يستعملونها دواء للجرب والحكة ، كذلك لم تفقد أجدابية نشاطها التجاري ، وكان قصر طلميثة ما يزال حصناً تقصده المراكب بالمتاع

---

١ نزهة المشتاق ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ .

٢ مواضع متفرقة من نزهة المشتاق .

الحسن من القطن والكتان وتأخذ منه العسل والسمن والقطران. ويجب أن نميز نشاط عنصر جديد — إلى نشاط البربر — في هذه التجارات والصناعات، أعني الجالية اليهودية التي انبثت في بعض المراكز التجارية بليبيا.

ولم تكن العلاقة بين هؤلاء البدو المستوطنين والسكان الأصليين علاقة وئام دائماً، وإنّما كثيراً ما تعرّضت حياة الفريقين إلى التنافر الذي يؤدي إلى القتال وانتهاز الفرص، وكان توزُّع شيوخ القبائل وأمرائها للأرض يشبه نوعاً من النظام الإقطاعي، ولذلك فإنّهم كثيراً ما نظروا إلى المستوطنين نظرتهم إلى الأقنان، وكانوا في الغالب يتقاضون من العاملين في الزراعة والتجارة ضرائب وإتاوات معلومة، ومارسوا على السكان الأصليين نوعاً من التسلط تتضاءل فيه الحماية إذا قيست بالمنفعة القائمة على الابتزاز.

وكان كثير من هؤلاء الأعراب خطراً على الحجاج والتجار والرحالين حتى أضحت البلاد كما قال العبدري من بعد: «لا يسلكها إلاّ مخاطر، ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر، وقد استوى لديهم الصالح والطالح، واتفق في مذاقهم — لكفرهم ونفاقهم — كلُّ عذب ومالح، اتخذوا أخذ الحجاج خلقاً وديناً، واعتقدوا إهلاكه ملّة وديناً»[1] وقد ردد الرحالة الآخرون هذه المخاطر، ومعنى ذلك أن سيادة العربان حرمت ليبيا من نشاط اقتصادي كان يقوم به هؤلاء الحجاج والتجار والرحالون، كما حرمتها من حركة علمية كانت تعتمد على مرور العلماء بليبيا. وقد شهرت بعض المناطق بالقبض على الحجاج وبيعهم رقيقاً، وسواء أصح ذلك أو لم يصح فقد ترك سمعة المنطقة مشنوعة في نفوس الراحلين إلى المشرق.

وهؤلاء البدو هم الذين أوحوا إلى ابن خلدون في المقدمة نظراته الاجتماعية

---

١ الرحلة المغربية: ٧٦.

الحضارية عمَّن أسماهم العرب ، وهم في رأيه « العرب المستعجمة » أعداء العمران والحضارة ، وما ذلك إلاّ لأنّهم وجهوا تاريخ المغرب كله – وليبيا في هذا المقام – بطبيعة حياتهم وسلوكهم وبموالاتهم لمن يوالون ومعاداتهم لمن يعادون ، وسيعتمد الجانب الأكبر من تاريخ ليبيا – منذ الآن – على حركاتهم ومغامراتهم وبطولاتهم .

وهم الذين خلّد الأدب الشعبي « تغريبتهم » بما تصوّره الخيال الشعبي لهم من بطولات وملاحم ، وخاصة عند اصطدامهم بزناتة . قال صاحب المؤنس : « والزناتيون هم الذين يثني عليهم عدد من العمال ويذكرون كثيراً من جملة أخبارهم عندما يذكرون سيرة بني هلال ، وما جرى لهم مع خليفة الزناتي ، ولأهل طرابلس اهتمام بسيرتهم حتى لا يُذكر بينهم حديث إلاّ بها ، وكذلك عند عوام أهل مصر لها صيت لاستماعها »[1] .

وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية اللغة والجنس وجدنا أن هؤلاء الأعراب هم الذين رسخوا حركة « التعريب » في ليبيا ، سواء من حيث اللغة أو العادات أو الانتساب إلى أصول عربية ، قال ابن خلدون عند الحديث عن بني يفرن وهوارة : « وقد تبدوا معهم (أي مع قبائل بني سليم) ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم »[2] . وقال عن هوارة في موضع آخر : « صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزيّ وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم قد نسوا رطانة البربر ، واستبدلوا منها

1 المؤنس : ٨٢ .
2 ابن خلدون ٦ : ١٠٣ .

بفصاحة العرب فلا يكاد يفرّق بينهم »[1] . بل إن كثيراً منهم نسوا أنسابهم وانتسبوا إلى أصول عربية ، واختلطوا بالعرب ، بالجوار والنسب ، وضاعت الفوارق بينهم ، وانتحلوا طرائق العرب في النجدة والجود واستعمال الرماح وركوب الخيل وغير ذلك . ومهما يكن التخريب الذي أحدثوه ، فإن ليبيا تدين لهم بغلبة العنصر العربي جنساً ولغة ، وقد شهد لهم العبدري بالفصاحة والمحافظة على الإعراب على مرّ الزمن .

ولما استطعم بعضهم حياة الاستقرار أنشأوا رباطات للجود ، سمّوها الزوايا ، كانوا يستقبلون فيها المسافرين والأضياف ، وقد رأى التجاني منها زاويتين : الأولى زاوية أولاد سهيل وهم من العمور الوشاحيين ، ولما توفي سهيل سنة ٦٣٧ خلفه أبناؤه في رعاية المجتازين والتكفل لهم بالزاد واسترداد ما قد يأخذه منهم الأعراب البادون ، وقد رأى التجاني في هذه الزاوية كتباً محبسة ، ممّا يدلّ على أن حياة الاستقرار قد غيرت كثيراً من مظاهر البداوة في أولئك الناس . أما الزاوية الثانية فكانت أضخم من الأولى وأكثر رجالاً ومباني ، وتلحق بها أرض واسعة ، وتسمى زاوية أولاد سنان وهم إخوة الوشاحيين والنوائل (أبناء نائل) . ومن اللافت للنظر أن تكون هذه الزاوية لحفدة صابر ابن عسكر والد مرغم الدبابي ، وكان صابر هذا مشهوراً بتعذيب البربر ، أمّا ابنه مرغم هذا فسوف نشهد له جولات في تاريخ طرابلس ؛ وكانت حول هذه الزاوية تقام أسواق الأعراب ومجامعهم[2] .

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤١ .

٢ رحلة التجاني : ٢١٢ — ٢١٤ .

أحوال برقة منذ استيطان القبائل العربية

حتى مطلع القرن التاسع

٤٤٣ - ٨٠٣

قد عرفنا ما حلّ بالناحية العمرانية من برقة بعد حلول القبائل العربية فيها ، وكيف هاجرت منها بنو قرّة ، ثم بطون من كعب ، وغلبت على أنحائها بنو سليم . وكانت نتيجة هذا كلّه أن أصبح تاريخ برقة — حتّى فترة طويلة من الزمن — هو تاريخ الوحدات القبليّة التي يرئسها شيوخ السُّلَميين ، أي أصبحت الحياة السياسية فيها ترتبط بزعامات قبليّة ، وفقدت البلاد حقيقة الحكومة النظامية وما تستلزمه من جيش وشؤون إدارية ووحدة إقليمية وأعمال عمرانية وغير ذلك .

ومن الصعب أن نتتبّع تلك الزعامات ونتخذها أساساً لفهم تاريخ برقة لأن المصادر لم تفردها بالعناية ، وبذلك وجد بين مصر وولاية طرابلس منطقة تشبه أن تكون « مفرّغة » يعيش أكثر أهلها على التنقل ويرعون مساقط الغيث ومواقع الكلأ . وزاد هذا الفراغَ اتساعاً — في الوضع التاريخي على الأقل — أن الحروب الصليبيّة في المشرق ثم الغزو التتاري من بعدها ألهت حكام مصر عن الالتفات إلى منطقة برقة ، وتلهّى أهل الجانب الغربي بما دهمهم حيناً من هؤلاء الأعراب أنفسهم وحيناً بالأخطار الآتية من صقلية أو جنوة أو الأندلس ، فازداد الانفصال بين شرق العالم الإسلامي وغربه حينئذ ، وشغل كل جانب بما يليه ، وأصبحت برقة بين هذين العالمين مراعي لقبائل وحللاً لمشيخات ، حتّى لنستطيع أن نقول إن ما يسمّيه العرب « مفازة لوبية » قد ازداد اتساعاً .

وتكاد هذه الصورة العامة أن لا تختل بتدخلات طارئة وبمحاولات لإثبات السيادة ، أو بدعاوى عن وجودها ، فقد كان قصارى جهد السلطان في العصر المملوكي في كثير من الأحيان أن يرسل الجيوش لطرد الأعراب عن حدود مصر ، فإذا تغلغل هؤلاء الأعراب في جهة برقة عادت الجيوش إلى قواعدها وقد أدّت واجبها .

وأول ما يعترضنا في هذا المقام رسالة موجهة من نور الدين زنكي إلى الخليفة المستضيء يقول فيها : « وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب »[1] . ولتفسير الملابسات المتصلة بهذه الرسالة علينا أن نرجع قليلاً في الزمن ونرى صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه يقومان بالاستيلاء على مصر وإزالة الدولة الفاطمية باسم نور الدين . ولكن حوالي سنة ٥٦٧ نشأت بين نور الدين وصلاح الدين وحشة أثارتها بعض العوامل حينئذ ، ففكر صلاح الدين — فيما قدّره التجاني — في أن يكون له ملاذ يلتجيء إليه إذا هو اضطر إلى التراجع أو الانسحاب من مصر أمام جيوش نور الدين ، وكان أنسب شيء لذلك أحد قطرين : اليمن أو المغرب ، فتوجه أخوه تورانشاه إلى اليمن لفتحها ، وتوجه ابن أخيه المظفر تقي الدين إلى المغرب لمثل تلك الغاية[2] .

فإذا أردنا أن نفسّر ما جاء في تلك الرسالة كان علينا أن نفترض أن جيوش تقي الدين قد استطاعت أن تستولي على أجزاء من برقة ، وأن صلاح الدين أخبر نور الدين بما تمّ على يدي ابن أخيه (دون اطلاعه طبعاً على ما

---

١ مفرج الكروب ١ : ٢٣٥ .

٢ رحلة التجاني : ١١١ — ١١٢ .

افترضه التجاني من غاية) ، فكتب نور الدين بذلك إلى الخليفة ؛ وإذا قبلنا هذا التفسير وجب أن نرفض قول التجاني إن تقي الدين أحجم عن القيام بتلك المهمة عندما عرف طبيعة برقة وسيادة العربان فيها [1] ، أو أن نعدلها قليلاً بحيث نقول : إن تقي الدين لم يستمر في الفتوحات التي تزعمها الرسالة وإن وصوله إلى « حدود المغرب » أي ولاية طرابلس مبالغة واضحة .

وسواء أصحّ تعليل التجاني للغاية التي كان يريدها صلاح الدين من وراء هذه الحملة أو لم يصحّ – وأنا أراه تعليلاً قاصراً عن تفسير خطة صلاح الدين – فإن هذه « التغريبة » التي قام بها المظفر فتحت أعين اثنين من مواليه هما قراقوش الأرمني وإبراهيم بن قراتكين السلاح دار على منطقة ليبيا ، وما تهيئه لكلّ منهما من فرص ، فهرب كلّ منهما بطائفة من الجيش ؛ فأمّا إبراهيم بن قراتكين فاجتمع حوله جماعة من العربان ساروا معه حتى بلغوا قفصة واحتلوها ، وبقي هو فيها إلى أن قتله المنصور يعقوب الموحدي . ويقول المقريزي إن إبراهيم ملك – مع قراقوش – مدينة غدامس ، وقرّر على أهلها اثني عشر ألف دينار ، ثم سار إبراهيم إلى جبال نفوسة فملك عدة قلاع وصار إليه مال كثير ورجال [2] ، ولكن يبدو أن المقريزي قد نسب إلى إبراهيم ما نسبته المصادر الأخرى إلى قراقوش .

وأما قراقوش الملقب بالمظفري – لأنّه مملوك المظفر – وبالناصري ، لأنّه كان يدعو للناصر صلاح الدين ، فإنّه اتخذ سنة ٥٧٣ طريقه إلى سنترية (واحة سيوه) فافتتحها وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين ، ثم مضى إلى أوجلة فأخذ من صاحبها عشرين ألف دينار فرقها في أصحابه وعشرة

---

١ رحلة التجاني : ١١٢ .

٢ السلوك ١ : ٦٥ .

آلاف دينار لنفسه ، وسار منها إلى زلّة فبلغه موت صاحب أوجلة فعاد إلى أوجلة وحاصر أهلها فامتنعوا عليه ، فاحتلها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل وغنم منها غنيمة عظيمة[1] . ثم تقدم إلى زويلة فأزال منها دولة بني خطاب وقتل صاحبها آخر أمراء الخطابيين وهو محمد بن خطاب بن عبد الله بن زنفل (. . . .) بن خطاب ، وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين ، ولم يزل سائراً يفتتح البلاد الليبية التي يمر بها حتى وصل إلى نواحي طرابلس[2] ، وسنتابع الحديث عن أعماله الحربية الأخرى حين نتحدث عن تاريخ طرابلس في فصل تال .

وقد اعتمدنا في تحديد التاريخ الذي خرج فيه قراقوش لفتح سنترية وأجزاء أخرى من ليبيا على رواية المقريزي . غير أن ابن واصل الحموي يجعل تاريخ خروجه سنة ٥٦٨[3] ، أي قبل وفاة نور الدين ، فهل تكون إشارة نور الدين في الرسالة السابقة إلى أعمال قراقوش نفسه ؟ أستبعد ذلك ، فأكثر المؤرخين متفقون على أنه لم يحاول ذلك قبل عام ٥٧١ .

على أنا يجب أن نتنبه إلى أن أعمال قراقوش في ليبيا عامة كانت باسم صلاح الدين (وتقي الدين) أي أنه — ولو ظاهرياً — لم يشأ أن يكوّن ملكاً لنفسه ، وأنه بهذا كان ينال رضى صلاح الدين لأنه يكفيه أمر الجهة الواقعة إلى الغرب من مصر ، ويعمق حدوده الدفاعية ، ولذا نجد صلاح الدين يقول في رسالة بقلم القاضي الفاضل موجهة إلى الخليفة الناصر لدين الله : « ونحن والحمد لله قد ملكنا ما يجاور منه (من المغرب) بلاداً تزيد مسافتها على شهر ،

---

١ السلوك ١ : ٦٠ .
٢ رحلة التجاني : ١١٢ — ١١٣ .
٣ مفرج الكروب ١ : ٢٣٥ .

وسيرنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : لك – برقة – قفصة – قسطيلية – توزر . . . . . »[1]. ولا يستغرب في هذه الرسالة إلا قوله «وسيرنا عسكراً . . . » كأنّه يذهب إلى أن هذه الحملات التي كان يقوم بها قراقوش كانت موجهة بأمر من السلطان ؛ نعم إنّه ليس من الغريب أن يتبنى صلاح الدين أعمال قراقوش لأن هذا يخطب باسمه ، كما يتبنى الخليفة ببغداد أعمال صلاح الدين نفسه لأن صلاح الدين أيضاً يخطب باسمه ، ولكن من الغريب أن يقول : وسيرنا عسكراً بعد عسكر ؛ أوَتلك هي جريرة التعبير الفاضلي عن حقيقة لم يكن صلاح الدين يدعيها ؟

على أن أعمال قراقوش التي انتهت بمقتله سنة ٦٠٩ هـ. لم تربط بين ليبيا والدولة الأيوبية برباط متين لانشغال تلك الدولة بالحروب الصليبية ولإخفاق قراقوش نفسه في الاحتفاظ بما استولى عليه .

ثم تحتجب عنا أخبار برقة مدة غير قصيرة ، أي حتى عصر الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦) إذ نسمع أنّه قد وكّل إلى شيخ من شيوخ القبائل وهو عطاء الله بن عزاز الملقب بسيف الدين ليكون الزعيم المقدّم على عرب برقة (سنة ٦٦٢) وألزمه بجباية زكاة المواشي وأخذ عُشر الزروع والثمار بفريضة الله ، وأنعم عليه بسنجق ونقّارات ، فتوجه سيف الدين لما أمر به السلطان[2] .

وعطاء الله بن عزاز هذا من بيت عزاز بن مقدّم من بني سليم ، وكانوا هم أصحاب الإمرة في برقة وقد وصفه العمري بأنّه «كان للقرى والقراع مطاعاً في قومه» ومن بنيه معز وعمر ، وقد اشتهر من بني عزاز شيوخ

---

١ صبح الأعشى ١٣ : ٨٧ .

٢ السلوك ١ : ٥٢٠ .

كثيرون كان لهم الإمرة – أيام الدولة المملوكية – على قبائل برقة[1] .

ومن هذه التولية التي نالها عطاء الله بن عزاز ندرك أن نفوذ الدولة المملوكية على عربان برقة لم يكن يتعدّى جمع الزكاة والأعشار ، وكانت هذه العلاقة تؤيد بمظاهر التشريف والتولية من قبل السلطان (أي السنجق والنقارات في هذه الحال) ، وكان شيوخ العرب يمتثلون لبعض طلبات السلطان امتثال الحليف إذا انتدبهم لبعض المهمات ، كحفر الآبار في طريق الجيش أو القيام بالنجدة[2] ؛ ولكن هذا النفوذ لم يكن سارياً على جميع النواحي ، ولم يكن متشابهاً في جميع العهود والأعوام ؛ إذ اننّا نجد حتى في زمن الظاهر بيبرس وبعد تولية عطاء الله ابن عزاز على عربانها أخباراً تدلُّ على أن السلطان الظاهر نفسه كان بحاجة لإرسال الجيوش إلى برقة لإثبات سلطانه ، ففي سنة ٦٧١ استولى – كما يقول المقريزي – على عامة مدن برقة وحصونها[3] ؛ وهذا الخبر مجمل قاصر عن توضيح الموقف على حقيقته ، لأنّنا نجد في أحداث السنة التالية (٦٧٢) أن بعض أجزاء برقة لم تعترف بالتنظيم الذي قام به الملك الظاهر من قبل ، فقد امتنع أحد أمرائها واسمه «بلبوش» عن دفع الزكاة ، وكان الظاهر بيبرس غائباً في الشام ، فقام الأمراء الموالون للسلطان المملوكي وفيهم عطاء الله بن عزاز ، ومقدّم بن عزاز ، وهاجموا الأمير الذي أعلن العصيان ، وكسروا جيشه وأسروه وأرسلوه إلى القاهرة ؛ ويبدو أن المنطقة التي كان يسيطر فيها بلبوش من ولاية برقة كانت منطقة واسعة ، إذ استولى الجيش الموالي للظاهر

---

١ مسالك الأبصار ٤ : الورقة ١٠٠ .

٢ انظر مثلا السلوك (١ : ٥٩٠) حيث ندب بيبرس قبائل برقة للمسير إلى نجدة صاحب تونس عند غزو الفرنسيس لها ، وطلب إلى السكان حفر الآبار ليسهلوا على العساكر اجتياز تلك القفار .

٣ السلوك ١ : ٦٠٨ .

عند أسر ذلك الشيخ على ستين أو سبعين برجاً تسميها العربان بالحصون ؛ ولمّا عاد الظاهر من الشّام أحسن إلى بلبوش وأعاده إلى الإمرة ، غير أنّه توفي بعد فترة يسيرة [1] .

ويبدو لنا مدى الغموض في تاريخ برقة — أو تاريخ بعض أجزائها على الأقل — قبل عهد الظاهر بيبرس إذا نحن صدّقنا ابن الفرات في قوله عن بلبوش : « ولهذا بلبوش ثلاثون جدّاً ، مُلاّك برقة ، وما أطاعوا أحداً قطّ » [2] .

واستمر الظاهر في سياسته تجاه برقة وفي عنايته لاستمالة من بها من العربان ، واستخراج الزكاة منهم ، وكلّما عصى واحد منهم اضطر إلى إرسال جيش لاستعادته إلى حيز الطاعة . وفي أحداث عام ٦٧٤ ، أنّه استولى على طلميثة [3] . ويعدُّ هذا الاستيلاء نوعاً طريفاً من الاعتراف بالسلطة ، فقد كان السلطان بيبرس بعث صارم الدين أزبك في جماعة من الأجناد و العرب والمماليك لعداد الأغنام في برقة ، فعاد رسول الملك المكلف بهذا الشأن ومعه صاحب مدينة طلميثة ومفاتيحها معه [4] . كذلك يخبرنا ابن الفرات نفسه أن السلطان استولى بعد سنتين على قلعة في برقة تسمى « قلعة العميدين » [5] ، وكل ذلك يشير إلى أن السلطان لم يستولِ « على عامة مدن برقة وحصونها » سنة ٦٧١ حسبما ذكر المقريزي .

غير أنّا إذا قسنا جهود الظاهر بيبرس لإثبات نفوذه في برقة إلى جهود خلفائه وجدنا أنّه حاول عمليّاً أن يجعل للقبائل فيها تنظيماً وأن يجعل

---

١ تاريخ ابن الفرات (مخطوطة فينا ، الورقه ٢١٨ — ٢١٩ حوادث عام ٦٧٢) .

٢ المصدر نفسه .

٣ تاريخ ابن الفرات ٧ : ٤٣ .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاريخ ابن الفرات ٧ : ٨٣ .

شيوخها يحسّون بنفوذه ، بحيث لو تحدث المؤرخون عن أنّه استولى على عامة مدن برقة وحصونها لكان حديثهم مقبولاً على وجه الإجمال . ولكن بعض خلفائه لم يقف عند هذا الحدّ بل نرى المنصور قلاوون (٦٧٨ — ٦٨٩) يعتبر طرابلس الغرب نفسها داخلة ضمن سلطانه ، إذ يقول في نسخة الهدنة بينه وبين ملك أراغون البرشلوني : «على أن تكون بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الأشرف والملوك أولادهما . . . . وحدّها من البر الغربي من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانيها وطرابلس الغرب وثغورها وبلادها وموانيها إلى ثغر الإسكندرية ورشيد»[1] . ويقول في نسخة هدنة مع الجنوية : «سلطان طرابلس الساحل إلى طرابلس الغرب»[2] . لقد كتب بعض هذه النصوص سنة ٦٨٩ ، ولا تفسير لهذا إلا أن الشيخ مرغم بن صابر — زعيم دباب — كان يستولي على البلاد باسم المنصور قلاوون بعد أن عاد من أسره سنة ٦٨٩ مع أبي دبوس ، وهذا ما سنفصله عند الحديث على تاريخ طرابلس .

ومن المفيد أن نجد اثنين من الرحالة قد وصفا لنا أحوال برقة في القرن السابع الهجري ، وهما ابن سعيد والعبدري ، ولعلّ الأول قد دوّن معلوماته عنها في النصف الثاني من هذا القرن ، أمّا العبدري فمن الواضح أنّه يكتب مستوحياً مشاهداته وهو يخترق منطقة برقة ذاهباً إلى الحج عام ٦٨٩ أيضاً .

وإليك صورة برقة (وبعض أجزاء طرابلس) كما رسمها ابن سعيد :

١ — سرت : وهي من القواعد القديمة المذكورة في الكتب وعلى ألسن المارة وقد خرّبها العرب ، ولم يبق منها إلا قصور يسكنها أتباعهم ، وكذلك جهاتها على الطريق قصور نجران (؟) العرب الذين يحرثون حولها .

---

١ تشريف الأيام والعصور : ١٥٧ — ١٥٨ .

٢ المصدر السابق : ١٦٦ .

٢ — أجدابية : منها إلى الفيوم محلات عرب وبرابر مقفرة .

٣ — أوجلة : جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحارى فيها ماء ونخل تحت خفارة هيب .

٤ — مجالات دباب من حدّ قابس إلى بئر السدرة من برقة .

٥ — إذا فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام .

٦ — قصور مسراتة تمتد نحو ١٢ ميلاً على زيتون ونخيل وأهلها من هوارة تحت خفارة دباب ، ولهم غرام بحمل الخيل إلى الإسكندرية ، وتجد منهم الحجاج معونة في تلك الطريق الشاقة .

٧ — بئر السدرة : أول مجالات هيب إلى العقبة الصغيرة من أرض الإسكندرية .

٨ — طلميثا : فرضة مشهورة هنالك وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب ، ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والقمح والشعير .

٩ — وفي شرقيها مدينة برقة التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخربها العرب ، ويقال لها اليوم مدينة المرج .

١٠ — درنا : كانت من مدن برقة المذكورة فخربها العرب وهي اليوم محسوبة من قصور العرب التي تأوي إليها اليهود وكلاهم (؟) على جزيتهم .

ويتضح من هذه الحقائق كيف أن فريقين من العرب كانا يسيطران على برقة هما دباب حتى بئر السدرة وهيب فيما وراء ذلك حتى العقبة الصغيرة وأن ما عداهم من السكان فهم تحت خفارتهم سواء أكانوا من هوارة أو من

اليهود القاطنين في طلميثا أو درنا ، وكانت أكثر البلاد التي عرفنا عمرانها من قبل قد ظلت – حتّى عصر ابن سعيد – مخربة لم تعمر ، وقد تغير اسم مدينة برقة في القرن السابع فأصبحت تدعى « المرج » .

أمّا العبدري فإنّه لا يصف البلاد وصفاً موضوعياً كما فعل ابن سعيد وإنّما يتحدث عن مشاعره نحو ما يراه وهو في طريق الحج ، وقد سمع أن بعض عربان برقة يعتدون على الحجاج ، ولذلك فهو يهتم بتصوير هذه الناحية تصويراً موشحاً بمبالغات السجع ، حتى إنّه ذهب يسأل نفسه : ما حكم السفر بهذه البلاد لقضاء الفريضة ؟ هل هناك رخصة في عدم الحج وهذه المخاطر مترصدة في الطريق ؟ ويجيب العبدري على ذلك بأن الحج الذي يحمل صاحبه على أن يقطع تلك المخاطر لا يستطيعه إلا من اضطرم قلبه وشرب من كأس الحب حتّى ارتوى . والعبدري ينظر إلى الخراب الذي طالعته به بلدان ليبيا نظرة محتقر حتّى ليحاول أن يغمط بعض البلاد حقّها من الوصف العادل النزيه، فيقول مثلاً في مصراتة (مسراتة) : « وشأنه أحقر من أن يعمل فيه الواصف مقوله أو أداته ، على أنه ذو قرى ظاهرة ، ومناظر عند ظهورها باهرة »[1] . وفي هذا – كما ترى – تناقض غير خاف . أما سرت فيقرب وصفه لها بالخراب من وصف ابن سعيد ، غير أنّه يقدم تفصيلات أوفى إذ يقول : « وهذا الاسم يطلق على عدة قصور بينها مسافة ، أولها يسمى الشبيكة وهو أعمرها في هذا الوقت وآخرها يسمى المدية ، وأكثر ما يطلق اسم سرت عليها وحكمها حكم القفار قلما يعمرها إلاّ الأعراب »[2] . وبعد سرت قطع العبدري بريّي سنان ومنهوشة وقد أدركته المخاوف الشديدة في اجتيازهما لأن « لصهما بطل

....

١ الرحلة المغربية : ٧٨ .

٢ المصدر نفسه .

لا يطاق » وتأدّى منهما إلى أرض برقة « فوجدنا برية هي أم البراري والقفار ، والمهامه التي يحار فيها أرباب الأسفار . . . سكنها من الأعراب كل فظ غليظ ، يحرج بجفائه الأحنف ويغيظ »[1] ومع هذا الإنحاء على الأعراب نرى العبدري يقرّ أنهم لا يتعرضون للحجاج بأذى – إلا في القليل النادر – ويقول العبدري إنّه ليست هناك مدينة تسمى برقة وإنّما يطلق الناس هذا الاسم على أرض ، والمغاربة يطلقونه على ما يقع غربي أجدابية حتى الإسكندرية ، أما أهل المنطقة فيطلقونه على ما يقع بين مارد الحصوي شرقاً وبرنيق غرباً .

وقد سجل لنا العبدري حقائق هامة عن أوضاع الناس في منطقة برقة حينئذ فذكر أن بيعهم قائم على المقايضة ، وأنهم لا يستعملون الدنانير والدراهم في معاملاتهم ، وأن المرأة بينهم تتحجب وتضع على وجهها خرقة يسمونها « البرقع » بينما قد يكون رأسها مكشوفاً وهي حافية القدمين . وقد أعجب هذا الرحالة المتذمّر بفصاحة عرب برقة وعلل ذلك بقلة ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره : « وهم الآن على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل ، ولا يخلون من الإعراب إلا ما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون »[2] .

وبعد بضع سنوات من مرور العبدري ببرقة أصيبت البلاد (سنة ٦٩٤) بجفاف لعدم نزول المطر ، فأجدبت بلدانها وعمّ الغلاء والقحط ، وكان جفافاً عامّاً أصاب بلاداً كثيرة منها مصر والحجاز[3] ، وتلاحقت الكوارث على برقة فمنيت (سنة ٧٠٢) بزلزال امتدّ حتى تونس ووصل مراكش وكانت آثاره في الخراب كثيرة[4] ؛ ويبدو أن موجة الخراب هذه استمرت أو ألمت ببرقة

---

١ الرحلة المغربية : ٧٩ .
٢ الرحلة المغربية : ٨١ .
٣ السلوك ١ : ٨١٠ وابن الفرات ٨ : ١٩٩ .
٤ الدر الفاخر ٩ : ١٠٢ .

مرة أخرى وأن أهلها غدوا من الجوع والقحط يموجون في فتنة أواخر عام ٧٠٧ ، ونُقلت إلى طرابلس أخبار تقول إن ركباً ينيف على سبعمائة نسمة كان ذلك العام مجتازاً ببرقة فلم يخلص منه سوى مائة أو نحوها ، وذلك أن أفراد الركب لم يجدوا شيئاً يأكلونه سوى لحوم الحيات فأهلكهم سمّها ، ثم إن الذين كُتبت لهم الحياة منهم كانوا يمرون في كثير من أرضها بالأحياء والخيام فيجدون الناس فيها موتى[1] . ومهما يكن طابع هذه الأخبار وحظها من التهويل فإنها تدل على أن برقة كانت تعاني مجاعة جارفة وبلغ من شيوع الفوضى بسبب هذه المجاعة أن غلبون بن مرزوق أمير آل سالم بن رافع — وهم من دباب — لم يكن يستطيع أن يخفر أي ركب ذاهب إلى الحج ، لا خوفاً من عدوان القبائل الأخرى ، وإنّما خوفاً من رجال قبيلته أنفسهم[2] .

وحوالي سنة ٧١٧ حلّ اللحياني الحفصي مدينة طرابلس فأصبحت أجزاء من برقة تابعة له ، لفترة قصيرة ، ولا نظن أن أسرة بني ثابت التي حكمت طرابلس بعد ذلك قد استطاعت الاحتفاظ بتلك الأجزاء . وظلّ أكثر برقة يدين بنوع من التبعية للسلطان المملوكي بمصر . ويخبرنا ابن حجر عن أمير من أمراء برقة اسمه جعفر بن عمر (شيخ الجعافرة) ، ويقول إنّه خرج عن الطاعة بسبب فرسين بلغ الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ — ٧٤١) خبرهما فأرسل يطلبهما منه فأنكرهما ، فما كان من السلطان إلا أن أرسل إليه جيشاً يقوده إيتمش المحمدي سنة ٧١٩ فهزم جعفراً ؛ ثم إن هذا الشيخ سافر إلى القاهرة واستجار ببكتمر الساقي ، فكلم السلطان في شأنه فعفا عنه وأعاده إلى إمرته وقرّر عليه شيئاً معيناً يدفعه كل عام[3] .

---

١ رحلة التجاني : ١٩١ — ١٩٢ .
٢ رحلة التجاني : ٢٢٠ .
٣ الدرر الكامنة ١ : ٥٣٧ .

إن مهاجمة برقة بجيش من أجل فرسين أمرٌ غير مستساغ كثيراً ، ولذلك تجيء الرواية عند ابن إياس (في أحداث سنة ٧١٨) لتعدّل من رواية ابن حجر ، إذ يصبح سبب الهجوم : «أن العربان منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان ، فجرد إليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجمالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون إلى نحو بلاد المغرب »[1] . ولا صعوبة في التوفيق بين الروايتين .

ومن المؤسف أن ابن بطوطة الذي مرّ بطرابلس في تلك الفترة ووجد مجال القول ذا سعة في كل قطر آخر مرّ به لم يجد ما يحدثنا به عن برقة ؛ فقد كان آخذاً بمغادرة طرابلس في شهر المحرم سنة ٧٢٦ واكتفى بأن قال : « ثم خرجت من طرابلس . . . . . ومعي أهلي وفي صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم . . . . . وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ، ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من أذيتنا »[2] .

وتغفل المصادر المتيسرة لدينا أمر برقة بقية القرن الثامن ، ولكن يستفاد من حديث العمري (٧٤٠) أن بني عزاز ظلوا هم أصحاب السيادة فيها ، يتولى الأمراء منهم الإشراف على قسم كبير من مدنها وبواديها ولم تتقلص زعامتهم إلاّ في النصف الثاني من القرن الثامن حين آلت الزعامة إلى عريف بن عمرو — وكان في ما يقوله القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١) « عبداً صالحاً » ، ثم خلفه في ذلك ابنه عمرو « وهو مستمر فيه إلى الآن » — يعني إلى عصر القلقشندي .

ويمكننا أن نعتمد ما قاله ابن الفرات في النصف الثاني من القرن الثامن لإعطاء صورة عامة عن الأحوال العمرانية في برقة : فهي في نظر هذا المؤرخ

---

١ تاريخ ابن إياس ١ : ١٦٠ .

٢ رحلة ابن بطوطة : ١٩ — ٢٠ .

بلاد عظيمة ، شهيرة بخيولها البرقية وجمالها الجيدة وأغنامها الكثيرة وعسلها وشمعها وقطرانها وأخشابها ، ولها جيش قائم يبلغ ثلاثة آلاف نسمة ، وأكبر مدنها « المرج » وهي ذات مياه ومروج وزراعات . ومن أهم مدنها طلميثا – وأكثر سكانها يهود – ولها من الموانىء والمراسي طبرق وميناء بني غازي –[1] صورة تقارب ما وصفه ابن سعيد ، إلاّ أنّها تضيف بني غازي إلى ما عرفناه من قبل ؛ وربما كشفت المصادر المحجوبة حتّى اليوم ما يكبّر من حواشي هذه الصورة وجزئيّاتها .

---

١ تاريخ ابن الفرات (مخطوطة فينا ، الورقة : ١١٧ حوادث سنة ٦٧٢) .

تاريخ طرابلس

٥٤٠ ــ ٨٠٣

طرابلس تحت حكم صقلية (٥٤٠ ـ ٥٥٣)

تمّ سقوط صقلية في يد النورمان سنة ٤٨٤[1] وزالت منها السيادة السياسية للعرب ، وبذلك فُقد « الرباط الكبير » الذي كان محرساً يحمي الشواطىء الإفريقية من غزو الشماليين ؛ وتضعضعت أحوال دولة بني زيري الصنهاجيين لانقسام جهودها بين الإعداد البحري لمواجهة الأسطول النورماني والإعداد البريّ للقضاء على الفتن التي يستغلها الطامعون والمغامرون بمعونة القبائل العربية في مناطق مختلفة من إفريقية .

وكانت حملة التخريب التي قام بها العربان في ليبيا قد أضعفت الموارد الاقتصادية لتلك المنطقة فحطمت العصب الذي يعتمده الناس في مطاولة المقاومة إذا دهمهم غزو مفاجىء ، كما شلّت عمل المحارس الساحلية التي أنشأها بنو الأغلب وحافظ عليها العبيديون والصنهاجيون .

وإذا نحن قصرنا القول على مدينة طرابلس وجدنا أن النتائج المترتبة على قدوم تلك الموجة البدوية هي :

---

١ كان العرب قد بدأوا فتح صقلية سنة ٢١١ في عهد الأغالبة ، ثم أصبحت لبني أبي الحسين الكلبيين في أيام العبيديين ولما ضعف هؤلاء استقل عدد من المشايخ فيها كل في ناحيته حتى بدأ النورمانيون بفتحها سنة ٤٦٤ وأبقوا العرب فيها وأفادوا من خبرتهم في كل مجال ، وبذلك استمرت الحضارة العربية في صقلية بعد زوال الحكم العربي عنها .

١ ــ تخريب المنطقة الزراعية في طرابلس وفي ما حولها مباشرة .

٢ ــ تفريغ بوادي طرابلس من النتاج الاقتصادي ومن القوى البشرية وتغوير المياه فيها .

٣ ــ جلاء كثير من الطرابلسيين عن مدينتهم .

٤ ــ إضعاف دولة بني خزرون بسبب التدهور الاقتصادي واضطرارها إلى زيادة الضرائب لزيادة الدخل .

٥ ــ إضعاف حال المحارس الساحلية حول طرابلس نفسها .

وقد وجَد رجّار Roger أن سيادة الأسطول الصقلي في البحر المتوسط لا يمكن أن تؤمَّن إلا بالاستيلاء على موانىء الساحل الإفريقي وضرب أسطول بني زيري ، أقوى الأساطيل الإسلامية عهدئذٍ . ويجب أن نقرن بين هذه الخطوات التمهيدية التي قام بها رجّار ، وبين تمكن السفن الفرنجية بعد سنوات من القيام بغزو السواحل الشامية والمصرية ، فلولا تقهقر السيادة الإسلامية في الناحية البحرية لما عانى صلاح الدين ــ ولم يكن لديه أسطول قوي ــ ما عاناه من حملات وافدة عن طريق البحر ولما كان بحاجة إلى أن يطلب المدد البحري من دولة الموحدين .

وتمّ لرجّار وخليفته غليالم إخضاع الساحل الإفريقي من المهدية إلى طرابلس . وكان الاستيلاء على طرابلس أمراً بالغ الأهمية في نظر رجّار لأنها ــ رغم ما حلّ بها من كوارث ــ كانت ما تزال من أهم الموانىء البحرية . ومن اللافت للنظر أن يعلن أبو يحيى بن مطروح (رافع بن مكن بن مطروح) استقلاله بالمدينة وعدم خضوعه لبني زيري وهم يواجهون أزمة عصيبة من هجمات الأسطول الصقلي ، كأنّه كان يعتقد بأن طرابلس قادرة على الدفاع

عن نفسها أو كأنّما كان يستبعد الخطر الصقلي عنها .

ولمّا سقطت جربة وصفاقس والمهدية أمام هجمات الأسطول الصقلي جاء دور طرابلس ، فحاصرها أسطول رجّار سنة ٥٣٧ ونقب سورها ، فلم يجد ابن مطروح أحداً يستعين به لردّ العدوان عنها — وقد قطع صلته ببني زيري — سوى العربان ، ويقتضينا الإنصاف أن نقول إنهم أنقذوا طرابلس من الإفرنج وهزموهم وغنموا أسلحتهم[1] . لكن غياب الأسطول الصقلي عن طرابلس لم يستمر طويلاً . فقد اجتاحت المدينة مجاعة عام ٥٤٠ جعلت كثيراً من الناس يجلون عنها ، فعاود حصارها جرجي بن ميخائيل الأنطاكي قائد أسطول صقلية في عام المجاعة نفسه .

ولم تكن المجاعة وحدها هي التي سهلت على جرجي فتح طرابلس، بل إن أهل البلد انقسموا قبل حلول الأسطول في فريقين : فريق يرفض سيادة بني مطروح وفريق يتشيع لهم . وفاز الفريق الأول في هذا النزاع فأخرجوا بني مطروح من البلد ، ولجأوا إلى تولية شخص محايد غريب عن طرابلس ، وهو أمير لمتوني كان ماراً بها في طريقه إلى الحج . فلمّا ضرب الأسطول عليها الحصار وشغل أهل البلد بقتال الإفرنج ، اغتنم الفريق الثاني المشايع لبني مطروح هذه الفرصة فاستقدموا بني مطروح وأدخلوهم البلد ، فلما نذر خصومهم بذلك تخلوا عن قتال الإفرنج ، ودارت المعركة بين الفريقين من جديد ، وكانت تلك خير فرصة يهتبلها الغزاة ، فنصبوا السلالم وتسلقوا الأسوار ودخلوا البلد فاتحين ، وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ، وهرب كثير من سكان المدينة إلى البوادي ولجأوا إلى محلات العربان والبربر . ثم إن الصقليين أمّنوا الناس وأوقفوا المجزرة فأخذ بعض الجالين يرجعون إلى المدينة . وظلّ الإفرنج فيها

---

١ ابن خلدون ٥ : ٢٠٢ وابن الأثير ١١ : ٦٠ .

ستة أشهر يصلحون من أسوارها وفنادقها ، ثم ولوا عليها أبا يحيى بن مطروح على شرط أن تؤدي طرابلس الجزية لحكومة صقلية ، وأخذوا معهم رهائن ضماناً للولاء ، وشجعوا الهجرة من صقلية إليها ، فهاجر إليها عدد من المستثمرين ، فصلحت حالها وانتعشت شؤونها الاقتصادية [1] .

تلك هي رواية ابن الأثير وابن خلدون ، غير أن الإدريسي وهو معاصر للأحداث ، وكان يعيش ببلاط صقلية ، قد ذكر احتلال طرابلس بقوله : « واستفتحها الملك رجّار في سنة ٥٤٠ فسبى حُرَمها وأفنى رجالها ، وهي الآن له في طاعته ومعدودة في جملة بلاده » [2] فهو لا يذكر شيئاً من الدعوة إلى تعميرها وهجرة الناس من صقلية إليها [3]. غير أنّنا نستطيع أن نوثق رواية ابن خلدون اعتماداً على الإدريسي نفسه ، فهو حين يتحدث عن طرابلس بصيغة التقرير يقول : « مدينة حصينة عليها سور حجارة . . . . متقنة الأسواق وبها صناع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات » [4] ، فهذا الوصف يدل فعلاً على أن المدينة كانت ما تزال عامرة رغم القول بإفناء الرجال وسبي الحُرَم . ولعلّ التجاني إنّما يعني إعلان الأمان بعد أعمال السلب والنهب والقتل حين يقول في جرجي بن ميخائيل : « فأحسن قائده جرجي بن ميخائيل إلى أهلها لما أضمره من تملك غيرها من البلاد الساحلية » [5] .

ولما عهد جرجي بولايتها إلى ابن مطروح التميمي ولّى على قضائها أبا

---

١ ابن الأثير ١١ : ٧٠ . وابن خلدون ٥ : ٢٠٢ – ٢٠٣ .

٢ نزهة المشتاق : ٩٠ .

٣ الفرق بين الروايتين قائم في الزمن أيضاً ، فابن خلدون يؤرخ الصقليين لها سنة ٥٤١ غير أنه يوافق الإدريسي في موضع آخر من كتابه (٦ : ١٦٨) .

٤ نزهة المشتاق : ٨٩ – ٩٠ .

٥ رحلة التجاني : ٢٤١ .

الحجاج يوسف بن زيري — من أهلها — وترك في البلد جنداً من المسلمين والصقليين ، واكتفى بالجزية المفروضة ، ولم يتدخل في شيء من أحكام المسلمين بل ترك أمرها في يد القاضي والوالي[1] . وأقام ابن مطروح — فيما أقدّر — حكماً شوريّاً فريداً في طرابلس، ولم يستأثر بحكم البلد ، وإنّما اعتمد على مجلس مكون من عشرة شيوخ كانوا يجتمعون للتشاور وتدبير أمر البلد ويعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة عُرف بمسجد العشرة[2] ؛ وقد بقيت هذه الظاهرة الديمقراطية في طرابلس حتى قدم الموحدون فألغوا المجلس المذكور .

واستمرت تبعية طرابلس لصقلية حوالي اثني عشر عاماً لم تتحدث المصادر فيها بشيء عن أوضاع طرابلس وأحوالها ، ولكن يبدو أن ابن مطروح استطاع أن يؤمن لها حكماً سليماً قائماً على مراعاة الظروف من حوله ، فهو لا يستطيع أن يهدّد مصالح الصقليين لوجود حاميتهم في البلد ، وليس هو الوحيد الذي يخضع لهم على الساحل الإفريقي ، ثم هو بحاجة إلى تلك الحامية الأجنبية لأنها تكفل ابتعاد العربان عن طرابلس ، ولهذا نستطيع أن نتصور طرابلس حينئذ مدينة التجارة البحرية الناشطة والازدهار الاقتصادي .

كذلك تسكت المصادر عن ذكر السبب المباشر الذي حدا بابن مطروح إلى الثورة على السيادة الصقلية ، ولا يسعنا ونحن نجهل الأحداث حينئذ إلاّ أن نفترض أن العامل الكبير في ذلك هو التخلص من التبعية القائمة على تأدية الجزية حين أصبحت الفرصة مواتية ، خصوصاً وإن دفع الجزية — بهذا الاسم — جارح للشعور الديني عند المسلمين . ويحاول التجاني أن يوطىء لهذه

---

١ رحلة التجاني : ٢٤١ — ٢٤٢ .

٢ رحلة التجاني : ٢٣٧ .

الثورة بذكر حادثة معينة مجملها أن الصقليين لما رأوا بدء تغلب الموحدين على أقطار المغرب طلبوا إلى أئمة المساجد في طرابلس أن يقوموا على المنابر فيذموا الموحدين للناس ويستثيروا كراهيتهم لهم ؛ فاجتمع أهل طرابلس إلى القاضي أبي الحجاج وأوضحوا له أن هذا الأمر خطير لا يستطيعون تحمله ، فذهب القاضي إلى رئيس الحامية وأفهمه أن ذلك أمر يخالف شروط العقد بين الفريقين إذ ينص العقد على أن لا يكلَّف المسلمون بشيء مما يخالف دينهم ، وذمُّ الموحدين — وهم أهل دين — أمر يخالف الدين . وأنهى القاضي حديثه بأن هذا هو صريح موقف أهل البلد ، فإن رضي الصقليون به وإلاّ فإنهم — أي أهل البلد — سيجلون عن مدينتهم . وأعتقد أنّ قائد الحامية حين تراجع عن طلبه كان ينوي استشارة الحكومة بصقلية ، وعلى هذا تكون الأسباب التي أدت إلى الثورة مجتمعة وشجعت عليها ، هي :

١ — كراهية الاستمرار في دفع الجزية لحكومة غير مسلمة .

٢ — يقظة الشعور الديني التي بثها الموحدون في أرجاء المغرب .

٣ — الأمل في العون المعنوي والمادي من جهة الموحدين .

٤ — مبادرة الحامية بالثورة قبل أن تعمد الحكومة النورمانية إلى إرسال أمداد من الجيش والأسطول لفرض سياستها بالقوة .

٥ — الاطمئنان إلى قلة عدد الحامية .

٦ — أن الرهائن كانت قد رُدّت إلى الطرابلسيين بعد الاطمئنان إلى ولائهم .

وفي الليل قام أهل طرابلس بنصب الخشب والأناشيط في الطرقات لتمنع الخيل من الجري ثم تنادوا بالثورة فبادر رجال الحامية إلى خيولهم وركضوها

فتعثرت بالحبال والخشب ، فأُخذوا قبضاً بالأيدي وذُبحوا وأُحرقت بيوتهم بالنار سنة ٥٥٣ [١] .

دخول طرابلس في طاعة الموحدين

يتضح لنا الانشطار الكامل في الأهداف إذا نحن عدنا قليلاً في الزمن لنقارن بين نظرة أهل طرابلس إلى الموحدين ونظرة شيوخ القبائل البدوية — ومن خلفهم قبائلهم — إلى تلك الدولة الناشئة ، فالطرابلسيون — مثلاً — أبوا أن يقوموا بحملة «دعاية» ضدّ الموحدين ، ولعلّ الانتصارات الموحدية هي التي شجعتهم على الثورة وبعثت في نفوسهم أملاً بأنهم رغم بُعد الموحدين عنهم يستطيعون الركون إلى القوة المعنوية التي أخذ الموحدون يشيعونها في نفوس الناس في الشمال الإفريقي ضدّ سيطرة الحاكم الأجنبي ، وعلى النقيض من ذلك كان موقف شيوخ هلال والأثبج وعدي ورياح وزغب وغيرهم — امتداداً من أرض طرابلس حتى أقصى ما بلغوه من حدود الاستيطان في المغرب — فإنهم حين وجدوا أن عبد المؤمن قد استولى على بلاد بني حماد ، رأوا أن يقاتلوه ويوقفوه عند حدوده ، وتشاور محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم من الشيوخ ، واجتمع أمرهم على أن دولة الموحدين هي العدوّ الكبير الذي لا بد لهم من مواجهته بحزم ، وتحالفوا على التعاون وأن لا يخون بعضهم بعضاً ، وقرّروا أن يجمعوا في المعركة حريمهم وأهاليهم وأموالهم لتكون الحرب استيئاساً ، وكان ملك صقلية من وراء هذه الحركة يحرّضهم ويستنفرهم بل إنّه عرض عليهم أن يرسل لهم من جيشه

---

١ رحلة التجاني : ٢٤٢ .

خمسة آلاف لمعونتهم على شرط أن يرسلوا إليه رهائن في مقابل ذلك ، وسواء أكانت العقبة في قبول هذا العرض هي الصعوبة في تقديم الرهائن أو في الاطمئنان إلى نوايا رجّار الصقلي في المستقبل ، فإنهم أعلنوا شكرهم له وعدم قبولهم للمعونة معللين ذلك بأنهم لا يستعينون بغير المسلمين .

وبلغت عبد المؤمن أخبار هذا الحشد الهائل فأرسل جيشاً فيه ما يزيد على ثلاثين ألف فارس بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى ، وكانت خطة القائدين الموحديين — نظراً لكثرة عدد العربان — هي جرّهم إلى القتال في ميدان مليء بالعقبات ، ولذلك ظلا يطبقان خطة الانسحاب حتّى امتنعا عند سطيف ، في منطقة جبلية وعرة (سنة ٥٤٨) ، وكان العربان أثناء تقدمهم قد اختل نظامهم ، وركنوا إلى النزول على غير استعداد للمعركة ، فقام الجيش الموحدي بمباغتتهم وهم على تلك الحال ، وكانت الخطة متقنة بارعة كفلت للموحدين النصر وانهزم العربان مخلفين ما كانوا حشدوه معهم من نساء وأولاد ونعم ، أما المال فقد اقتسمه الموحدون ، وأما النساء والأولاد فقد أمر عبد المؤمن بصيانتهم .

فلمّا وصلوا مراكش أُنزلوا في الأماكن الفسيحة وأُجريت لهم النفقات الواسعة ، وكانت هذه السياسة من عبد المؤمن تهدف إلى غاية أبعد . كان يعلم أنّه يعالج أمراً مرهفاً ذا أثر بالغ في نفوس البدو ، ولذلك فإن ابنه محمداً حين كتب إلى شيوخ القبائل يعلمهم بأن حريمهم وأولادهم تحت الصون ، وأنهم آمنون على أنفسهم إذا هم حضروا إلى مراكش لتسلمهم ، هرعوا إلى عاصمة الموحدين ، فتلقاهم عبد المؤمن بالأعطيات الجزيلة ، وردّ إليهم النساء والأولاد ، وتألف قلوبهم بالإحسان والتكرمة [١] .

---

١ ابن الأثير ١١ : ١٢٢ .

أمّا ابن مطروح فإنّه نجح في رفع نير التبعية لصقلية دون أن يكون مطمئناً تمام الاطمئنان إلى حماية خارجية ، إذ ان الموحدين ما يزالون بعيدين عن مسرح الأحداث ، والبدو من حول طرابلس قد يجدون في ذهاب الحامية فرصة للانقضاض على خيرات البلد المزدهر ، وكان ابن مطروح قد قدّر أن شيوخ القبائل هم الجانب الذي يستطيع أن يقلب نجاحه إلى إخفاق ، ويقضي على ازدهار طرابلس ، ولكن سنوات الحكم كانت قد رسّخت لشخصه احتراماً في نفوس العربان ، وكان الرجل شهماً حازماً ، فما إن نجحت الثورة حتّى بادر إلى شيوخ القبائل يصطنعهم بالأعطيات والترضيات ، وبذلك استطاع أن يضمن الاستقرار في المدينة حتّى وصلت جيوش عبد المؤمن إلى المهدية سنة ٥٥٤ هـ ؛ وكذلك دخل جبل نفوسة في طاعة الموحدين[1] .

ووجد ابن مطروح أن الفرصة سانحة للعودة إلى « الحظيرة » ، فما إن استقر عبد المؤمن في المهدية حتّى وفد عليه ابن مطروح ومعه وجوه أهل طرابلس[2] ، وكان يعلم أنّه بهذه الوفادة يوفر على بلده دخول جيوش الموحدين، ويضمن بموالاتهم صونها من أطماع البدو ؛ أمّا « الجزية » الجديدة فإنها أحبّ إليه من سابقتها . وتلقى عبد المؤمن وفد طرابلس بالبر والتكرمة ، وأبقى ابن مطروح رئيساً لبلده ، فظلّ في الحكم حتّى شاخ في أيام يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) وكانت مدة حكمه في طرابلس حوالي أربعين سنة[3] .

---

١ ابن الأثير ١١ : ١٦٠ .

٢ الزركشي : ٨ .

٣ استأذن ابن مطروح والي تونس الموحدي أبا زيد ابن أبي حفص بالتوجه إلى الحج عام ٥٨٦ ، فأذن له ؛ وتوجه بجميع أهله في البحر ووصل الإسكندرية وتوفي فيها في العام نفسه بعد أن كان « قد أضر وعجز عن الحركة » — كما يقول القاضي الفاضل في مياومته ؛ نقل ذلك التجاني في الرحلة : ٢٤٣ وانظر ابن خلدون ٦ : ١٦٨ .

ويبدو أن طرابلس لم تشهد عهداً من الاستقرار مثل عهده الطويل، بل يبدو أن ابن مطروح اعتمد على حماية الموحدين اعتماداً كلّيّاً ، فوجّه أهل طرابلس كل همهم في زمنه إلى النشاط الاقتصادي واستغنوا عن التمرس بحياة الجندية ، وكان لهذا أثره في مستقبل بلدهم بعد ذهاب ابن مطروح .

وكانت طرابلس قد دخلت ضمن المنطقة الإفريقية الكبيرة التي تدفع خراجاً مقرّراً للدولة الموحدية . وذلك أن عبد المؤمن أمر بتقدير مساحة البلاد من برقة حتى السوس وأسقط من التكسير الثلث باعتباره يمثل الجبال والشّعراء والأنهار والسبخات والطرقات وقسّط الخراج على الثلثين الباقيين وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والمال [1] .

وقد كان من الممكن لهذا التنظيم الجديد أن ينفر بعض الجماعات – وخاصة القبائل البدوية – من الموحدين وحكمهم ؛ ولكن عبد المؤمن وابنه أبا يعقوب – من بعده – اتّبعا سياسة خاصة نحو « تسريب » الحيوية الفائضة عند العربان ، وذلك بدعوتهم إلى المشاركة في الجهاد والدخول في الدعوة الموحدية ، واعتمد كلّ منهما على إثارة النخوة عند تلك القبائل ، وعلى تذكيرها بأنها هي التي رفعت راية الإسلام في القديم فلا شيء يحول دون استجابتها لدعوة الجهاد الديني يومئذ ؛ وكان هذا الاستنفار يصاغ شعراً إيماناً من الخليفتين أن هذه القبائل عربية تعرف مواقع البلاغة وتستجيب لها وتنفعل بها ، ولذلك نرى عبد المؤمن بعد المهدية يكلف القاضي ابن عمران باستدعاء بني سليم فيكتب القاضي إليهم من قصيدة [2] :

أسليم دعوةَ ذي إخاء مرشَد	هادٍ إلى الحقّ المُبين المسعد

---

[1] روض القرطاس : ١٤٨ (ط. فاس) .
[2] البيان المغرب ٣ : ٣٩ (تحقيق هويسي مراندة ورفيقيه – تطوان ١٩٦٠) .

ومذكر ما كان أسْلاف لكم فضلوا به أفعال كلّ مسدّد
بجهاد أعْداء الإلـه ونصرِهم لرَسول رَبّهم النبي محمّد

وكذلك فعل أبو يعقوب عندما عقد النية على غزو الأندلس سنة٥٦٦ فإنّه كلف ابن الطفيل بأن يستنفر العرب فكتب إليهم قصيدة مطلعها [1] :

أقيموا صدور الخيْل نحو المغاربِ لغزْوِ الأعادي واقتناء الرغائبِ

وفيها يقول لهم :

ألا فابْعثوها همّة عربية تخفّ بأطرافِ القنا والقواضبِ
أفرسان قيْسٍ من هلال بن عامرٍ وما جمعت من طاعنٍ ومُضاربِ
لكم قبّة للمجدِ شدّوا عمادَها بطاعة أمرِ اللهِ من كلّ جانبِ
دعوْناكمُ نبغي خلاص جميعكم دعاءً بريئاً من جميع الشوائبِ
نُريدُ لكم ما نبتغي لِنفُوسِنا ونؤثركم زُلْفى بأعلى المراتبِ
فلا تزهدوا في نَيْل حظّكم الذي لكم فيهِ فوْز من جميع المطالبِ
بكم نصر الإسلام بدءاً فنَصْرُهُ عليكم ــ وهذا عودهــ جد واجب

فلمّا تأخّر قدومهم عليه بعث بقصيدة أخرى ؛ فخف إلى مراكش منهم أعداد شاركوا في الغزو إلى الأندلس ؛ وقد ظلّت قبائل هلال ورياح وزغبة تدين بطاعة الموحدين ، حتى إنّا لنراها عام ٥٧٦ عندما توجه أبو يعقوب إلى قفصة والقيروان تلتف من حوله بالتأييد ويحضر إليه « جميع أشياخ العرب من قبيل رياح بالبدار والمسارعة بالطاعة » [2] .

---

١ المصدر السابق : ٨٨ — ٩٠ .
٢ المصدر السابق : ١١٤ .

وتصوّر رسالة موحدية كُتبت في شوّال من هذا العام استمرار هذه السياسة وكيف جمع أبو يعقوب أشياخ العرب وأعيانهم « ونبهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أول الإسلام . . . وحرّضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام ، وعرفوا أن الغرض فيهم إنّما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس »[1] . وتتحدث الرسالة عن الشيخ أبي سرحان مسعود بن سلطان بن زمام وأنّه استعد كسائر الشيوخ للرحيل إلى الوجهة الأندلسية وتثني على حسن استعداده وسيره في الرعيل الأول « مبادراً إلى السعادة مسارعاً إلى الامتثال والطاعة »[2] ؛ وتنبئنا هذه الرسالة التي تُعد وثيقة هامة أن العرب قد سارعوا جميعاً إلى الرحيل مغرّبين ولم يبق منهم إلاّ المستقرون « من قبائل سليم بجهات أطرابلس وما وراءها مشرقاً ومصحراً إلى برقة والإسكندرية »[3] .

وكان لهذه السياسة تجاه الأعراب شقّ آخر هو تشجيع فريق منهم على الاستيطان في المغرب لا ليكونوا عنصراً من عناصر الجيش وحسب ، بل لتكون السيطرة عليهم أوكد ما داموا في كنف الخلافة وتحت سمعها وبصرها ، ولو كنّا نتحدث عن تاريخ الموحدين في هذا المقام لذهبنا نتتبع نتائج هذه السياسة بشقيها، ولكن يكفينا هنا أن نشير إلى أن هؤلاء الأعراب –سواء في اشتراكهم في الجيوش الغازية أو في هجرتهم إلى المغرب للاستيطان – قد كانوا مصدراً من مصادر القلق لدولة الموحدين ، وعنصراً من عناصر مشاغلتها عن القيام بما يكفل استتباب الأمن وازدهار العمران .

---

١ رسائل مدحية : ١٥٢ .

٢ المصدر نفسه : ١٥٥ .

٣ المصدر نفسه : ١٥٦ .

طرابلس بين أطماع العربان والمغامرين أيام الموحدين
(٥٧٩ ـ ٦٢٥)

خلّفنا قراقوش سائراً يفتتح مناطق متعددة من ليبيا ويجبي أموالها لنفسه ويجعل من اسم صلاح الدين ستاراً شرعيّاً لأعماله ؛ فلمّا وصل إلى نواحي طرابلس التف حوله بنو دباب وساروا معه إلى جبل نفوسة فاستخلص منه أموالاً كثيرة أرضى بها العربان الذين نصروه .

وصمم قراقوش هو وأحلافه من العربان على فتح طرابلس ، وكانت حينئذ خالية من العدد والأقوات والأجناد ، فاستولى عليها سنة ٥٧٩ ، وعظم أمره وتهافت إليه العربان من كل مكان ، وبقي يدير أمر طرابلس وما فتحه من ليبيا مدة من الزمن[١] .

متى احتل قراقوش طرابلس؟ يقول التجاني : « وقد قدمنا فيما سلف من كتابنا هذا الخبر عن وصول قراقوش من المشرق في سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وأنّه حصر طرابلس بمن التف عليه من العربان حتى استولى عليها »[٢] وهذا قد يُفهم منه أن العام الذي ذكره التجاني هو تاريخ استيلاء قراقوش على طرابلس ، وهو متفق مع خروج ابن مطروح منها متوجهاً إلى المشرق . ولكن التجاني نفسه يذكر في موضع آخر من كتابه[٣] أنّه رأى ظهيراً بتوقيع قراقوش حول « توسيع (أو تسويغ) أملاك لبعض أهل طرابلس »

---

١ رحلة التجاني : ١١١ ، ١١٢ ، ٢٤٣ – ٢٤٤ .

٢ رحلة التجاني : ٢٤٣ .

٣ رحلة التجاني : ١١٤ .

وهو يحمل تاريخ سنة ٥٧٩ ؛ ممّا يدل على أن وصول قراقوش إلى تلك المدينة لم يتأخر حتّى سنة ٥٨٦ ، وأكبر الظن أن في هذا سهواً وأن الصواب هو ثمان وستون وخمسمائة (٥٦٨) ، وأن التجاني يجعله بداية لوصول قراقوش من المشرق – حسبما تذهب إليه إحدى الروايات ، وهذا متفق مع ما ذكره ابن واصل صاحب مفرج الكروب ، كما قدمنا .

وممّا يقوي ما ذهبت إليه أن أعمال قراقوش تجاوزت طرابلس بكثير قبل ذلك العام ، وأن لجوءه للموحدين تمّ أيضاً قبل ذلك فلعلّ تاريخ ٥٨٦ – إن صحّ – يشير إلى احتلاله الثاني لمدينة طرابلس .

ولكن إذا كان قراقوش قد استولى على طرابلس في ذلك العام الذي ذكرته (أي ٥٧٩) فماذا كان موقف ابن مطروح رئيسها ؟ أعتقد أن ابن مطروح كان قد تنازل قبل ذلك بقليل عن رياسة البلد لشيخوخته وأن هناك والياً تسلم أمر طرابلس من قِبَل الموحدين ، ولكن المصادر لم تذكره ، ولم يكن في مقدور الموحدين أن يخفّوا لنجدة طرابلس بسرعة ، خصوصاً وأن قراقوش وحلفاءه شغلوهم بالهجوم على منطقة قابس وغيرها .

وذلك أنّه في تلك الأثناء وصل إلى طرابلس مغامر آخر هو علي بن غانية الذي كان يسعى ليعيد سلطان قومه الملثمين ، فوجد في قراقوش حليفاً ضدّ الموحدين ، كما استمال كافة العربان من بني سليم ، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل جشم ورياح والأثبج ، والتف حوله قومه لمتونة ، ولم يبق مخلصاً للموحدين من العربان سوى زغبة . وبهذه الجموع قام علي بن غانية بغارات كثيرة افتتح فيها بلاد الجريد (سنة ٥٨١) وأقام الدعوة العباسية [١] .

---

١ ابن خلدون ٦ : ٢٠ – ٢١ ، ١٩٢ .

وكان قراقوش مظاهراً لعلي بن غانية في كلّ تحركاته ، افتتحا معاً أكثر المدن مثل قفصة وتوزر وغيرهما ، واستأثر هو بقابس لنفسه وجعلها دار إقامة لأهله ؛ ولما قام المنصور الموحدي بحملة كبيرة عام ٥٨٣ للقضاء على حركات ابن غانية والغزّ والأعراب وصل في فتوحاته إلى قابس: «وكان فيها بنو الشقي قراقوش وأهله ، وجملة ما قمشه انتهابه وضمه حبله ، ومعهم جماعة من أوباشه الذين يعتمد عليهم ، ولا يثق بأهله وولده وماله إلا إليهم ، فتحصنوا بقصبة بها منيعة الجوانب ، سامية المراقب، مستصعبة على المنازل لها والمحارب، وأجمعوا على الاستماتة فيها ، فأحدقت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحيها واستنزلوا منها على الأمن في رقابهم واستقصاء كافة أموالهم وأسلابهم ، واسترقاق نسائهم وأبنائهم وعيال من شهد الوقيعة من مقتولهم وهرابهم »[1] كان ذلك في شعبان من العام المذكور ، وقد أحسّ قراقوش بعد فقدانه لأهله وأبنائه وكلّ ما جمع أنّه لا يستطيع أن يسترد بعض ما ضاع إلا بمصانعة الموحدين ولذلك نراه في رمضان من العام نفسه يكتب إلى خليفة الموحدين « راغباً في التوحيد خاضعاً، مادّاً يد الاستكانة إلى هذا الأمر السعيد ضارعاً، معلماً أنّه إن قُبلت توبته وأجيبت رغبته جاء إلى الموحدين — أعزهم الله — مطيعاً سامعاً »[2] .

ماذا حل بطرابلس بعد أن فارقها قراقوش وأصبح « موحّداً » ؟ أكبر الظن أنّه ترك فيها نائباً عنه ، ولكن غزّيّاً آخر من قومه أحبّ أن ينتهز فرصة التقرب للموحدين وقد وجدهم قد أصبحوا غير بعيدين عنه ، فأعلن استقلاله في طرابلس دون صاحبه قراقوش ، فلما كان المنصور في إفريقية عام ٥٨٣

---

١ رسائل موحدية : ١٨٩ .

٢ المصدر السابق : ١٩٨

كتب إليه بالطاعة وأظهر دعوة التوحيد . ذلك هو أبو زيان الذي تصفه الرسالة السابقة الموحدية بأنّه زعيم من زعماء الأغزاز يضاهي قراقوش في قدره ويقاسمه في أمره[1] ؛ وهذا أمر تنفرد بذكره هذه الرسالة ولم أجده في غيرها من مصادر . ولعلّ أبا زيان هذا — وكنيته تدلّ على أنّه « تأقلم » مغربياً ولم يعلن التوحيد فحسب — هو الذي خلفه قراقوش على حكم طرابلس ، فلما وجد أنّه يستطيع أن يعمل لحسابه الخاص استقل عن صاحبه .

ولم يكن قراقوش مخلصاً في انضمامه إلى الموحدين ولكنّه رأى فقدان أهله وأبنائه وضياع جهوده السابقة وخذلان صاحبه أبي زيان له وشهد كلّ ما بناه يتهاوى فرأى أن يرتاح قليلاً وينال شيئاً من الأمن . ولا ندري المدة التي مكثها وهو يعيش في ظل الموحدين ، غير أن انضواءه إليهم كان يعني حالة اضطرارية هي نتيجة النصر الذي أحرزه المنصور، ولم يكن خضوع قراقوش وقهر ابن غانية من ثمرات ذلك النصر فحسب ، بل كان نقل العربان الضالعين معهما — ومع كل ثائر — من منطقة إفريقية إلى المغرب الأقصى على سبيل الاحتجاز والإقامة القسرية نصراً آخر ، وكان هؤلاء العربان هم جشم ورياح ، إذ لم يبق على ولائه للموحدين الا قبائل زغبة ، وقد أسكن المنصور قبيلة رياح ومعها زعيمها مسعود بن زمام في منطقة تدعى الهبط من أرض المغرب . وبدا قراقوش لعين الرائي حينئذ مفرداً من كل نصير مسلوباً من جميع الوسائل التي يحتاجها الرجل المغامر .

ولكن هذا الغزيّ لم يتعود الحياة المطمئنة الوادعة ، ولذا فإنّه فرّ من حضرة السيد أبي زيد بن أبي حفص ومضى إلى مقرّه القديم ، مدينة قابس ، ودخلها بالحيلة واستولى عليها . وقتل جماعة من أشياخ دباب والكعوب منهم

---

[1] المصدر السابق : ١٩٨ .

محمود بن طوق أبو المحاميد وحميد بن جارية أبو قبيلة الجواري[1] ، وارتكب بهذا العمل أكبر غلطة ، كلفته حياته من بعد لأن العرب لا ينامون على الثأر مهما يطل عليه الأمد . ولقي حليفه علي بن غانية مصرعه عام ٥٨٤ ، فخلفه في مظاهرة قراقوش أخوه يحيى بن غانية .

ثم إنّ قراقوش عاد إلى طرابلس فحاصرها واستولى عليها ، ولعلّ ذلك كان سنة ٥٨٦ أو التي بعدها ، وكان يعاونه في هذا زعيم رياح : مسعود بن سلطان بن زمام . وإنّما نفترض ذلك لأنّ ابن خلدون يحدثنا « أن مسعوداً فرّ من بلاد الهبط ولحق ببلاد طرابلس ونزل على زغب ودباب من قبائل بني سليم ووصل إلى قراقوش وحضر معه فتح طرابلس حين افتتحها »[2] وكان فراره في أبطال من بني رياح ، عاونوا قراقوش على احتلال طرابلس .

وكانت العلاقة بين قراقوش ويحيى بن غانية قد فسدت ، فما إن سمع يحيى أن قراقوش قد عاد إلى طرابلس حتّى زحف إليه من منطقة الجريد ، فلما عرف قراقوش بقدومه فرّ عن طرابلس مخلفاً عليها نائباً له يدعى ياقوت الافتخار ؛ والتقى يحيى بقراقوش في مكان من جهة طرابلس اسمه المحسن[3] فانكسر قراقوش كسرة شنيعة وتوغل في جبال طرابلس ويحيى الميورقي يتبعه ، فبلغ قراقوش في هربه مدينة ودّان واعتصم فيها .

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٤٣ . ويقول : إنه قتل سبعين من العرب بقصر العروسي. وانظر رحلة التجاني .

٢ ابن خلدون ٦ : ٢١ والنص شديد التصحيف ولكن ما يستنتج منه يدل على أن مسعوداً لم يكن مع قراقوش في استيلائه الأول على طرابلس وإنما كان في الفتح الثاني غير أن ابن الأثير (في أحداث سنة ٥٦٨) أجمل ذكر الحوادث إجمالا (انظر ١١ : ٢٥٦) .

٣ يقول الأستاذ طاهر الزاوي : إن وادي محسن هو وادي الهيرة من أراضي ورشفانة إلى غربي العزيزية وشمالها (تاريخ الفتح : ٢١٧) .

أمّا يحيى فإنّه عاد إلى طرابلس وحاصر ياقوتاً فيها ، فدافع عنها ياقوت بقوّة وبالغ في المدافعة ، ولم يكن بد للاستيلاء على البلد من حصارها برّاً وبحراً ، فكتب يحيى إلى أخيه عبد الله صاحب ميورقة يطلب منه إمداده بقطع من الأسطول ، فأرسل إليه قطعتين ضيق بهما على المدينة حتّى سقطت؛ ولمّا دخلها يحيى عفا عن أهلها وأخذ ياقوتاً ووجهه في الأسطول العائد إلى ميورقة ، فلمّا تسلمه عبد الله قيده وألقاه في السجن فبقي فيه إلى أن استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ ، فأخرجوه من سجنه ومن هناك انتقل إلى مراكش وعاش فيها إلى أن مات [١] .

ولمّا احتلّ يحيى مدينة طرابلس ولّى عليها ابن عمّه تاشفين بن غازي (أو ابن الغاني عند ابن خلدون) وانصرف هو إلى قتال الموحدين ومعه ذؤبان الأعاريب من الزواودة وغيرهم ؛ ودارت بين الفريقين معارك عنيفة على مدى سنين طويلة ، استطاع فيها ابن غانية أن يفتح تونس سنة ٥٩٩ وأن تمتد دعوته إلى سبتة وتشمل صفاقس وقابس وطرابلس ، وليس هذا موضع التفصيل في ذكر تلك الحروب .

ولم ينفك يحيى يحاول الاستيلاء على جبل نفوسة — معقل الإباضية — في تلك المعارك التّي خاضها ، وقد منيت قرى الجبل من غاراته بالحرق والتخريب؛ حاول الاستيلاء على مدينة جادو فلمّا امتنعت عليه حرق ما حولها من مزارع وحدائق ؛ ثم وجه همّه نحو شروس فصدته عنها قوّات الإباضية أيضاً ، وكان إمام الجبل الذي يحرك تلك الخطط الدفاعية يومئذ هو زكريا بن إبراهيم الباروني.

وعاد المنصور إلى مراكش ، وشُغل بأمورها وأمور الغزو في الأندلس عن الالتفات إلى ناحية إفريقية — وكانت معركة الأرك (٥٩١) أعظم غزواته —

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٩٣ ورحلة التجاني : ٢٤٤ — ٢٤٥ .

وأنباء انتقاض العربان والتفافهم حول ابن غانية وعيثهم في البلاد تصله ، فلا يستطيع أن يتخلى عن الجبهة الأندلسية أو يحارب في جبهتين ، وتوفّي ، رحمه الله ، سنة ٥٩٥ وخلفه أخوه الناصر (٥٩٥ — ٦١١) وشُغل أيضاً بأحداث المغرب الأقصى حتّى إذا كانت سنة ٥٩٩ جاءته الأنباء عن الفتنة المشتعلة بأكثر جهات إفريقية وما كثر عن « العرب » من إشاعة المكروه والمجاهرة بالسيئات [1] ، فعزم على الخروج لتهدئة أحوالها ، وكان بلوغه إليها سنة ٦٠١ ، في جيش يواكبه أسطول بحري ؛ وعندما أحسّ أهل طرابلس أن الموحدين جادون في التخلص من ابن غانية أعلنوا الثورة وطردوا الوالي تاشفين بن غازي ، فارتد إليهم يحيى وفتح البلد وخرّبه ثم استعد للقاء الناصر ؛ فوصل أسطول الناصر إلى تونس واستردّها من يد ابن غانية وقضى على من فيها من أتباعه ؛ وكان اللقاء بين الجيشين البريين في تاجرا فغُلب ابن غانية وأُخذت من عسكره غنائم كثيرة وذهب هو هارباً .

ولما بلغت جيوش الناصر مدينة قابس قدم عليه وجوه أهل طرابلس ، ولندع كاتبه محمد بن عياش يحدثنا عن هذه الوفادة فيقول : « إذا بوجوه قومها يرفعهم التيار المتدافع ، ويقدمهم الموج الخافض الدافع ، ويلوح للهدى على أسارير كبيرهم وصغيرهم نور ساطع ، ويجمع بيننا وبينهم الإهطاع إلى الحق وهو سبب جامع ، فأعلموا أن الطاعة لم تفارق سرائرهم وأن النور الذي فاض على إفريقية لم تحرمه أبصارهم ولا بصائرهم ، وأنّهم وإن بعد مزارهم ، وكادت تكون من ديار مصر دارهم ، فما زالت تمتد إلى هذا اليوم آمالهم ونواظرهم ، وعرّفوا بأن الشقي الذي كان عندهم [بات] مذموماً مدحوراً ، وأنهم لم يفارقوا مدينتهم حتّى جعلوا بينهم وبينه خندقاً وسوراً ، وحتى أقاموا على

---

١ ابن عذاري ٣ : ٢١٨ (ط . تطوان) .

منبرهم دعوة الحق التي وعدها الله في المشرق والمغرب علواً وظهوراً ، فكرمت وفادتهم ، وبانت لهم سعادتهم ، وأعرب عن حال غائبهم وشاهدهم غيبهم وشهادتهم ، وأمّروا بطالب من الموحدين وقطعة من الأسطول . . . »[1] أمّا هذا الطالب الذي ذهب أميراً عليهم فهو عبد الله بن إبراهيم بن جامع ؛ ومن بعد رجع الناصر إلى تونس ، فأقام فيها حتّى سنة ٦٠٣ ثم جهز جيشاً بقيادة أخيه السيد أبي إسحاق لتتبع أتباع ابن غانية ، فشارف الجند سرت ومنطقة برقة واستأصلوا بني دمر ومطماطة وما والاها ووقفوا على آخر جبال نفوسة ، وجاوزوا عمرانها المحدود ، وشارفوا أرض سويقة بن متكود[2] .

وقبل أن يرجع الناصر إلى مقر دولته اطمأن إلى أن إفريقية « قد خلت من الوسواس ، ونقيت من الأدناس » ؛ وحضر إليه العربان يطلبون العفو عمّا سلفت به الأيدي المتسرعة إلى سلّ السيوف ، وجاء في وفد رياح الرجل الذي عرف فيه الموحدون عدوّاً قديماً — جاء أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام « يرسف في قيد هرمه » يطلب العفو لنفسه ولقومه[3] ، ووجد لدى الناصر تسامحاً ؛ وعفا الله عما سلف .

واستجاش ابن غانية من جديد أعوانه من رياح وعوف وهيب ومن انضم إليهم من قبائل البربر ، ويُستخلص من مواضع متفرقة في تاريخ ابن خلدون أن الشيخ أبا محمد بن أبي حفص نازل جيوش ابن غانية في السنوات ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦[4] ؛ وفي المرة الثالثة جمع ابن غانية أحلافه من بني رياح ،

---

١ رسائل موحدية : ٢٥٤ — ٢٥٥ .

٢ ابن خلدون ٦ : ٢٤٨ والزركشي : ١٢ وابن عذاري ٣ : ٢٢٤ (ط . تطوان) .

٣ رسائل موحدية : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٤ انظر أيضاً الزركشي : ١٣ في الموقعة التي جرت سنة ٦٠٤ حيث يذكر انهزام ابن غانية ولجوءه إلى ناحية أطرابلس .

وزعيمهم محمد بن مسعود[1] ، فاعتزموا على معاودة الحرب وتعاقدوا على الثبات والصبر وانطلقوا يتألفون الأعراب من كل ناحية حتّى اجتمع إليهم دباب وزغب والشريد وعوف ، فبادرهم أبو محمد سنة ٦٠٦ ولقيهم بجبل نفوسة[2] . وفلّ عسكر ابن غانية وأخذ ما معه من أسلحة وكراع غنيمة ، وقتل أمير قرّة سماد ابن نخيل وشيخ الزواودة محمد بن مسعود وابن عمّه حركات بن الشيخ وزعيم قبيلة مغراوة وغيرهم[3] .

وكان بنو دباب حلفاء ابن غانية موتورين من قراقوش لأنّه قتل منهم جماعة حين دخل قابس ، فحفزوا ابن غانية على المسير إليه وهو مستقر بودّان طلباً لثأرهم ، فسار إليه ابن غانية في الدبابيين سنة ٦٠٩ وحصره إلى أن نفد زاده ، فاستسلم مشترطاً على الأعراب أن يقتلوه قبل ابنه ، ففعلوا ، وصلبه يحيى بظاهر ودّان[4] .

وقد بقيت المنازعات بين ابن غانية والموحدين في مدّ وجزر ، وفي شعبان سنة ٦١٤ زار أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص مدينة طرابلس ، وأمر بأن يبنى حول سورها فصيل أقصر منه ، وقد سمّي هذا الفصيل : « الستارة »[5] ؛ ولمّا توفي الشيخ أبو محمد سنة ٦١٨ ، كان قد هدّأ الأحوال ، وقضى على أكثر الفتن ، وخلفه في ولاية إفريقية أبو العلاء إدريس ، فعاد ابن غانية يجدد محاولاته ، وكان قد اتخذ ودّان مركزاً له — بعد التخلص من قراقوش — فأرسل الموحدون جيشاً لحصاره فيها ، ففرّ منها إلى الزاب ، فتعقبه أبو زيد حتّى نازله

---

١ هو ابن الشيخ مسعود بن زمام الذي تقدم ذكره وخبر عفو الموحدين عنه .

٢ ابن خلدون ٦ : ١٩٦ .

٣ ابن خلدون ٦ : ٢٧٩ .

٤ رحلة التجاني : ١١٠ .

٥ رحلة التجاني : ٢٤٠ .

في معركة عند تونس سنة ٦٢١ فانهزم ابن غانية وقُتل في المعركة كثير من الملثمين [١] .

ولمّا استقل أبو زكريا الحفصي في إفريقية وأعمالها (٦٢٥ — ٦٤٧) ظلّ يدافع ابن غانية ويشرده في الأقطار فعاش بقية عمره مشرداً مع الأعراب إلى أن مات في برية تلمسان سنة ٦٣١ (أو سنة ٦٣٣) وبموته انتهى دور اللمتونيين في المغرب .

ومن تأمل في حال كلّ من قراقوش ويحيى بن غانية أدركه العجب من هذا الدور الذي لعباه في تاريخ المغرب . فالأول قضى نحو أربعين عاماً والثاني نحواً من ثلاثة وخمسين في الاعتماد على الأعراب من أجل السيادة والملك ، وكان ابن غانية أشدّ من زميله إصراراً وتكالباً على بناء الدول ، ولا ريب في أنّه شاغل الموحدين مدة طويلة عن التنبه للعدو الخارجي في البحر المتوسط وفي الأندلس ، وعمّق الهوة الفاصلة بين الدولة النظامية والقبائل النهّازة للفرص ، حين استغلّ تلك القبائل — كما استغلها المستنصر الفاطمي من قبل — لتقويض أسس الحضارة المستقرة . ولكنّه حين وضع في أيديها صنعة الحرب وجد لها عملاً ووجد لشجاعتها وأحقادها متنفساً ، وكان زميله وحليفه قراقوش ضحية من ضحايا تلك الأحقاد .

---

١ ابن خلدون ٦ : ١٩٦ .

طرابلس أيام الدولة الحفصية (٦٢٥ ـ ٧٢٤)

كان استقلال أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي مؤسس الدولة الحفصية في إفريقية (٦٢٥ ـ ٦٤٧) استمراراً للحماية الموحدية التي استنامت إليها مدينة طرابلس ضدّ أطماع المغامر الكبير يحيى بن غانية ، وضدّ أطماع أي مغامر آخر . وبينا كان تقرير الدفاع عن طرابلس ومنطقتها في أيام الموحدين يقتضي أن يصدر أحياناً من خليفة مراكش ، فإن استقلال الحفصيين جعل مهمة الدفاع أقرب إلى الناحية العملية ، إذ أصبح صاحب تونس قادراً على أن يؤدي هذه المهمة في وقت أقصر . ولهذا ظلت طرابلس تشعر أن الحماية الحفصية ضرورة يحتمها انصراف أهلها إلى أعمال السلم . وقابل الطرابلسيون هذه الحماية بإخلاص وولاء حتى إنهم لما حاول يعقوب بن أبي يعقوب الهرغي أن يقوم بالثورة على الحفصيين ويستقل في طرابلس أحبطوا عمله .

وقصة هذا الحادث أن الهرغي المذكور كان ممن برز بالأعمال البطولية في أيام الأمير أبي زكريا، وكان له صديق يدعى الجوهري، فقُتل صديقه هذا في سنة ٦٣٩ فحزن عليه الهرغي ، وأخرجه الأسف عن طوره ، وحدثته نفسه بالثورة على بني حفص ، فسمى نفسه الإمام الفاطمي ، وكان يعينه في دعوته محمد ابن القاضي أبي عمران بن عيسى بن عمران حتى إنّه أعدّ خطبة ليلقيها يوم بيعته يصفه فيها بقوله : « القائم بالمدينة البيضاء ذات الرمال (أي طرابلس) الفاصل بهدايته بين الحرام والحلال » .

ونمي أمره إلى أهل طرابلس فتشاور العقلاء في أمره ، وتمّ قرارهم على أن يقبضوا عليه قبل أن يعلن ثورته جهاراً ، فأحاطوا بداره في الليلة التي

خصصت صبيحتها لإعلان الثورة ، وقبضوا عليه وعلى بعض من تبعه ، وحبسوهم وكاتبوا بأمرهم صاحب تونس فجاءت الأوامر بقتلهم فقُتلوا وصُلبت جثثهم عند باب هوّارة من أبواب طرابلس[1] .

وفي فترة من أيام الحفصيين أتيح لأهل طرابلس من الاطمئنان في أحكامهم ومرافق حياتهم ما مكن لهم الاستقرار والهدوء والازدهار العلمي (الذي سأتحدث عنه في فصل مستقل) ؛ فأمّا في أحكامهم فكان لهم قاض من أنفسهم نزيه متمكن في العلم هو أبو موسى عمران بن موسى بن معمر ، وقد استقر في القضاء بطرابلس حتّى سنة ٦٥٨ حين استدعاه السلطان الحفصي إلى تونس[2] حيث تولى القضاء فيها حتّى توفّي سنة ٦٦٠ فكانت مدة قيامه بقضاء طرابلس تزيد على ثلاثين سنة . وأمّا من حيث المرافق الحيوية فقد انصرفوا إلى النشاط البحري ، ذلك أن البحر كان مورد رزقهم الأكبر سواء كان ذلك عن طريق الصيد أو عن طريق الوارد والصادر ، وكان كل واحد منهم يعتمد على ما يجلب إلى البلد من طعام ، إذ الاعتماد على الزراعة المحلية لم يكن مضموناً والبلد لم يكن بلد احترات «وهو بالجملة بحري لا برّي» ، على أن الأرض إذا غلّت لم يُعرف أوفر من غلتها ، وهذا شيء تحدث به من وصفوها من كتّاب القرن الخامس ، وخاصة فحص منها اسمه سوفجين ، ولكن ذلك كان نادراً ، حتّى جرى المثل عند الطرابلسيين « فحص سوفجين يصيب سنة بعد سنين »[3].

وقد عودهم الانصراف إلى الأعمال التجارية عدم الالتفات إلى الجندية ،

---

١ رحلة التجاني : ٢٦٧ – ٢٦٨ .

٢ رحلة التجاني : ٢٥٦ ؛ وقد خلفه في قضاء طرابلس أبو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري (الرحلة : ٢٥٧) كما كان من قضاتها بعده محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي مسلم (المصدر نفسه) .

٣ البكري : ٩ ورحلة التجاني : ٢٥٨ – ٢٥٩ .

ولذلك لجأوا للدفاع عن بلدهم إلى شيئين : أولهما المضيّ في تجديد سور بلدهم وعدم إهماله أبداً ، وكانوا قد اتفقوا مع حكامهم على أن يُصرف جانب من الدخل الذي يدفعونه في ترميم السور[1] ؛ وثانيهما تجنيد فرق مستأجرة ؛ ومكنهم الانتعاش الاقتصادي من الإنفاق على حامية قائمة لا في طرابلس وحدها بل في القرى القريبة منها التي تُعد حصانتها دفاعاً عن طرابلس نفسها ، مثل زنزور ، فقد رتب فيها الطرابلسيون حامية ، سُجل أفرادها في ديوان العطاء ، وكانوا يقبضون عطاءهم من خراج طرابلس ويحامون عن قريتهم من غارات الأعراب ، وكان أكثر تلك الحامية من مجريس — وهم فرع من هوارة — فكان هؤلاء المجريسيون يكفّون فساد الأعراب ويصدونهم عن ثمار بلدهم وأشجارهم .

ولم تعجب هذه الحال الأعراب وشيوخهم ، لذا فإن شيخ قبيلة المراغمة من الجواري — وهو مرغم بن صابر الدبابي — ظلّ يتقرب إلى الدولة الحفصية حتى استطاع أن يستخرج منها ظهيراً يمنحه تملك قرية زنزور عام ٦٧٦ ؛ فانتقم من أهل البلد بأن اتخذهم هو وقبيلته أقنان أرض على نحو ما نعرف من عبودية الإقطاع في أسوإ صوره بأوروبة ، حتى كان كل زنزوري ملكاً لواحد من المراغمة يبيعه مع أرضه حين يشاء[2] .

ولم يقنع مرغم بن صابر بهذا الكسب الصغير وإن عدّه في حينه كبيراً ، فقد سنحت له الفرصة كي يذل بطوناً أخرى من هوّارة ، والتقت أهدافه مع أهداف ثائر جديد جرى المؤرخون على تلقيبه بالدعيّ ، ثار في جهة طرابلس بعد خمسة أعوام من الظهير الذي ناله مرغم لاحتلال زنزور وتملكها هي

---

١ رحلة التجاني : ٢٣٨ .

٢ رحلة التجاني : ٢١٧ — ٢١٨ .

وأهلها (أعني سنة ٦٨١ هـ).

وأراد مرغم بن صابر أن يكسب ثورته – مع حليفه – صفة المشروعية، فالتفت صوب المشرق ليكفل تأييد السلطان المملوكي المنصور قلاوون. وكان المنصور غائباً في غزوة ضدّ التتر، فلمّا عاد من غزاته وجد رسل مرغم في انتظاره. وتحدث إليه الرسل بأن أميرهم هو «أمير طرابلس الغرب وبلادها وإليه تجتمع الألوف من عربانها» – أو هكذا كتب الكاتب على لسان مرغم – لأن مرغماً كان فيما يبدو أميّاً –؛ وعرض الرسل على المنصور أن يقوم مرغم بتجريد حملة على بلاد المغرب باسمه، وهو يسأله إرسال «سنجق شريف» يفتح به البلاد.

وتلقى المنصور الرسل بالإكرام والحفاوة وحمّلهم هدايا من الخِلع الفاخرة وغيرها إلى زعيمهم، واعتذر بأنّه مشغول بحرب التتار، غير أنّه «يبارك» أعمال مرغم – إن صحّ التعبير – وأن مرغماً يستطيع «باسمه أن يفتح كل مستغلق»[1].

والظن قويّ بأن مرغماً هو صاحب الخطة في هذه الثورة وأنّه وجد في الدعيّ عوناً، وذلك واضح في قول ابن عبد الظاهر: «فاتفق هو وثائر ثار بتلك الجهة يُعرف بالفضل ابن المخلوع»[2].

كان هذا الدعيّ يُعرف بابن أبي عمارة ويسمى أحمد بن مرزوق، وكان في أول أمره خياطاً ببجاية، ولكن طموحه كان يستشرف به إلى الملك، ففارق بلده، وعاش بين عرب المعقل في صحراء سجلماسة مدة من الزمن وانتسب إلى العلوية وادعى أنّه الفاطمي المنتظر، فالتف حوله الناس في تلك الصحراء

---

١ تشريف الأيام والعصور: ٤٤ – ٤٥.

٢ المصدر السابق.

بعد أن حدثهم أنّه قادر على تحويل المعادن إلى ذهب، فلمّا تبين عجزه توارى من بينهم ليظهر في جهات طرابلس بين قبيلة دباب مدعياً أنّه ابن الواثق المخلوع[1] من الحفصيين ، فصدقته دباب وبايعوه أو قل إن مرغم بن صابر استمالهم إلى صفّه لتحقيق أهدافه الخاصة ، دون أن يكون بحاجة إلى أن يصدّق بأن الدعي صادق في نسبه[2] ؛ واجتمع الحليفان على حصار طرابلس ، وواليها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي الملقب « عنق الفضة »[3] ولكن المحاصرين لم يستطيعوا إحراز نصر أمام سور طرابلس المنيع ، فانقضوا على بطون هوّارة القاطنة في جهات زنزور وعلى غيرها من قبائل البربر مثل لماية وزواوة ونفوسة ونفزة وفرضوا عليهم الإتاوات ، ثم سما بهم الطموح إلى قابس ، وفيها واليها عبد الملك بن مكي (في رجب ٦٨١) فنزل ابن مكي على بيعة الدعي ، وانضمت إليه الكعوب في منطقة قابس واستطاع أن يتغلب على توزر وبلاد قصطيلة وقفصة ثم القيروان والمهدية وصفاقس وسوسة ؛ وأن ينعم على حليفه الكبير مرغم بن صابر بولاية طرابلس وأن يكتب له بها منشوراً مؤرخاً في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨١ وأن يكنيه بأبي الوفاء[4] تقديراً لوفائه .

وكان أكبر انتصار حققه ابن أبي عمارة حين أبت جيوش السلطان الحفصي أن تزاحفه بقيادة أبي فارس ابن السلطان ، فلمّا خرج السلطان إبراهيم ليقود

---

١ كان الواثق قد خلع ، خلعه إبراهيم الأول سنة ٦٧٨ وتولى مكانه ، وكان للواثق ابن اسمه الفضل فيه شبه من الدعي .

٢ لقد صور الزركشي العلاقة بين مرغم بن صابر والدعي بكلمة لافتة وذلك حين قال : وألقيت محبته في قلب أبي علي مغرم (اقرأ مرغم) بن صابر بن عسكر شيخ دباب فعضده وجمع عليه العرب (تاريخ الدولتين : ٣٥) .

٣ الزركشي : ٣٥ .

٤ تشريف الأيام والعصور : ٤٦ .

تلك الجيوش بنفسه انفض عنه كبير الدولة موسى بن ياسين بجموع كبيرة وانضم إلى ابن أبي عمارة ، فاختل حال السلطان وهرب إلى بجاية ودخل ابن أبي عمارة مدينة تونس . ثم حقق انتصاراً آخر على السلطان الذي قُتل في المعركة عام ٦٨٢ ، واشتط الدعيّ في سياسته ، ولم ينقذ الناس منه إلا الخليفة الحفصي الجديد أبو حفص عمر بن أبي زكريا (٦٨٣ — ٦٩٤) وذلك في سنة ٦٨٣ فأعاد إلى الدولة الحفصية بعض هيبتها المفقودة وحينئذ أرسل إليه محمد ابن عيسى الهنتاتي والي طرابلس مقرّاً بالولاء والطاعة[1] .

غير أن « أبا الوفاء » — مرغم بن صابر لم يتح له أن يشهد حليفه في أوج انتصاره ولا أن يبدي الأسف يوم مصرعه ، لأن الأيام كانت قد عبثت بزعامته ، كأنّما انتقمت في شخصه لأهل مجريس الذين حوّلهم إلى أقنان ، فقد بيع زعيم المراغمة سنة ٦٨٢ لملك أراغون البرشلوني حين أسره بعض الصقليين . أما لماذا اشتراه الطاغية البرشلوني فلعله الرغبة في المساومة في إحراز مبلغ ضخم من الفداء ؛ ولكن المصادفات تفعل فعلها أيضاً في مجرى الأحداث ، فقد كانت الدولة الموحدية في مراكش قد لفظت أنفاسها بمقتل أبي دبوس سنة ٦٦٧ ، وتفرق أبناؤه في الأرض فنزل عثمان منهم على طاغية برشلونة ووجد لديه حفاوة وإعظاماً ، إكراماً لعمّه أبي زيد الذي كان قد تنصّر من قبل .

وأراد عثمان أن يقوم بمغامرة يستعيد فيها دولة الموحدين ، كالتي قام بها من قبله ابنا غانية لاستعادة دولة الملثمين ؛ ولعلّه حدث مرغم بن صابر بما عقد عليه العزم ، ولعلّ مرغماً ذلك الشيخ الداهية قد أدرك أن دوره في هذا الأمر هو تتمة لدوره — الذي لم يبلغ تمامه — مع الدعيّ : لا بد من أن تكون

---

١ ابن خلدون ٦ : ٣٠٢ — ٣٠٣ .

طرابلس منطلقاً لهذه الدعوة ، ولا بد من أن يكون بنو دباب هم حملة لوائها ، ولم ينفق عثمان كبير وقت لإقناع ملك برشلونة بخطته فإن طرابلس بعيدة عن العاصمة (تونس) ، وفيها يستطيع مرغم أن يستثير الأعراب لنصرته .

وأعطى البرشلوني لحليفه عثمان أسطولاً مزوداً بالمقاتلة من نصارى برشلونة ، وأطلق — إكراماً له — مرغم بن صابر ؛ فنزل الأسطول على طرابلس سنة ٦٨٨ ؛ وذهب مرغم يستنفر قومه ليكون الحصار من الناحيتين البحرية والبرية ، واجتمع الأعراب حول طرابلس وشدّد الأسطول عليها الحصار ، وفي خلال ثلاثة أيام أنزلوا بالمدينة أضراراً جسيمة ، غير أن الأسطول انسحب عنها ونزل بأقرب السواحل إليها ، أما مرغم وابن أبي دبوس فأخذا يتنقلان في نواحي طرابلس بعد أن ضمنا وجود عسكر مقيم على حصارها ، وكانا في تجوالهما هذا يجمعان الضرائب والمغارم ليدفعا ما تضمنا دفعه للأسطول البرشلوني ، فلمّا تسلّم قبطان الأسطول المبلغ المتفق عليه غادر طرابلس عائداً إلى برشلونة[1] دون أن يهتم كثيراً بنجاح ابن أبي دبوس ، والظاهر أن الأسطول البرشلوني قدم للتخويف وحسب ، لمدة محدّدة ، ولم يكن يريد أن يدخل في مغامرة لا تُعرف نتائجها ، وما دام قد حصل على المال المطلوب ، فالعودة آثر إليه .

لقد أثبتت حركة ابن أبي دبوس[2] وحليفه مرغم لأهل طرابلس — رغم إخفاقها — أنهم لا يستطيعون أن يخلدوا إلى الراحة ما دام بلدهم هدفاً للمغامرين من ناحية ، وما دام الأعراب من حول مدينتهم مستعدين للالتفاف حول أي

---

١ ابن خلدون ٦ : ٣٠٨ .

٢ استمرت حركة ابن أبي دبوس حتى سنة ٧٠٥ . (انظر الزركشي : ٤٤) .

ثائر يلوّح لهم بالغنائم ، وقد حماهم السور — هذه المرة — لقصر الإقامة ، ولكن هب أن أسطولاً — أيّ أسطول — ظلّ يصابرهم الحصار حتى تنفد أقواتهم ، أليس معنى ذلك أنهم دائماً معرضون للخطر ؟ وقد ضعفت السلطة الحفصية في تونس وكثر احتراب المتنازعين على السلطة ، ولم يعد الاعتماد على عون الحفصيين سياسة حكيمة ؛ وفات الوقت لتكوين جيش طرابلسي قويّ يحمي المدينة ممن يطمعون فيها . إذن لم يبق أمام الطرابلسيين إلاّ أن يزيدوا من مناعة مدينتهم وأن يجعلوها منطلقاً لثائر ذي حق في العرش الحفصي يوجه الأعراب إلى الهجمات منها لا إلى الهجوم عليها . ولجأوا في الخطة الدفاعية إلى زيادة المنعة بحفر خندق حول المدينة يصل من جانبيه إلى البحر ويمتلىء بالماء إذا داهمهم عدو من جهة البر ، بحيث تصبح طرابلس قلعة لا يرومها طامع ، كأنّها إحدى قلاع النبلاء في أوروبة الإقطاعية ، وقد كلفهم هذا العمل قسطاً كبيراً من الجهد ، ولما زار التجاني بلدهم عام ٧٠٧ وجدهم قد اصطدموا بعقبة تسمى « الرملة » فكانوا كلّما نقلوا رملها من موضعه ردّته الريح كما كان[1]. وليس لدينا ما يثبت أنهم مضوا في هذا العمل حتى أتموه .

ونزل طرابلس أمير حفصي عائد من الحج عام ٧٠٩ هـ فوجدوا فيه تحقيقاً لهدفهم الثاني ، وهو جعل طرابلس نفسها منطلقاً للهجوم لا هدفاً له . ذلك هو أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني الذي كان قد أقام بينهم مدة (٧٠٧ — ٧٠٨) عند توجهه إلى الحج وأخلى الوالي له قصبة المدينة ، وكسب أثناء مقامه احترام الطرابلسيين . وليس بمستبعد أن يكون الطرابلسيون هم الذين فاتحوه في أمر الدعوة لنفسه واتخاذ طرابلس مركزاً له ، وشجعه على قبول ذلك ، ما كان يترامى إليه من أخبار الاضطراب والتنازع على السلطة بتونس . فبايعه

---

١ رحلة التجاني : ٢٣٨ والزركشي : ٤٩ .

أهل طرابلس والتف حوله الأعراب وقدم عليه رجالات الكعوب وأبناء أبي الليل ، وزاد من إقدامه على ما انتواه أن أحد المتنازعين على السلطة بتونس أوفد إليه رسولاً ، متظاهراً بأنّه يؤيده إن شاء احتلال عاصمة الحفصيين ، وهو يضمر أن يستعين به على التخلص من خصمه ، ونجحت الخطة واحتل اللحياني تونس سنة ٧١١ وأُخذت له بظاهرها البيعة العامة [١] .

ولكن الثورات التي نشبت في وجهه أثبتت له أنّه عاجز عن إدارة دفة الحكم ، فارتحل إلى طرابلس ومعه مقدار كبير من المال والجواهر ، واتخذها عاصمة له وبنى بها موضعاً لجلوسه يقال له « الطارمة » ، بناه بالجليز والرخام . وكان مرغم بن صابر شيخ الجواري قد توفّي وخلفه في زعامة القبيلة ابنه هجرس ، فاستعان اللحياني به وبقومه وكوّن منهم جيشاً بقيادة أبي عبد الله ابن يعقوب ففتح كثيراً من المدن الليبية حتّى بلغ برقة ، وفرض الضرائب ، وأقام سلطة حفصية — مستقلة — في أكثر أرجاء ليبيا [٢] .

ولمّا استطاع ابنه — أبو ضربة — أن يتولى السلطة في تونس سنة ٧١٨ كان أبوه بطرابلس مفزعه الوحيد في طلب المدد حين واجهته الثورات . فلمّا هُزم أبو ضربة أدرك اللحياني الأب أن الحكم محفوف بالمكاره ولا صبر له عليها ، ولما اضطرب عليه جنده أنفسهم قرر الرحيل وفاوض أسطولاً للنصارى نقله إلى الإسكندرية [٣] وخلّف على طرابلس أبا عبد الله بن أبي عمران صهره وقريبه [٤] فبقي فيها حتّى استعان به حمزة بن عمر أحد الثائرين على السلطان

---

١ ابن خلدون ٦ : ٣٢٥ .

٢ ابن خلدون ٦ : ٣٣٠ والزركشي : ٥٣ .

٣ تلقاه السلطان محمد بن قلاوون بالحفاوة ثم استقدمه إلى مصر وأسنى جرايته وبقي حياً حتى سنة ٦٢٨ .

٤ ابن خلدون ٦ : ٣٣٠ .

الحفصي المتوكل (٧١٨ – ٧٤٧) فخرج لمساعدته سنة ٧٢١ ، فلمّا رأى قلة غنائه أعاده إلى طرابلس ، وبقي والياً فيها حتّى ثار عليه أهلها وأخرجوه (سنة ٧٢٤) [1] .

سيادة الجواري الوشاحيين في طرابلس (٧٢٤ – ٨٠٣)

تميزت فترة الحفصيين في تاريخ طرابلس بضعف سلطان العائلات الطرابلسية الغنية فيها أمثال بني مطروح وبني نقاد وسيطرت الفئات الشعبية على شؤون الحياة والبتّ في الأمور . وقد يصعب تفسير هذه الظاهرة في بلد تجاري تقوم الحياة الاقتصادية فيه على مداخلات الطبقات الغنية ورؤوس أموالها وقدرتها على التحكم في الأسواق وعلى المفاوضات المالية ، ولكنا إذا تذكرنا أن المرافق الحيويّة ، وهي المتصلة بالميناء ، كانت في أيدي العاملين من الفئات الشعبية ، وتذكرنا ما كان يهدد طرابلس من أخطار تأتيها من قِبَل البحر كما تأتيها دوماً من جهة الأعراب الذين لا ينفكون يهددون أمنها وسلامتها ، عرفنا أن أي تلويح من الفئات العاملة بمظاهرة الأعراب كان كفيلاً بتحطيم الثروات وأصحابها ، ولذلك رضي الأثرياء بهذا الوضع لأنهم وجدوا فيه الحلّ الوحيد .

وفي خضم تلك الحياة الزاخرة بالتقلبات ارتفع إلى مكان الصدارة أقوام لم يكن لهم من قبل دور فيها ، وجذبت نوازع الاستقرار بعض الأعراب أنفسهم فاستوطنوا مدينة طرابلس وتخلوا عن بداوتهم ، وشاركوا في شؤون

---

١ ابن خلدون ٦ : ٣٣٣ – ٣٣٤ .

الحياة الاقتصادية ؛ وبعد أجيال أصبحت بعض العائلات البدوية المستقرة ذات مجد قائم على الثراء ، مثلما هو قائم على نقاء النسب العربي ، وكان في طليعة تلك العائلات بنو ثابت وهم من قبيلة الجواري من وشاح . فلمّا تخلّص الطرابلسيون من ابن أبي عمران الحفصي وقع اختيارهم على رجل من هذه العائلة ليتولى أمر البلد ، وكان ذلك يعني أن العائلات الغنية انتصرت انتصاراً مزدوجاً : فهي قد عادت إلى السلطة بأمير يمثل مصالحها ، وهذا الأمير من قبيلة الجواري ، فهو قادر على أن يتفاهم مع أقربائه الأعراب حول المدينة . ومثلما استقل بنو ثابت بحكم طرابلس وضواحيها : زنزور وغريان، استقل أبناء عمومتهم بنو مكي — من المحاميد — بحكم قابس ونفوسة . إلاّ أن بني ثابت ترددوا أحياناً بين الاستقلال والتبعية للحفصيين .

ولا نعرف شيئاً واضحاً عن أول اثنين من هذه الأسرة وهما ثابت بن محمد بن ثابت (٧٢٤ — ٧٣٠) وابنه محمد (٧٣٠ — ٧٥٠) ولكن الحفيد ثابت بن محمد (٧٥٠—٧٥٥) كان شاباً غرّاً يوم ولي شؤون طرابلس[1] وقد أعلن استقلاله عن الحفصيين . وفي أيّامه هاجم الجنويون طرابلس ، لأنهم كانوا أثناء ترددهم إليها من قبل قد عرفوا مواضع الضعف فيها فجاءوا في زي تجار وقد تواطأت معهم الجالية الأجنبية الموجودة في داخل البلد . فلمّا قدموا في السفن أرسلوا ترجماناً شيخاً مجرباً ، فرأى في البلاد غلاء لقلة الحَبّ فيها ، فأشار إلى الطرابلسيين بأن المراكب محملة بالطعام والحاجات اللازمة ، فحفزت الحاجة الملحة أهل البلد على أن يفيدوا من هذه الفرصة الذهبية ، وعندئذ اشترط الجنويون على ثابت أن يجمع الأسلحة من أيدي الجند ويودعها في القلعة حتّى يطمئن التجار فينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من بضائع ،

---

١ الدرر الكامنة ١ : ٢٥٦ .

وداعبوا طمعه بحصة تساوي خمس المبيع ، فوافقهم على ذلك ، وأنزل الجنويون أحمالاً من التين (المجفف) كانت لديهم ففرح بها الناس وتسارعوا إلى شرائها ، وفي الليل تسوّر من بقي من الجنويّين السور وهجموا على البلد في السَّحَر[1]، دون أن يكون في أيدي الناس سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، فطلب كل واحد النجاة لنفسه ، وهرب ثابت متدلياً بعمامته من السور ، ولجأ إلى حلة أعراب كان لهم عنده ثأر فقتلوه ، وهرب أخوان له لاحقين بالإسكندرية ، وأعمل الجنويون في المدينة النهب ، وشحنوا سفنهم بما وجدوه من متاع وما احتجزوه من أسرى وسبايا ، وأقام بعضهم في المدينة ، ففاوضهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس بالتخلّي عنها لقاء مبلغ من المال ، فاشترطوا أن يدفع لهم ٥٠ ألف دينار عيناً ، فأرسل ابن مكي يستعين بالسلطان المريني أبي عنان صاحب المغرب ، ولكن الجنويين استعجلوه الدفع ، فدفع ما لديه وجمع من أهل قابس والحامة ومدن الجريد ما وفى به المبلغ المقرر ، وقدّمه إليهم ، فتنازل له الجنويون عن المدينة بعد أن امتدت إقامتهم فيها أربعة أشهر – وقيل خمسة – وأصبح ابن مكي والياً عليها[2] .

ووصل المبلغ الذي أرسله أبو عنان ومعه توصية بأن يرد للناس ما أخذ منهم ، فامتنعوا عن استرداد هباتهم إلاّ قليلاً منهم ، فسلّم المال لابن مكي كي ينفقه في إصلاح شؤون البلد[3]. وهذه الحادثة استوقفت ابن جزي مرتب رحلة ابن بطوطة ، وكان يومئذ يعمل عند أبي عنان ، فأثنى على هذا السلطان وعلى سداد نظره ، وروى أن السلطان حين بلغه أن المدينة فُديت بالمال ، حمد الله تعالى أنها استُرجعت بالنزر اليسير . قال ابن جزي : «ولم يخطر في

---

١ المصدر نفسه .

٢ الزركشي : ٨٠ .

٣ ابن خلدون ٦ : ٣٦٨ .

الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزراً يسيراً ، حتى جاء بها مولانا — أيّده الله — مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قلَّ في الملوك أمثالها ، وعزَّ عليهم مثالها »[1] .

واتخذ ابن مكي من طرابلس عاصمة له ، وبقي فيها إلى حين وفاته سنة ٧٦٦ هـ فوليها بعده ابنه عبد الرحمن ، وكان سيء السيرة فكرهه أهل طرابلس[2].

وكان أبو بكر بن محمد بن ثابت هو أحد الأخوين اللذين فرّا إلى الإسكندرية ؛ وفي عام ٧٧٢ عاد إلى طرابلس في أسطول فحاصرها وأعانه أهلها على احتلالها تخلصاً من عبد الرحمن بن مكي ، فلمّا احتلها قبض على ابن مكي وأرسله مع أمير من أمراء دباب إلى محلة قومه بقابس . وقد راسل أبو بكر هذا سلطان الحفصيين أحمد بن محمد (٧٧٢ — ٧٩٦) بالطاعة ، وظلّ على ولائه له ، وأرسل إليه هدية عام ٧٨٢ تهنئة بانتصار أحرزه على مناوئه . وإمعاناً في إظهار إخلاصه للحفصيين أبى أن يتقبل يحيى بن عبد الملك بن مكي لاجئاً في طرابلس[3] .

وخلفه على ولايتها عمران بن محمد بن ثابت (٧٩٢ — ٨٠٠) وفي عهده اشتد الخلاف بين أفراد هذه الأسرة ، فقام قائد طرابلس ابن خلف يستنجد السلطان الحفصي أحمد بن محمد ليعينه على التخلص من بني ثابت ، فأرسل معه ابنه عمر لحصار طرابلس فأقام على حصارها عاماً كاملاً يمنع الأقوات حتى ضجر الناس ، وضجر هو من طول الإقامة ، فاتفقوا معه على ضريبة يدفعونها له ، فوافق على ذلك وعاد إلى تونس سنة ٧٩٥ .

---

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٦٣ .

٢ ابن خلدون ٦ : ٤٢٣ .

٣ ابن خلدون ٦ : ٣٩٢ ، ٤٢٣ والزركشي : ٩٦ .

ثم تجددت الخلافات بين علي بن عمران وابني عمه يحيى وعبد الواحد ، فذهبا يستعينان بالسلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز ، فسار إلى طرابلس سنة ٨٠٠ وطرد علي بن عمران ، وولى يحيى بن أبي بكر وجعل عبد العزيز قائداً للجند ، ثم عرف أن الرجلين لم يحسنا إدارة البلد ، فعاد إلى طرابلس سنة ٨٠٣ «وأقام محاصراً لها مدة طويلة إلى أن تمكن منها برغبة أهلها ، على يد صلحائها وذلك في سادس رجب من السنة المذكورة ، وجعل قائداً من قبله فيها ورجع إلى حضرة تونس»[1] ؛ ومعنى ذلك أنه عزل الرجلين يحيى وعبد العزيز ، وأنهى سيادة بني ثابت في طرابلس ، وأعادها ولاية حفصية يعيّن واليها من قبل الحفصيين .

ومن هذا نرى أن عهد بني ثابت لم يحقق شيئاً من الازدهار والطمأنينة لطرابلس ، وكانت أحداثها تستدعي تدخل الحفصيين في كل مرة ؛ كما شاركهم السيادة فيها بنو مكي فترة من الزمن .

---

١ الزركشي : ١٠٥ .

الحياة الثقافية في ليبيا

من أواخر القرن الرابع حتى مطلع القرن التاسع

٣٦٠ – ٨٠٠

استمرت الحياة الثقافية في أرجاء ليبيا ناشطة في زمن العبيديين وخلفائهم على المغرب من بني زيري الصنهاجيين ، حتى حلت الموجة البدوية التي تحيفت العمران عامة ، ولا بد من أنها كانت ذات تأثير في الحركة العلمية أيضاً إذ قضت على مدن كان فيها من قبل مراكز دراسية وألجأت بعض العلماء إلى الهجرة وأودت بفريق آخر منهم .

وفي الفترة التي سبقت تلك الموجة البدوية كانت دور القرآن ما تزال تعمر المدن والقرى ، وكانت المراكز الكبرى مثل طرابلس وبرقة وجبل نفوسة ما تزال تحفل بالحلقات العلمية حول الشيوخ ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول : إن هذا الشيء يكاد يكون أمراً عاماً في جميع أرجاء العالم الإسلامي حينئذ ، دون استثناء كثير . وقد كانت دور القرآن التي يتلقى فيها الصبيان التلاوة ومبادىء القراءة وشيئاً من الحساب أمراً حيوياً لا غنى عنه في البدو والحضر ، وحسبنا أن نذكر كيف أن قبائل بدوية مثل بني قرة ببرقة رحبت بأبي ركوة معلماً لأبناء القبيلة قبل أن تعلم شيئاً عن نواياه السياسية .

ووجد المثقفون الليبيون أن أبواب الهجرة مفتوحة أمامهم إلى مصر والقيروان وصقلية والأندلس : إما طلباً للمناصب وإما هرباً من حكم العبيديين ، فهاجر بعضهم وانقطعت صلته بموطنه الأصلي وإن ظل يحتفظ بنسبته القديمة ، فكان الشاعر أبو الحسن البرقي من مداحي الحاكم[1] ، وكان

---

١ ياقوت (مادة : برقة) .

اثنان من أبناء الوداني من شعراء صقلية وأحدهما صاحب ديوان الرسائل[1] وكان الشاعر ابن شرف في بلاط المعز بن باديس أجدابيّ المنتمى ، ووصل إبراهيم ابن قاسم الأطرابلسي إلى الأندلس وعنه أخذ الفقيه ابن حزم الظاهري[2] .

وسار بعض هؤلاء المثقفين في اتجاهات جديدة لم يكن أحد قد توفر عليها من قبل بالتأليف في بلدهم ، فظهر الالتفات إلى التاريخ عند أبي العباس عبد الله ابن عبد الرحمن الأجدابي (توفّي ٣٨٤) الذي كان ممتازاً أيضاً في سائر العلوم المدروسة حينئذ[3] ؛ وعند أبي عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي (توفي ٤٣٢)[3] ، وأتقن أحمد بن نصر الداودي (المتوفى ٤٠٢)[4] علم الكلام وألف فيه كتاباً في الردّ على القدرية ، هذا بالإضافة إلى كتابه المفيد في « الأموال » وهو فتاوى وأحكام في ما جرى عليه الحال في البلدان المفتوحة أمثال صقلية والأندلس[5] ، إلى نشاط فقهي خالص يمثله شرحه للموطإ وكتابه المعنون بالواعي وكتاب « النصيحة » في شرح البخاري . وكذلك عُرف أحمد ابن خلف الأجدابي (المتوفى ٣٩١) بالبراعة في الجدل إلى جانب تمكنه في الفقه .

وإذا ذكرنا الفقه قلنا إنّه ظلّ المظهر الغالب على الدراسة والتأليف وبرز فيه من العلماء – عدا الداودي وأحمد بن خلف – جماعة منهم الفقيه الصالح أبو الحسن السيقاطي (المتوفى ٤٢٠) وكان يتعبد بمسجد سيقاطة على ساحل

---

١ الخريدة : ٤/١ : ٨٩ ، ٩٧ .
٢ جذوة المقتبس : ١٤٧ .
٣ أعلام ليبيا : ١٩٠ نقلا عن معالم الإيمان .
٤ الديباج : ٣٥ .
٥ من هذا الكتاب نسخة بالاسكوريال تحت رقم : (١١٦٥) .

البحر بطرابلس[1] ، وأبو مسلم مؤمن بن فرج الهواري الطرابلسي (المتوفى ٤٤٢) وكان يقرىء بمسجد معروف باسمه[2] .

وأشهر فقهاء هذه الفترة أبو الحسن علي بن محمد بن المنمر الطرابلسي الفرضي (٣٤٨ – ٤٣٢) الذي نصر السنّة في طرابلس وأعان على التخلص من مذهب العبيديين ، ومن تآليفه : « الكافي » في الفرائض ، وكتاب في الحساب والأزمنة[3] . وكان لابن المنمر دور سياسي في تاريخ بلده نفي بسببه إلى قرية تدعى غانيمة في أيام المنتصر بن خزرون[4] ؛ ومن فقهاء الإباضية يحيى بن الخير الجناوني – نسبة إلى بلده جناون – درس على أبي الربيع سليمان ابن أبي هارون الباروني بمدينة أبناين ثم عاد إلى بلده فتسلم أمور الفتوى ، وله في الفقه الإباضي والفتاوى مؤلفات ، قال الشماخي : « كان اعتماد أهل نفوسة على كتبه حفظاً وفتيا لكونه أودع فيها المأخوذ به من الأقوال ، وربما ذكر الخلاف ، وهي كتب مفيدة في الأحكام » .

أمّا في العربية فلعلّ أعظم من أنجبته طرابلس في هذا الباب أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجدابي اللواتي الطرابلسي ؛ وهو من أبناء القرن الخامس بلا نزاع وإن قال القفطي فيه « وهو متأخر » . وممّا يؤيد ذلك أنّه كان موجوداً بطرابلس أيّام تولى قضاءها ابن هانش الذي بقي فيها قاضياً من ٤٤٤ – ٤٧٧ [5] .

---

١ رحلة التجاني : ٢١٩ .

٢ رحلة التجاني : ٢٦٥ .

٣ المصدر نفسه .

٤ انظر ما سبق ص : ١٣٥ .

٥ ذكر الدكتور عزة حسن محقق كتاب الأنوار أنه توفي حوالي سنة ٦٥٠ (المقدمة : ٢١) ولم يتنبه إلى أن القفطي ترجم له (والقفطي توفي سنة ٦٢٤) وأن ياقوتاً ذكره في معجميه .

وُلد إبراهيم الأجدابي بطرابلس وهو كما تدل نسبته لواتي الأصل ، ولم يرحل من بلده في طلب العلم، ولما سئل: أنى لك هذا العلم ولم ترتحل ؟ قال : اكتسبته من بابي هوارة وزناتة ، وهما بابان من أبواب البلد نُسبا إلى من نزل بهما في أول الزمان ؛ يشير أنّه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين . وكانت دار أبي إسحاق في وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم وفيها كان يتلقى الوفود ويقوم بضيافتهم .

ولم يقتصر أبو إسحاق في علمه على العربية بل كان حسب وصف التجاني « من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً ونثراً » . وكان في الغاية من إتقان الخط ، وللناس تنافس على ما كتبه بخطه ، كما كان مكثراً من التأليف ، فمن مؤلفاته :

١ – كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية[1] ، وهو موجز على مثال فقه اللغة للثعالبي ، وقد بناه على عدة أبواب منها : باب في صفات الرجال المحمودة – باب في صفات النساء الممدوحة – باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان – باب في الحلي – باب في الإبل . . . الخ .

وإليك مثلاً مما جاء في باب النبات[2] : « الشجر ما كان على ساق من النبات والنجم ما ليس له ساق ، قال الله ، عز وجل : ﴿ والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدان ﴾ والكلأ : العشب ، والخلا : الرُّطب – بضم الراء – وهو ما كان غضّاً من الكلأ ، والحشيش : ما يبس منه ، والخلة : ما حلا من النبات . . . »

---

١ طبع في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣٠٥ .

٢ انظر الصفحة ٥٩ من الكتاب .

ويقول الأجدابي في مقدمته : « هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات ، وأعريناه من الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله » .

والكتاب على صغر حجمه كبير الفائدة للدارسين لسهولة تناوله وقرب مأخذه ، وقد وصفه القفطي بقوله : « وصنف في اللغة مقدمة لطيفة سماها كفاية المتحفظ يشتغل بها الناس في الغرب ومصر » . وقد عني الناس بها من بعد فنظمها الحوبي وابن جابر الأعمى وأبو الفدا .

٢ — كتاب الأزمنة والأنواء[1] : قال التجاني فيه : « وله تأليف مختصر في الأنواء على مذهب العرب » . وهو موجز حقاً كما قال لكنه على إيجازه متقن الترتيب حافل بالمعلومات اللغوية وما يتصل بموضوع الكتاب، دقيق في ما يورده . ومن أمثلته قوله في الحديث عن أسماء الشهور : « وإذا وقع منا ذكر السنة العجمية فمرادنا بذلك سنة الروم والسريانيين وشهورهم ، وهم متفقون في حسابهم ليس بينهم اختلاف إلا في أسماء الشهور ، فإن السريانيين يسمونها بلغتهم والروم يكتبونها بلغتهم ، وهي مستعملة في بلاد المسلمين بكلتا اللغتين ، فأهل الشام والجزيرة يستعملونها بلغة السريانيين وأهل الأندلس وصقلية وإفريقية وما اتصل بها يستعملونها بلغة الروم ، وسنذكر أسماءها بلغة الفريقين ، ثم نذكر أسماء شهور القبط التي يستعملها أهل مصر ، إن شاء الله تعالى »[2]. ويمتاز الأجدابي في هذا المؤلف كما يمتاز في سابقه بوضوح الغاية التعليمية التي يهدف إليها من هذا التلخيص المتسق الذي لا يشق حفظه على الطلاب .

---

١ نشر في دمشق سنة ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور عزة حسن .

٢ انظر ص ٤٧ — ٤٨ من الكتاب .

٣ ، ٤ — كتابان في العروض واحد كبير وآخر صغير وفيه يقول التجاني : « ناهيك به حسناً وترتيباً وتهذيباً » .

٥ — الردّ على ابن مكي صاحب تثقيف اللسان [1] .

٦ — شرح ما آخره ياء مشدّدة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير وتكسير وغير ذلك . ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جميلاً تعرض لشرح المقاطع الواردة في سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام ، فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق .

٧ — مختصر في علم الأنساب : اختصر فيه كتاب أنساب قريش لأبي عبد الله الزبير بن أبي بكر بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، وكان أبو الحسن علي بن مغيث يقول فيه : هو كتاب عجب لا كتاب نسب ؛ وقد أدخل فيه ابن الأجدابي من حفظه زوائد تشتمل على فوائد نبّه لها .

٨ — رسالة في الحَوَل : ألفها حين حضر يوماً عند ابن هانش قاضي طرابلس فحكم بحكم أخطأ فيه فرده ابن الأجدابي فقال له ابن هانش : اسكت يا أحول فما استُدعيت وما استُفتيت ؛ وهي رسالة تدل على حفظ غزير وأدب كثير .

٩ — أسئلة فقهية .

وكان ابن الأجدابي صاحب مكتبة غنية ، حصل علمه منها ومن لقاء المارين

---

١ ابن مكي من لغويي صقلية ، وكتابه تثقيف اللسان يبين الأخطاء التي درج عليها الناس قولا وكتابة وقد أفدنا منه في دراسة « العرب في صقلية » .

بطرابلس من العلماء ، وقد كتب بخطه كثيراً من أمهات الكتب مثل كتاب الفصيح وأمثلة الغريب لكراع ، ولما زار التجاني مدينة طرابلس (٧٠٧ — ٧٠٨) ملك أكثر كتبه بخطه .

لقد عاش ابن الأجدابي أيام المدّ البدوي ، فهو يمثّل استمرار النشاط الثقافي في القرن الخامس قبل ذلك المدّ . حتّى إذا جاء القرن السادس أخذت حركة التأليف تنحسر ولم نعد نسمع عن علماء في مثل وزن الداودي وابن الأجدابي وابن المنمر . ونستطيع أن نعدّ من أشهر علماء ذلك القرن أبا الحجاج يوسف بن زيري قاضي طرابلس في الفترة الصقلية من تاريخها ، وله كتاب « الكافي في الوثائق »[1] .

وأكثر العلماء الليبيين الذين عرفناهم من أبناء القرن السادس هم من الذين اتصلوا بالسلفي لدى مرورهم بالإسكندرية ، وكان السلفي يستقبل الراحلين من المغرب فيأخذ عنهم ويأخذون عنه[2] . وهذا يدل على أن ليبيا لم تخلُ من علماء في تلك الآونة وإنّما لم تجد من يسجل ما فيها من صور النشاط العلمي حينئذ . وممن لقيه السلفي الحسن بن فراج الأطرابلسي (توفي ٥٢١) وهو ينتسب من حيث الأم إلى عمر بن وارّوا[3] ؛ وقد صنف تاريخ طرابلس[4] ؛ ورافع بن تميم البرقي ، وُلد ببرقة وانتقل إلى الإسكندرية في صغره ودرس على شيوخها وكان له شعر أكثره ملحون[5] ؛ وعلي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي (توفي ٥٣٣) : كان ذا دراية بفنون من العلم وألف تاريخ

---

١ رحلة التجاني : ٢٤١ — ٢٤٢ .

٢ راجع أخبار وتراجم أندلسية لترى صورة مما سجله السلفي عن الأندلسيين .

٣ هكذا ضبطه السلفي .

٤ أعلام ليبيا : ٩٩ نقلا عن معجم السفر للسلفي .

٥ المصدر نفسه : ١٠٩ .

طرابلس أيضاً[1] .

ويبدو أن العوامل المسؤولة عن ركود الحركة العلمية في القرن السادس — إلى جانب العزلة التي وقعت فيها ليبيا بعد غزو القبائل العربية — هي :

١ — فقدان ولاية برقة للمشاركة العلمية بعد خراب مدنها وقراها وتحولها إلى حياة بدوية .

٢ — اضطراب الأوضاع السياسية في طرابلس وخاصة أيام مغامرات قراقوش وابن غانية .

٣ — عدم ظهور الفرد الحاكم — أو الأسرة الحاكمة — لتشجيع أي نوع من أنواع النشاط العلمي .

حتى إذا جاء القرن السابع أخذنا نشهد ما يمكن أن يسمى « عصر النهضة الثقافية » ، إلا أنها نهضة متقلصة من حيث البقعة المكانية فهي لا تتجاوز منطقتين هما طرابلس وجبل نفوسة . ويعزى جانب من هذه النهضة إلى إنشاء المدارس النظامية في كل من طرابلس والجبل . وقد ذكر التجاني أن في طرابلس مدارس كثيرة وعدّ أحسنها المدرسة المنتصرية التي تمّ بناؤها على يد الفقيه ابن أبي الدنيا بين ٦٥٥ — ٦٥٨ قال : وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً ، وقد زارها ابن سعيد من قبل ورأى ساحاتها مزروعة بالأزاهير[2] وشاهدها العبدري وأثنى عليها . وفي الجبل أسس علماء الإباضية مدارس نظامية متعددة بعد أن كان التعليم يقوم في الأكثر على الحلقات في المساجد أو دور العلماء ، فمن ذلك المدرسة التي أسسها أبو موسى

---

١ المصدر نفسه : ٢١٢ .

٢ رحلة التجاني : ٢٥٢ .

عيسى الطرميسي في مكان متوسط بين جادو وطرميسة لكي تكون ملتقى الطلاب من عدة قرى ، وفيها تخرّج عدد كبير من العلماء ، ومنها مدرسة أبي زيد المزغورتي ومدرسة الشماخي في يفرن ؛ وقد كانت الحياة المتصلة بهذه المدارس تقوم على أسس منظمة كما كانت تعتمد في الإنفاق على ما يتبرع به مشجعو العلم لتكفل استمرارها .

ومن المؤكد أن هذا العصر والعصر الذي يليه في جبل نفوسة كانا من أشد العصور ازدهاراً من حيث التأليف ، فإن الطرميسي (المتوفى سنة ٧٢٠) قد شجع الخريجين في مدرسته على التأليف ولم يعد يقنع منهم بالحفظ والرواية ، وكان من نتاج هذه المدرسة أبو طاهر الجيطالي (في القرن الثامن) وهو مؤلف «قواعد الإسلام» و «قناطر الخيرات» وهذا الثاني كتاب جليل الفائدة في أمور الزهد وقواعد الأخلاق . وألف زميله عامر الشماخي (القرن الثامن) كتاب «الإيضاح» وقد وصف أبو العباس الشماخي هذا الكتاب بقوله : «وهذا التأليف ما أظن أُلف في المذهب مثله جمعاً وتعليلاً واختصاراً غير مخل وتطويلاً غير ممل ولا مكرر ، وهو اعتماد أهل المغرب في وقتنا ، خصوصاً نفوسة» .

وإذا كانت الثمرات الكبرى للنهضة العلمية في جبل نفوسة قد نضجت في القرن الثامن ، فإنّها في طرابلس قد بكّرت فشملت القرن السابع . وقد تفاوتت القدرة على استطلاع أحوال هذه النهضة لدى الرحالين الذين زاروا طرابلس في ذلك القرن : فابن رشيد الذي لم يُقم في البلد إلاّ يوماً وليلة وبعض يوم (ربيع الثاني سنة ٦٨٥) لم يتعرف إلى أحد من علماء طرابلس سوى قاضيها الفقيه عبد الوهاب بن أبي الحسن بن عبد السيد فوجد فيه رجلاً فاضلاً سرياً حفياً ونزل في ضيافته ثم قال : «ولم نلق بها أحداً من أهل العلم»[1] . وهذا هو

---

١ أعلام ليبيا : ١٩٩ نقلا عن رحلة ابن رشيد .

الرجل الذي لقيه العبدري (٦٨٩) فرآه رجلاً قد أثر الكبر في جسمه فضعف بصره وأثرت الحبسة في قدرته على الإفهام في النطق ، قال : « وقد استفرغت جهدي وقت إقرائه في تفهم ما يقول فما فهمته إلا بعد مدة »[1] ؛ وسأله العبدري عن شيوخه فأبهم الإجابة وتنمّر ثم صده عن التمادي في سؤاله بجهامة وشكاسة ، وسأله عن أشياء في العلم فما أجاب بشيء ، وقد حضر العبدري درساً له في التفسير ووجّه إليه أسئلة ولم يرض إجابته ثم حضر تدريسه في الموطأ . وفي عودته إلى طرابلس ذكر له شيخ فيها يدرس الفقه يُعرف بابن عبيد ، فحضر مجلسه ، وانسحب دون أن يكلمه لأنه رآه قليل التوقير لأهل العلم[2] .

وقد كان للتجاني الفضل الأكبر في تصوير الحركة العلمية والأدبية بطرابلس حتّى مطلع القرن الثامن ، لأن إقامته الطويلة فيها مكنته من رؤية ما غاب عن غيره من الرحالين العابرين .

فمن علماء طرابلس الذين عرّفنا بهم — في القرن السابع — أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا (٦٠٦ — ٦٨٤) الذي كانت له يد في بناء المدرسة المنتصرية ؛ رحل إلى المشرق وأخذ عن بعض علمائه ثم عاد إلى تونس في عهد الأمير أبي زكريا ، وبعد مدة رجع إلى طرابلس ، ثم استدعي إلى تونس فولي بها الخطط الرفيعة ، وله تصانيف منها « العقيدة الدينية » وشرحها و « جلاء الالتباس في الردّ على نفاة القياس » و « مذكر الفؤاد في الحضّ على الجهاد » ؛ وقد درس عليه طلابه بطرابلس — في ما درسوه — كتاب « الإرشاد » و « البرهان » لأبي المعالي و « المستصفى » للغزالي[3] .

---

١ الرحلة المغربية : ٧١ .

٢ الرحلة المغربية : ٩١ .

٣ رحلة التجاني : ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧٣ .

ومنهم الفقيه القاضي أبو موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي (توفي ٦٦٠) وهذا الرجل تولى القضاء بطرابلس ما يزيد على ثلاثين سنة، ومنها استدعي إلى تونس سنة ٦٥٨ وتولى القضاء فيها إلى أن توفي. وكان ابن معمر يدرّس لطلبته كتاب «التفريع» لابن الجلاب و «تهذيب المدونة» للبرادعي. وكان المعيد عنده هو أبو محمد عبد الوهاب بن محمد الهنزوني (توفي ٦٦٣) وقد تولى التدريس بعد فراق شيخه لطرابلس، وكان فيما يعلّمه كتاب «المحصول» لابن العربي و «المستصفى» للغزالي[1].

ولأبي موسى بن معمر هذا أخ فقيه هو أبو علي الحسن بن موسى الهواري (٦٠٩ – ٦٨٢) درس بطرابلس ثم توجه مع أخيه إلى المهدية فدرسا فيها على أبي زكريا البرقي، وظلّ يلازمه مدة طويلة بعد عودة أخيه القاضي إلى طرابلس، ثم تنقلت به الأحوال فولي خطة القضاء أيام المستنصر ثم خطة العلامة الكبرى وخطة الارفاع والنظر في خزانة الكتاب؛ وتقلبت أيامه بين تولية وعزل إلى أن مات بعيداً عن طرابلس[2].

وعلى هؤلاء الأساتذة وبدراسة الكتب المذكورة نفسها تخرج شيخ طرابلس في وقته الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المعروف بابن عبيد (ولد سنة ٦٣٩) وهو الرجل الذي انسحب العبدري من مجلسه لأنّه لا يوقر العلماء. ولكن التجاني يقول فيه: «حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من المسائل تشذ عنه، حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو

---

١ المصدر السابق: ٢٥٥ – ٢٥٦ والزركشي: ٢٦، ٢٩.

٢ المصدر السابق: ٢٧٤ – ٢٧٦ والزركشي: ٣٧.

تخريج ، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام الإمام أبي المعالي وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي »[1] .

وقد اكتفى ابن عبيد بالدرس على شيوخ بلده ومن يمر به من علماء الأمصار ، ولم يرحل في طلب العلم ، وإنّما ذهب سنة ٧٠٣ لقضاء فريضة الحج . وكان من أساتذته الذين مرّوا بطرابلس :

أ – أبو الجيش محمد بن إبراهيم الأندلسي البسطي عند عودته من الحج : قرأ عليه بعض مؤلفاته في العربية وشيئاً من نظمه وروى « المذهبة » لابن المناصف .

ب – أبو محمد عبد الله بن عبد الكريم الغماري : لقيه في مروره ذاهباً إلى المشرق ، وأقام الغماري في طرابلس مدة طويلة تمكن ابن عبيد خلالها من أن يقرأ عليه كتابه في الفرائض وجُلّ كتاب « الكافي » لابن المنمر في الفرائض وجُلّ كتاب الحصار في علم الحساب سنة ٦٥٤ ، ثم قرأ عليه عندما عُين قاضياً بطرابلس جملة من المعالم الفقهية لابن الخطيب .

ج – أبو العباس الأعجمي : ورد طرابلس من المشرق سنة ٦٦٢ فقرأ عليه بعض المعالم الدينية لابن الخطيب .

د – أبو محمد عبد الله بن إبراهيم القابسي : ورد طرابلس قاضياً فقرأ عليه أكثر من نصف البخاري[2] .

ولما رغب التجاني في القراءة عليه أبدى اللحياني – الأمير الحفصي – مثل تلك الرغبة ، فانتقل ابن عبيد للتدريس في مجلس بالقصبة حيث يقطن

---

١ رحلة التجاني : ٢٥٤ – ٢٥٥ .

٢ المصدر نفسه : ٢٥٦ – ٢٥٨ .

الأمير ، واختاروا البدء في الحديث فتناول التجاني « صحيح مسلم » وأخذ يقرأ فيه والأستاذ يعلق ويفسر ويجيب على الأسئلة ، ثم أخذ في قراءة « صحيح البخاري » على النحو نفسه ، ثم أجاز ابن عبيد التجاني بما رواه عن شيوخه ، قبل انفصاله عن طرابلس .

والحقّ أن مكانة ابن عبيد في الفقه بطرابلس — في ذلك القرن — لا يوازيها إلا مكانة ابن الأجدابي في اللغة ، في عصره . ومن اللافت للنظر أن كلاً منهما اكتفى بشيوخ بلده أو الشيوخ المجتازين ولم يرحل في طلب العلم . وتخرُّج مثل هذين الإمامين — دون رحلة — لا يدل على استعداد أصيل فيهما وحسب ، بل يدلُّ على حسن الاستعداد العلمي في البيئة نفسها ، غير أن ابن الأجدابي خلد بمؤلفاته ، أما ابن عبيد فلو لم يمر التجاني بطرابلس لنسي دوره في تاريخ بلده الثقافي ، لأنّه كان « معلماً » وحسب ، إذ لم يذكر له التجاني شيئاً في باب التأليف .

ومن العلماء الذين لقيهم التجاني أيضاً أبو الحسن بن عبد الوهاب القيسي ، كان أبوه رجلاً صالحاً ونشأ هو على طريقته في الزهد، وكان يتصدر للوعظ ، وقد حضر له التجاني مجلساً فيه[1] . ومنهم الفقيه أبو يحيى بن أبي بكر بن برنيق الهواري المجريسي ، أصله من زنزور ثم انتقل عنها إلى طرابلس ، وكان مشاركاً في علوم منها أصول الدين على طريقة القدماء وأستاذه فيها هو ابن أبي الدنيا ، ومنها الفقه ، وكان شيخاً كبير السن يوم لقيه التجاني[2] . ومنهم الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري (٦٣٥ — ٧٠٨) أصله من تاجورة ثم لزم سكنى طرابلس وكان أحد الشهود المعدلين بها عارفاً بالتوثيق

---

١ رحلة التجاني : ٢٦٢ .

٢ المصدر نفسه : ٢١٨ .

وعقد الشروط حافظاً للآداب والتواريخ ذا خط حسن ، لازم التجاني بطرابلس أثناء إقامته فيها ، ونقل عنه التجاني كثيراً من الأخبار والتقييدات [1] .

ومن الطريف أن يسجل التجاني لقاءه لفقيه إباضي المذهب التقى به في زوارة ، وهو عبد الرحيم الزواري ، فوجد فيه رجلاً معظماً مقدماً في قومه ، مشاركاً في طرف من العلم ، وقد تباحث معه في بعض المسائل الفقهية ، وتمسك كل منهما بما يراه متمشياً مع مذهبه [2] .

* * *

بعد هذا العرض لبعض جوانب البيئة الثقافية لا بد أن يثور في نفس القارىء سؤال ضروري : أين دور الأدب من شعر ونثر ؟ أو لنضع السؤال وضعاً آخر : ألم تنجب ليبيا شعراء وناثرين ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من أن نذكر أن قضية الأدب تختلف عن سائر فروع المعرفة : كل فروع المعرفة كانت تحتاج — يومئذ — رعاية الدولة أو الأمير ولكن كان في مقدورها أن تنمو مستقلة عن تلك الرعاية ، إلاّ الأدب — والشعر منه بشكل خاص — فإنّه إن حُرم تلك الرعاية مات أو نما نموّاً ضعيفاً (إلاّ في النادر عند شعراء ذوي شخصيات متفردة كالمعرّي) . وقد صحّ عند استقراء تاريخ الأدب العربي أن الأدب كان ابن « العواصم » السياسية ؛ ولم تتبلور في ليبيا هذه العاصمة . لم تستطع طرابلس أيام بني خزرون أو بني مطروح أو بني ثابت أن تكون ذات « بلاط » أدبي ؛ لم تستطع أن تنعش الحياة الأدبية بمثل حماية المعز بن باديس في القيروان أو المستنصر الحفصي

---

١ المصدر نفسه : ٣٠٨ .

٢ رحلة التجاني : ٢٠٧ — ٢٠٨ .

في تونس ؛ دع عنك ذكر قرطبة الأمويين وإشبيلية العباديين وحلب الحمدانيين وقاهرة الفاطميين وبغداد العباسيين .

وقد نتصوّر أن الحياة الأدبية كانت تزدهر حين كان الحكام ممن يتذوقون الشعر والأدب ويشجعون عليهما ، وفي عهد بني الأغلب أمثلة واضحة من هؤلاء : مثل عبد الله بن محمد أبي العباس الأغلبي الذي كان هو نفسه شاعراً أديباً [1] ، ومثل محمد بن زيادة الله الذي كان أيضاً عالماً أديباً شاعراً خطيباً [2] ، ففي عهد مثل هذين الواليين لا يستبعد تقريب الشعراء وإجزال العطاء لهم ، ولكن المصادر لا تتحدث بشيء من هذا النشاط ، بل إنّنا لا نعرف أشعار هذين الواليين ، ولو وصلتنا لألقت ضوءاً على الفترة التي قضياها في طرابلس وعلى بعض أخبارها وأحداثها .

وأكبر شخصية تنتمي إلى فئة الشعراء في عصر العبيديين خليل بن إسحاق ، الذي تعرفنا إلى جانب من دوره السياسي في بلده فيما تقدم [3] ؛ وقد كان خليل من الرجال المقدّمين في دولة العبيديين ، وتولى فيها مناصب مختلفة ، فمن جباية الأموال في مصر إلى تزعُّم فريق الخيالة في إفريقية ثم إلى تولي أمور صقلية سنة ٣٢٥ وقد كان عسوفاً في سياسته لأهلها حتى هرب كثير منهم إلى بلد الروم ، وبعد عودته من صقلية إلى إفريقية (٣٢٩) كان يفتخر فيقول : قتلت وأهلكت ألف ألف – في قول المكثّرين – وستمائة ألف – في قول المقللين – ، وبعدما صُرف عن ولاية صقلية قُدّم لمحاربة أبي يزيد الخارجي ، وفي القيروان قتله أبو يزيد وصلبه .

---

١ راجع ما سبق ص : ٧٠ .

٢ راجع ص : ٧٠ من هذا الكتاب .

٣ انظر ص : ٨١ .

وشعر خليل من الشعر الذي يتميز بالجزالة والقدرة على التصرّف ، ولكن ما وصلنا من شعره إنّما يمثل جانب المدائح ، ويبدو أن انصرافه إلى خدمة القضية العبيدية جعله يقف أكثر شعره على مدح المهدي وابنه القائم ، فمن قصيدة له يمدح المهدي ويعارض مروان بن أبي حفصة :

قِفْ بالمنازِل واسألنْ أطلالها ... ماذا يضرك إن أردت سؤالها
هل أنت أول من بكى في دمنة ... درست وغيرت الحوادث حالها
يا دار زينبَ هل تردّين البُكا ... عن مقلة سفحت عليك سجالها
بدّلت بالإنس الخرائد كالدُّمى ... وحشَ الفلاةِ ظباءها ورئالها
صلّى الإلهُ على النبيّ محمّدٍ ... وعلى الإمامِ وزاده أمثالها
إنَّ الإمامَ أقامَ سُنَّةَ جدّه ... للمسلمين كمَا حذوتَ نِعالها
أحيا شرائِعَها وقوَّمَ كُتُبَها ... وفروضها وحرامها وحلالها
وهدَى به الله البريّةَ بَعدما ... طلب الغواةُ الظالمُون ضلالها

ولا نرى في شعره تلك المغالاة التي جرى عليها الشعراء العبيديون . ومن شعره أيضاً أبيات كتبها إلى القائم يودّعه في خروجه إلى القيروان :

وما ودّعتُ خير الناس طُرّاً ... ولا فارقْتُهُ عن طيب نفسِ
وكيفَ تَطيبُ نفسي عن حياتي ... أُفارقها وعَن قمري وشمسي
ولكنّي طلبت رضاه جُهدي ... وعَفوَ الله يومَ حلول رمسي
فَعاشَ مملّكاً ما لاحَ شمسٌ ... على الثقلَين من جِنٍّ وإنسِ[1]

---

١ انظر الحلة السيراء ١ : ٣٠٢ – ٣٠٤ .

وفي قوة بيان هذا الشعر ما يجعل خليل بن إسحاق مقدَّماً في من نعرفهم من الشعراء الليبيين ، وإن كان المدح من الفنون التي فقدت رواءها في أنظارنا اليوم .

ومن ثمّ نستطيع أن نقول – حتى يظهر لنا من الآثار الأدبية ما ينقض هذا الحكم – إن طبيعة الحياة في ليبيا لم تتح الفرصة لظهور شعراء وأدباء من الطراز الأول ؛ وكان أكثر المتمرسين بالشعر إمّا من فئات اللغويين مثل ابن الأجدابي وإمّا من الفقهاء مثل ابن أبي الدنيا ، وأبي علي بن معمر الهواري . وهنا تتحكّم طبيعة الموضوع وطبيعة الثقافة في مدى جودة الشعر . ولذا غلبت على أشعار هؤلاء النزعة الدينية أو التعليمية ، فممّا يمثل النزعة الزهدية في طلب العزلة قول ابن أبي الدنيا[1] :

طُرقُ السّلامة والفلاحِ قناعةٌ ولزومُ بيتٍ بالتوحُّش مؤنسي
يكفيه أنساً أن يكونَ أنيسهُ آي القران ونورهُ في الحندس
وإذا رَأتْ عَيناهُ إنساناً أتى فلينفرنَّ نفورَ ظبي المكنَس
ولقلّما يَنْفكُّ صاحبُ مِقْولٍ من زَلّةٍ أو عثرة في المجلس

ولابن أبي الدنيا أيضاً قصيدة طويلة ذات طابع ديني ومطلعها :

بحمدِ الله نبتدىء الأمورا ونختم آخراً فيهِ الحبورا

وأعلى من هذا الشعر مستوى وإن كان لا يتجاوز الرصف المتقن قول أبي علي بن المعمر من مقدمة غزليّة[2] :

---

١ رحلة التجاني : ٢٧٣ .

٢ المصدر نفسه : ٢٧٧ .

لولا احورار جفون أودعت سقما ما أمطرت سحب أجفاني الدموع دما

ولا وقفْتُ أصيلاناً بِرَبْعِكمُ ولا سَقيت رُباهُ من دَمي دِيَما

ولا نثرتُ عقيق الدَّمْعِ في طللٍ منه أذيع الذي قد كان مكتتما

شمل السلوّ شتيت بعدَ بعدكمُ وطالما كانَ قَبلَ اليوم مُلْتَئما

والوجدُ شادَ بجسمي ما يهدّمُه آهٍ على ما بَنى فيهِ وما هدما

يا مَنْ يَلوم على ما جلّ من أسفي هذا اليسير من الأمْرِ الذي كتما

ما خطّطَ النَّوْم في جفنيّ رسم كرًى إلاّ محا السّهدُ ما قد خطّ أو رسما

أُنبيكمُ أنّني من يَوْمِ بينكمُ ما زلت للسّهدِ والتذكار ملتزما

أرتاح إن هبَّ ريحٌ من جنابكمُ أو لاح برقٌ بذاك الأفْقِ وابتسما

ومن شعره وهو أجود من سابقه[1] :

آهاً نُردّد لَوْ تشفي لَنا كُرَبا وبالتعلاّت نحيا لو قضت أربا

وبالأماني يَنالُ القَلْبُ بُغْيَته وقَدْ تحقّق من مُعْتادها كذبا

يَرتاحُ إنْ لاحَ برقٌ من جهامَتها وما تراءى لهُ إلاّ وقد ذهبا

ومنها :

وارَحْمتاه لقلبي كَمْ أُجشّمه أمراً يذيب من الأصلادِ ما صلبا

أسْتَغْفرُ اللهَ لا أشكو الزمان ولا أبدي إذا طرقت أحْداثه رهبا

ولا أئنُّ لحظٍّ مِنْهُ أعوزني ولا أُسَرُّ إذا ماء المُنَى انْسكَبا

وإنّما أورد هذه الأمثلة دون تحليل لها أو درس لأنها في كميتها ونوعها

---

[1] المصدر نفسه : ٢٧٩ .

لا تمكن الباحث من إصدار حكم أو استبانة خصائص فارقة ؛ ولولا استكمال جوانب البحث لمرَّ الدارس عنها عابراً دون توقف .

* * *

بعد هذه الصورة التي اعتمدنا في أكثرها على ذلك الرحالة المدقق الشيخ التجاني لنصوّر الوضع الثقافي في ليبيا (وفي طرابلس على وجه الخصوص) لا نجد شيئاً ذا بال عن الأوضاع الثقافية في القرن الثامن – باستثناء بعض الأخبار عمّا كان بين إباضية الجبل من نشاط علمي وتأليفي – . ولا بد أن نفترض أن معالم العلم لم تنطمس في ليبيا أثناء القرن الثامن ولكنها لم تجد تجانيّاً آخر يوليها الاهتمام والعناية . هل في المؤلفات التي لا تزال تنتظر الكشف شيء يكمّل هذه الصورة ؟ ذلك نوع من الأمل نرجو تحقيقه بمواصلة البحث والتنقيب .

جداول بأسماء الولاة

ولاة برقة

عقبة بن نافع الفهري	٢٦ — ٣٤ هـ.
	٣٨ — ٤٦
رويفع بن ثابت	٤٦ — ٤٧
زهير بن قيس البلوي	
إبراهيم بن النصراني	
تليد الفتى	٧٨ (؟)
فهد بن كثير	حوالي ٩٩
أبو عون عبد الملك بن يزيد	١٣٥ — ١٣٦
ابن دياس	١٤٠
عبد السلام السبائي	١٤٨
عيسى بن منصور	٢١٥
محمد بن عبدويه الجبلي	٢٢٧
محمد بن هرثمة بن أعين	٢٥٧
أحمد بن عيسى الصغدي	٢٦١ — ٢٦٢
محمد بن فروخ (فرج) الفرغاني	٢٦٢
شعبة بن خركان	٢٦٢ — ٢٦٥
(ثورة العباس)	٢٦٥ — ٢٦٨
(والٍ طولوني عينه طبارجي)	٢٦٨
أحمد بن صالح بن أبي النمر	٢٩٧

خير المنصوري	٢٩٧
أبو مدين بن فروخ اللهيصي	٣٠٤ – ٣٠٦
أفلح الناشب الكتامي	(زمن المعز وهو بإفريقية)
يانس الصقلي	– ٣٩٠
صندل الأسود	٣٩٤
(ثورة أبي ركوة)	٣٩٤ – ٣٩٧
عهد الزعامات القبليّة من بني قرّة :	
مختار بن القاسم	
مقرب بن ماضي	(حدود ٤٢٠)
جبارة بن مختار	(حدود ٤٤٠)
ماضي بن مقرب	(حدود ٤٤١)
عهد الزعامات القبليّة من بني سليم	٤٤١ – ٥٦٨
عهد مغامرات قراقوش	٥٦٨ – ٥٧٨
عودة إلى عهد الزعامات القبلية السُّلَمية	٥٧٨ – ٧٦٠ (؟)
. . . .	
عطاء الله بن عزاز	٦٦٢
. . . .	
جعفر بن عمر شيخ الجعافرة	حوالي ٧١٧
استمرار سيادة بني عزاز :	
سيادة عريف بن عمرو	(النصف الثاني من القرن الثامن)
سيادة عمرو بن عريف	» » » » »

ولاة طرابلس

صفوان بن أبي مالك	١٢٣ هـ.
معاوية بن صفوان	١٢٤
إلياس بن حبيب الفهري	١٢٦
حميد بن عبد الله العكّي	١٢٧
يزيد بن صفوان المعافري	١٢٧
عمرو بن سويد المرادي	١٣٢
عبد الله بن رحيمة (وال لأبي الخطاب)	١٤٠
المخارق بن غفار	١٤٤ — ١٥٠
الجنيد بن بشّار الأسدي	١٥٠
سعيد بن شداد	١٥٥
يحيى بن موسى	١٧٧
سفيان بن المضاء أبي المهاجر	١٧٩
(عدد من الولاة)	١٨٤ — ١٨٩
سفيان بن المضاء أبي المهاجر	١٨٩
إبراهيم بن سفيان التميمي	١٨٩
سفيان بن أبي المهاجر	١٩٠ (؟)
عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب	١٩٦
سفيان بن أبي المهاجر	١٩٦ — ١٩٧
منصور بن نصر الجشمي الطنبذي	(عزل ٢٠٩)
محمد بن الأغلب أبو عبد الله	(توفّي بها ٢٣٣)

أحمد بن سفيان بن سوادة الأغلبي	(؟)
عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب	(زمن أبي الغرانيق)
وال ٍ آخر	(« « «)
عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب	(« « «) (للمرّة الثانية)
محمد بن قرهب	(زمن إبراهيم بن أحمد)
محمد بن زيادة الله بن الأغلب	(زمن إبراهيم) قتل ٢٨٣
أحمد بن عبد الله بن الأغلب	زمن زيادة الله الثالث
	(نهاية الأغالبة ٢٩٦)
ماقنون (ماكنون) بن زيادة الأجابي	٢٩٨
محمد بن إسحاق المعروف بابن القرلين	٣٠٠
وال ٍ شيعي (لم يذكر اسمه)	٣٠١
زيان الصقلي	٣٤٥
نصير الخازن	(زمن المعز)
عبد الله بن يخلف الكتامي	٣٦١
يحيى بن خليفة الملياني	٣٦٧
تمصولة بن بكار	٣٦٧ — ٣٨٩
فلفول بن سعيد الزناتي	٣٩١ — ٤٠٠
وروا بن سعيد	٤٠٠ — ٤٠٦
خليفة بن وروا	٤٠٦ — ٤٢٩
سعيد بن خزرون	٤٢٩
خزرون بن خليفة	٤٢٩ — ٤٣٠
المنتصر بن خزرون	٤٣٠ — ٤٦٠
مقلّد بن تميم بن المعز	٤٧٥

خليفة بن خزرون	؟ — ٤٨٨
شاهملك التّركي	٤٨٨
محمد بن خزرون	؟ — ٥٤٠
ابن مطروح	٥٤٠ — ٥٥٣ (تبعيته لصقلية)
ابن مطروح	٥٥٣ — ٥٧٩ (تبعيته للموحدين)
قراقوش	٥٧٩ — ٥٨٣
أبو زيان الغزّي	٥٨٣
قراقوش	٥٨٦ (قُتل سنة ٦٠٩)
ياقوت الافتخار	٥٨٦
تاشفين بن غازيَ (أو الغاني)	— ٥٩٩
عبد الله بن إبراهيم بن جامع	٦٠٣
الدهيّ بن أبي عمارة	٦٨١
أبو يحيى اللحياني	٧١٧
أبو عبد الله بن أبي عمران	٧١٨ — ٧٢٤
ثابت بن محمد بن ثابت	٧٢٤ — ٧٣٠
محمد بن ثابت	٧٣٠ — ٧٥٠
ثابت بن محمد	٧٥٠ — ٧٥٥
(استيلاء الجنويين عليها	٧٥٥)
أبو العبّاس بن مكّي	٧٥٥ — ٧٦٦
عبد الرحمن بن مكّي	٧٦٦ — ٧٧٢
أبو بكر بن محمد بن ثابت	٧٧٢ — ٧٩٢
عمران بن محمد بن ثابت	٧٩٢ — ٨٠٠
يحيى بن أبي بكر بن ثابت	٨٠٠ — ٨٠٣

أئمة جبل نفوسة [1]

أبو الخطّاب عبد الأعلى بن السمح	١٤٠ — ١٤٤
عمر	١٤٤ — ١٥٤
أبو حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي	١٥٤ — ١٦٠
السمح بن أبي الخطّاب	١٦٠ — ١٩٦
خلف بن السمح	حوالي ١٩٦
أبو الحسن أيوب بن العباس	
أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني	
العباس بن أيوب	٢٢١
أبو ذر أبان (سبعة أشهر)	
أبو منصور إلياس	
(أبو عبد الله بن إلياس)	
(أبو زكريا التندميرتي)	
الأفلح بن العباس	حوالي ٢٨٣
ابن عم أفلح	٢٨٤
أبو زكريا يحيى الأرجاني	(قُتل ٣١١)

[1] انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور ص : ١٠١ .

الفهارس

فهرست الأعلام والأماكن والقبائل[1]

---

[1] لم ندرج في هذا الفهرست الأسماء التي كثر تكررها مثل : برقة ، طرابلس . . . الخ .

ب

ث

ج

ح

خ

---

١ ورد في هذه الصفحة خطأ « قيس بن زهير » .

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

ثبت بمصادر البحث ومراجعه

١ — المصادر :

الأزمنة والأنواء : لابن الأجدابي ؛ تحقيق الدكتور عزة حسن (دمشق) ١٩٦٤

الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية : لسليمان الباروني .

الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (الإسكندرية ١٩٥٨) .

أعلام ليبيا : للطاهر أحمد الزاوي (القاهرة ١٩٦١)

إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (١ — ٣) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار الكتب المصرية) .

الأنساب للسمعاني ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني (حيدر آباد الدكن ١٩٦٢)

بسط الأرض لابن سعيد ، تحقيق الدكتور خوان قرنيط خينيس (تطوان ١٩٥٨) .

بغية الوعاة للسيوطي : (القاهرة ١٣٢٤) .

البلدان : لليعقوبي (مطبوع مع الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١) .

البيان المغرب : لابن عذاري المراكشي ج ١ (ط . بيروت) ج ٣ (تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣٨) ج ٣ (تحقيق هويسي ميراندا ورفيقيه ، تطوان ١٩٦٠) .

تاريخ ابن الأثير : (الكامل في التاريخ ، الطبعة الأوروبية) .

تاريخ ابن إياس : (بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ — ٣ ط . بولاق ؛ ج ٤ ، ٥ تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦١) .

تاريخ ابن خلدون : (كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر ، ط . بولاق) .

تاريخ الدولتين : الموحدية والحفصية للزركشي (تونس ١٢٨٩) .

تاريخ الطبري : (الطبعة الأوروبية) .

تاريخ ابن الفرات : تحقيق الدكتور قسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٦) والجزء السادس من مخطوطة فينا .
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (١ – ٢) لابن الفرضي (القاهرة ١٩٥٤) .
تبصير المنتبه بتحرير المشتبه : لابن حجر العسقلاني (القاهرة ١٩٦٥) .
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لمحيي الدين بن عبد الظاهر ، تحقيق الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)
جذوة المقتبس للحميدي ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة ١٣٧٢) .
جمهرة الأنساب : لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون (دار المعارف بمصر ١٩٦٢) .
الحلة السيراء : لابن الأبار (١ – ٢) تحقيق الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) .
الخريدة (القسم الرابع ج ١) : للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي ، وعلي عبد العظيم (القاهرة) .
خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار ١ – ٤) ط . القاهرة .
الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر : للدواداري ، تحقيق الدكتور هانس رويمر (القاهرة ١٩٦٠) .
الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : لابن حجر العسقلاني (١–٤) ط. حيدر آباد الدكن .
الديباج المذهب : لابن فرحون (القاهرة ١٣٥١) .
رحلة ابن بطوطة (دار صادر ، بيروت ١٩٦٠) .
رحلة التجاني : تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب (تونس ١٩٥٨) .
الرحلة المغربية : للعبدري ، تحقيق أحمد بن جدو (نشر كلية الآداب الجزائرية) .
رسائل موحدية : تحقيق ليفي بروفنسال (الرباط ١٩٤١) .
رفع الإصر عن قضاة مصر (١ – ٢) : لابن حجر العسقلاني (القاهرة) .
روض القرطاس : لابن أبي زرع (ط . فاس) .
رياض النفوس : للمالكي (ج ١) تحقيق الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) .
كتاب السلوك : للمقريزي ، تحقيق الدكتور مصطفى زيادة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
كتاب السير : للشماخي الطرابلسي .
سيرة ابن طولون : للبلوي ، تحقيق محمد كرد علي (دمشق ١٣٥٨) .

سيرة الأستاذ جوذر : لأبي علي منصور العزيزي الجوذري ، تحقيق الدكتورين محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة ١٩٥٤) .

صبح الأعشى : للقلقشندي (دار الكتب المصرية) .

صورة الأرض : لابن حوقل (دار مكتبة الحياة ، بيروت) .

طبقات النحويين واللغويين : للزبيدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٥٤) .

فتوح البلدان (١ ــ ٣) للبلاذري ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٦) .

فتوح مصر وأخبارها : لابن عبد الحكم (ليدن ١٩٢٠) .

قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان : للقلقشندي ، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة ١٩٦٣) .

كفاية المتحفظ : لابن الأجدابي (المطبعة الأدبية ، بيروت ١٣٠٥) .

مسالك الأبصار : للعمري (مخطوطة أياصوفيا) .

المسالك والممالك : للإصطخري الكرخي ، تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني (القاهرة ١٩٦١) .

المعجب في تلخيص أخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة ١٩٦٤) .

معجم الأدباء : لياقوت الحموي (ط . القاهرة) .

معجم البلدان : لياقوت الحموي (الطبعة الأوروبية) .

المغرب في حلى المغرب : لابن سعيد ، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن ورفيقيه (القاهرة ١٩٥٣) .

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : لأبي عبيد البكري (الجزائر ١٨٥٧) .

مفرج الكرب : لابن واصل الحموي (١ ــ ٣) ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال .

الملل والنحل : للشهرستاني (١ ــ ٢) تخريج محمد بن فتح الله بدران (الطبعة الثانية ١٩٥٦) .

المنتظم : لابن الجوزي (حيدر آباد الدكن) .

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (١ ــ ٢) : لأحمد بك النائب الأنصاري (منشورات مكتبة الفرجاني ــ طرابلس) .

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس : لابن أبي دينار الرعيني (تونس ١٢٨٦) .
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وصف إفريقية الشمالية والصحراوية) : للإدريسي اعتنى به هنري بيريس (الجزائر ١٩٥٧) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: للمقري (نشر الشيخ محيي الدين عبد الحميد) .
نهاية الأرب للنويري (ج ٢٢ لوحات مصوّرة) .
نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة ١٩٥٩) .
الوزراء والكتاب : للجهشياري ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
كتاب الولاة والقضاة : لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي ، تحقيق رفن جست (بيروت ١٩٠٨) .

٢ – المراجع :

تاريخ الفتح العربي في ليبيا : للطاهر أحمد الزاوي (دار المعارف بمصر) .
تاريخ المغرب الكبير (٢ ، ٣) : لمحمد علي دبوز (القاهرة ١٩٦٣) .
فتح العرب للمغرب : للدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٤٧) .
فجر الأندلس : للدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٩) .
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : لزامباور (الترجمة العربية) .
مؤنس الأحبة في أخبار جربة : لمحمد أبو راس الجربي (تونس ١٩٦٠) .
نفحات النسرين والريحان : للأنصاري ، تحقيق علي مصطفى المصراتي (المكتب التجاري بيروت) .
Charles Diehl : L'Afrique byzantine, vol. 2 (New York).

موضوعات الكتاب

